سلسلة

أسئلة العصر المحيرة

الردّ على شُبُهات العَصر

محمد فتح الله كُولَن

دار النيل

الردّ على شُبُهات العَصر

محمد فتح الله كولن

سلسلة أسئلة العصر المحيّرة (١)

الردّ على شُبُهات العَصر

Copyright©2013 Dar al-Nile

Copyright©2013 Işık Yayınları

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزن المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-616-5

رقم النشر

488

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah Bağcılar Cad No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة

(١)

الردّ على شُبُهات العَصر

تأليف:

محمد فتح الله كولن

ترجمة:

أورخان محمد علي - عبد الله محمد عنتر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

تقديم ٩
وحدانية اللَّه وتجليات أسمائه الحسنى ١٣
وجوب وجود اللَّه تعالى ١٩
الحكمة من خلق اللَّه للكون ٢٧
حكمة خلق اللَّه للناس على صُوَر شتى ٣٣
تصرف اللَّه في خلقه..... ٣٥
رؤية اللَّه في عالم الشهادة..... ٤١
حكمة الامتحان في الدنيا..... ٤٥
العبادة والتعبّد..... ٤٩
تفاوت الناس في الإمكانيات..... ٥٥
تكفّل اللَّه بالرزق..... ٥٩
عالمية سيدنا محمد ٦١
حادثة تلقيح النخل ٦٧
حكمة تعدد زوجات النبي..... ٧٣
ضرب المرأة..... ٨٣
الحاجة إلى الدِّين ٩١
حقيقة الجهاد في الإسلام..... ١٠١
قدرة الإسلام على حل جميع المشكلات ١٢١
منطقية الإسلام والتعبدية ١٢٣
الإسلام والرقّ..... ١٢٧

حديث القرآن عمّا كان وما سيكون ١٣٩
عدم إمكانية نسبة القرآن إلى غير اللّه ١٤٩
الغيبيات الخمس ١٦٥
حديث القرآن عن أشخاص كأبي لهب ١٧١
العلاقة بين القدر والإرادة..... ١٧٩
الهداية والضلالة..... ١٨٥
إرادة الإنسان ودورها في الأعمال ١٨٩
وضعُ من وُلد في بلدة غير إسلامية ١٩٣
ملك الموت وقبض الأرواح..... ٢٠٧
الأماكن التي أرسل فيها الأنبياء ٢١٥
حدوث الأرواح..... ٢٢٥
إيجاد المعدوم وإفناء الموجود ٢٢٩
مصادر ٢٣٧

يتضمن هذا الكتابُ المتواضع سلسلةً من الأجوبة الارتجالية على أسئلة وُجِّهتْ في مناسبات مختلفة، وقد حوفظ فيه في غالب الأحيان على الأسلوب الخطابي الكلامي. ورغم أنّ الكتاب قد خضع فيما بعد لبعض التصحيحات الطفيفة فإنّ أسلوبَ الكتاب وصياغته الأولى لم يتعرضا لأي تغيير. والأحرى أننا آثرنا عدم القيام بهذه العملية لصعوبة إعادة صياغة كلّ شيء من جديد، مما نجم عن ذلك وجود بعض الغموض والقصور في التعبير. ولذا نرجو من قرَّائِنا الأعزاء أن يأخذوا كلّ هذه الملاحظات بعين الاعتبار عند مطالعتهم لهذا الكتاب، وأن ينظروا بعين الصفح إلى ما بدر منّا من سهو أو قصور. وأخيرًا نسألهم الدعاء لنا على الدوام.

محمد فتح الله كولن

تقديم

تراكمت منذ عصور كثيرٌ من الشكوك والشبهات، نَحتت ونخرت عقائدَ الناس فرادى وجماعات وكأنها مبرد أو مثقب يحتّ في العقول والأذهان. وقد لاحت هذه الشكوك والشبهات في عصرنا هذا على وجه الخصوص على شكل إلحادٍ جماعي. ولم يستطع العالم المسيحي أن يصمد أمام هذه الموجة، حتى إننا تعرضنا أيضًا في الوهلة الأولى للتذبذب والتردد. بل إنّ بعضًا من الشباب الذين فقدوا إيمانهم في بداية هذا العصر وكانت نهايتهم الانتحار قد نوّهوا في رسائلهم الأخيرة بأنه لا معنى للحياة من دون إيمان.

ولقد ترتب على الأدوات المفسدة التي تراكمت منذ ألف سنة أن أُثخنت المبادئُ والأفكارُ العامة بجروح غائرة، وقوّضت الشعائر الإسلامية التي تعد ركائز أساسية يعتمد عليه إنسانُ هذا العصر، فنتج عن هذا أن جَنَحَ الضميرُ العام إلى الضلال والفساد. ولذا كان يجب أن تُضمّد هذا الجروح بأدوية القرآن والإيمان.

ولقد كان علماؤنا على وعي بهذا، فها هو المرحوم "عمر نصوحي" يقول: "ينبغي لعلماء الإسلام اليوم أن يقوموا بعملية تجديد في علم الكلام، عن طريق تفنيد ودحض النظريات الفلسفية الحديثة التي كدّرت العقول والأذهان في هذا الزمان". ويشخِّص الطبيب الحاذق في هذا الزمان هذا المرضَ بقوله: "الفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث سبّبت في سريان حمّى مهلكة في البشرية، وعرّضتها للغضب الإلهي. فكلّما توسعت قابلية التمرد والانتقاد -بالتلقين والتقليد- توسّع ذلك الطاعون

أيضًا وانتشر. فانبهار الإنسان بالعلوم، وانغماره في تقليد المدنية الحاضرة أعطاه الحرية وروح الانتقاد والتمرد، فظهر الضلال من غروره".

وقد أصبح هذا المرض في زماننا أخطر وأوسع انتشارًا من الطاعون، وخاصةً بعد أن تناوله بعض الروائيين المشهورين في رواياتهم. فنما وترعرع في العقول والقلوب الشابة الغرّة الضعيفةِ المناعة. وأصبحت هذه الشكوك والشبهات مدار الحديث في القرى والمدن، فما يكاد الحديث يدور حول الدين والإيمان في المدارس والمقاهي حتى تطلّ هذه الشكوك والشبهات برأسها على جموع الناس ويشرعون في الحديث عنها.

فبعض الناس اتخذوا من هذا الوضع موقفًا، وكأنهم سدوا آذانهم تجاه هذه الشكوك والشبهات، فأخذوها وحاولوا أن يلووا أعناقها ويحطموا رؤوسها، بقوة إيمانهم الذي يفور ويطفح من أعماق ضمائرهم.. بل وألقى بها في غياهب السجون التي أعدّوها في قلوبهم وأذهانهم. ورغم أنهم لم يتمكنوا من دحض هذه الشكوك والشبهات، فإنهم اعتمدوا على صلابة إيمانهم والملذات الروحانية والمعنوية التي تكسبها نشوةُ العبادة، وعاشوا في شدٍّ معنوي، متصدّين لتلك الشكوك والشبهات، ولم يهبوها حقَّ الحياة.

وتجاوز بعضهم أيضًا فهمّ بتكفير هؤلاء الذين يثيرون هذه الشبهات دون اعتبار لنواياهم. فأدّت هذه السلبية في ردود الأفعال إلى تعمق الغرغرينا وانتشارها. ولمّا لم يجد مَن يسأل عن هذه الشبهات بنوايا حسنة، جوابًا مقنعًا لهم أصيبوا بخيبة أمل، وتورطوا أكثر في شبهات مهلكة، فوقعوا في دُوّامة الإلحاد، وتدحرجوا في هوًى سحيقة.

وكان هذا الوضع المزري فرصةً سانحةً لأولئك الذين تبنوا الفكر المادي وحوّلوا نظرتهم هذه إلى حرب أيدولوجية.. فأخذوا يصرعون كثيرًا من ضحاياهم بسهام هذه الشبهات، أو -على الأقل- يثخنونهم بالجراح.

كان الكفـر قديمًا نابعًا من الجهل، فلذلك كانت جهالات الناس تزول فـور بيـان الحقائق لهم، وتغمرهم السـكينة جـراء بلوغ الحـق والصواب. وأما في عصرنا فإن هناك عواصف إلحادية تهبّ تحت عباءة العلم والفلسفة، فهناك أشـخاصٌ يعتنقون مثل هذه النوعية من الأفكار ويحسـبون أنفسـهم عالميـن، ولـذا لا يتقبّلـون أي شـيء غير أفكارهـم التـي يعتبرونها علمية، ومـن ثمّ ضعفت قابلياتهم في البحث عـن الحقيقة. من أجل ذلك لم يكن يهتـدي مـن مثل هؤلاء قديمًـا إلا واحد بالألف. ولكـن لأن الإيمان قديمًا كان عامًّا ومتمكّنًا في النفوس؛ بمعنى أن أكثر الناس كانوا مؤمنين فلم يكن لمعتقـدات أولئـك ضـررٌ كبير على الآخريـن. بيد أنّ الكثيريـن في عصرنا تذبذبـت عقيدتهـم نظرًا لتولّي عصر التسـليم والإذعان، ونشـأ عن انتشـار الأراجيف أن رأينا أناسًـا متخبّطين في الشـكوك والشـبهات في كلّ مكان، بل مَن فقد كل ما لديهم.

وابتغـاءً لتضميـد هـذا الجـرح الغائر قمنا بإعـداد هذه السلسـلة التي تسـمى: ''أسـئلة العصر المحيـرة''. وهي عبارة عن أجوبـة ارتجالية على الأسئلة التي طرحتها جماعة المسجد -وأكثرهم من الشباب- أثناء دروس الوعـظ التـي كان يُلقيها الأسـتاذ محمد فتح الله كولن في السـبعينات من القـرن المنصـرم. ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن هذه السلسـلة تفتقد إلى وحدة الموضوع؛ لأن الأسئلة المطروحة كانت متعلقة بموضوعات شتى. ورغم هـذا فقد رتّبنا الموضوعات الواردة في هذه السلسـلة في أربعة مجلدات حتى تخضـع على الأقل لنظام معين.

المجلـد الأول: أسئلة عن شبهات مباشرة حول مبادئ العقيدة.

المجلـد الثانـي: أسـئلة تنطوي على شـبهات ضمنية، وأسـئلة أخرى تتعلق بالعقيدة.

المجلد الثالث: أسئلة حول حياة ''الخدمة الإيمانية''، وطرق اكتساب النضج الروحي، والحفاظ عليه.

المجلد الرابع: أسئلة متفرقة.

هذا وقد سبق أن نشرنا كتابًا واحدًا من هذه السلسلة تحت عنوان: ''أسئلة العصر المحيّرة''، يتضمن أسئلة مختارة مبثوثة في المجلدات الأربع التي تحمل اسم السلسلة. أما الكتاب الذي بين أيديكم فهو المجلد الأول من هذه السلسة.

ونرجو أن يحوز هذا الكتاب على إعجابكم وأن يكون وسيلةً للردّ على الشبهات التي تدور في القلوب والأذهان.

دار النيل

وحدانية اللَّه وتجليات أسمائه الحسنى

سؤال: كيف يقال إنه سبحانه في كل مكان مع أنه واحد أحد، أيمكنكم أن تبيّنوا لنا هذا؟

الجواب: نعم، الله تعالى واحد أحد، وهو أيضًا معكم أينما كنتم، لكن بعلمه وقدرته لا بذاته، ولا يلزم من هذا أنه تعالى يشغل حيزًا مكانيًّا كسائر الأجسام، فقولنا: إنه واحد أحد تعبير وإشارة إلى جلاله وعظَمته، ومعنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (سُورَةُ الْحَدِيدِ: ٤/٥٧) أنه موجود برحمانيته ورحيميته وبعلمه وقدرته في كل مكان. انظر مثلًا -ولله المثل الأعلى- إلى أشعّة الشمس تلامس رؤوسنا إلَّا أنها بعيدة عنا ولا نستطيع الوصول إليها، فالله تعالى بصفاته هذه هو بكلّ شيء محيط، وهو أقرب إلينا من حَبل الوريد إلَّا أنه لا يبلغه أحد ولا يحيط به شيء، فالله تعالى يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سُورَةُ ق: ١٦/٥٠).

إذًا فالله تعالى -وهو أقرب إليّ من حبل الوريد- حاكم ومسيطر في كل مكان بلا كمّ ولا كيف، فهو ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٢٤/٨)، إذًا هو أقرب إلي من قلبي؛ فإن قلتُ بهذا المعنى: "إن الله في قلبي" فهذا صحيح؛ لأنه يعلم عني أكثر مما أعلم عن نفسي، وهو الفاعل المؤثر في كلّ شيء. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ١٧/٨)، فالله تعالى هو الذي رمى في معركة بدر وفي غيرها من المعارك باسم الرسول ﷺ؛ فهو سبحانه موجود بقدرته في كل مكان كما دلّت عليه هذه الآية وغيرها ودلَّت أيضًا أن الله تعالى شهيد مسيطر في كل مكان بقدرته

وعلمه وبرحمانيته ورحيميته وبجماله وجلاله وبعلمه وإرادته وبسائر صفاته، وهو مع هذا واحد أحد، وهو ما أثبتته الحقائق الكونية؛ ولو كان هناك إلَهان –تعالى الله عن ذلك– لفسدت السماء والأرض، وبهذا نزل القرآن الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢٢/٢١)؛ أي لتصادمت النجوم وانفجرت، وتصادمت الذرّات ببعضها، ولأدّت أشعّة الشمس في الأرض إلى سلسلة من الفعاليات الإشعاعية لليُورَانْيُوم... ولَفنيَ كلّ شيء حيّ على وجه الأرض.

ويطلق علماء الكلام على هذا الاستدلال "بُرهان التمانع"، وهو يثبت أن الله واحد، ويستحيل وجود إلهين اثنين؛ فما من شيء تقوده يدان مختلفتان إلا فسد وإن بلغ في الصغر منتهاه كقيادة سفينة مثلًا، ولو أن لسيارة مِقودين وقادها سائقَان لاضطربت واصطدمت بغيرها نتيجة مثل هذه القيادة ولو كانت الطرق معبّدة ميسّرة، فالفساد هو مصير الكون لو أن إرادتين منفصلتين حرتين قامتا على إدارته وتنظيمه.

ونؤمن بأن قدَرًا خفيًّا يسري في هذا الكون الهائل المنظم غاية التنظيم بدءًا من العالم الكبير "عالم المجرات"، فالمتوسط "عالم الإنسان"، فالصغير "عالم الذرات"؛ ولا بد لهذا النظام والتناسق والتناغم بين هذه العوالم من خطة علمية، ثم قدرة وإرادة لإخراجه من مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ، ثم رقابة مستمرة وسيطرة، وهذا كله لا بد له من واحد أحد لا يشاركه في إرادته أحد، فالإنسان يرفض أن يتدخل أحد في شؤونه الخاصة وفي عمله وفقًا لما يسمونه "قانون الخصوصية"، فأنَّى لمخلوق أن يُشرِكَ نفسَه مع الخالق سبحانه في تنظيم الأمور المركّبة والمعقدة لهذا الكون الهائل؟!

وهذا معنى قولنا: لو أن إرادتين مختلفتين اشتركتا في خلق هذا الكون لفسد، ونحن نرى أن الكون منظّم غاية التنظيم بلا اضطراب ولا فساد، إذًا فصاحبُه ومالكُه وخالقه واحد أحد.

والآن لنتناول الموضوع بمنظار الضمير:

إن الحوادث الجارية من حولنا تُبَرهن لنا في أعماقنا وفي الواقع كذلك أن لا حول لنا ولا قوّة إلا بالله، فأنا العاجز الفقير أدرك عجزي وفقري فأرفع يديّ متضرّعًا مُدركًا عجزي وفقري وكأني على خشبة مكسورة في خضمّ محيط هائج وأدعو: "يا رب! يا رب!" وأنا أشعر في أعماق قلبي بأن هناك من يسمَعني، ولن يسمعني إلا إذا كان سميعًا بصيرًا بكلِّ مكان وربًّا للعالمين، فيسمع ضراعتي ويسمع معها ضراعة نملة وحاجتها إليه ﷻ وابتغاءَها من فضله، فهو أقرب إلى النملة من نفسها؛ وتتبيّن هذه الحقيقة بأنه سبحانه يجيب دعاء من يدعونه جميعًا معًا في العالم كله، يقول رسول الله ﷺ: "**إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ خَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَسْتَسْقُونَ فَرَأَى نَمْلَةً قَائِمَةً رَافِعَةً إِحْدَى قَوَائِمِهَا تَسْتَسْقِي، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ إِنَّ هَذِهِ النَّمْلَةَ اسْتَسْقَتْ فَاسْتُجِيبَ لَهَا**"[1].

كل ما في هذا العالم يتوجه إلى الله تعالى ويطلب منه حاجته ويدعوه ويتضرع إليه، وهو سبحانه يجيب دعاءَهم جميعًا، ويكشف لنا هذه الحقيقة فيقول: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ (سُورَةُ النَّمْلِ: ٦٢/٢٧)، ثم أليست ضمائرنا تشهد بهذا أيضًا؟

إذًا فالله تعالى سميع بصير بخلقه جميعًا في كل مكان، يسمع أصواتهم، ويرى أحوالهم، ويغيثهم ويتجلى عليهم جميعًا برحمانيته ورحيميته؛ فهو عظيم جليل عزيز غنيٌّ عمَّا سواه، وهو قادر على فعل

(١) مصنف عبد الرزاق: ٩٥/٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٢/٦.

كلِّ شيء وَحْده، يستوي عنده خلْقُ الجنة وخلق الرّبيع، وأساس هذا كلّه عظمته وجلاله ووحدانيته، وهو سميع بصير بخلقه أينما كانوا، وهو ليس بجسم يَشْغَل حيّزًا في الفراغ أو في المكان، فهو قائم على أمر خلقه في كلّ مكان بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى إلا أنه مبرَّأ منزَّه عن الكمّ والكَيْف، وهذا تجلٍّ من تجليات أَحَديته وجماله ورحمانيّته ورحيميّته.

وإليكم هذا المثال: لو سُحِبَ ماء عيني ولم يعط لها الماء لَأُصِبْت بمرض جفاف العين، إذًا فهو يرى عيني كل حين؛ فيرطّبها ليحفظها من المرض، فلا بد من وجود من يهبني العين لتكون وسيلةً لأرى بها الأشياء وهو يرى عيني ويعلم ما تراه عيني لتتم كل هذه الأمور.

مثال آخر: يجب أن يكون هناك من يقوم بترطيب اللّقمة عند تناول الطعام لتُهضم، ويرسل الشفرات إلى معدتي ويحرك فكّي، ويرسل الغذاء إلى الخلايا المحتاجة بعدالة لتستمر حياتي، لذا نقول: ''إن أسماء ربنا تتجلى علينا برحمانيته ورحيميته''، ولو لم يكن ربّنا سميعًا بصيرًا بنا أينما كنَّا لجفّت اللقمة في فمي ولنزلت إلى المعدة وكأنها حجر صلد، ولَما توزّع الغذاء إلى الخلايا بعدالة، إذًا إنه سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا، فهو بتجليات أسمائه الحسنى أقرب إلينا من حبل الوريد، ولكننا -بخصائصنا البشرية- بعيدون عنه بعدًا كبيرًا، فكيف نستطيع التوفيق بين هذين الأمرين؟

وهاكم المثال التالي: ما أقربَ الشمس منَّا وما أبعدنا عنها، وهي شمس واحدة، لكنها تلاطف رؤوسنا كل يوم بإشعاعاتها المختلفة الأطوال، وتنضج لنا الثمار على الأشجار، ثم إن حرارة الشمس وضياءها وألوانها بمنزلة صفات مختلفة لها، فلو كانت لحرارتها قدرة، ولضيائها علم، ولألوانها السَّبعة صفات كالسمع والبصر لَكانت الشمس أقرب إلينا من أنفسنا ولَأمضَت ما تريد فينا. نعم، الشمس جسم كثيف مادّي،

لكنّها تحتوي على الهيدْرُوجِين الذي يتحوّل دائمًا إلى الهيلْيُوم، وتنجم عن تحول ملايين الأطنان من الهيدروجين إلى الهيليوم طاقة كبيرة على شكل إشعاع وضوء يصل إلينا وإلى أماكن أخرى، والشمس أولًا وأخيرًا جسم ماديّ، أمَّا الله ﷻ فهو منزَّه عن المادة ومبرَّأ عنها، فالله تعالى ليس ضوءًا ولا إشعاعًا ولا ذَرّةً، بل هو خالق لهذه الموجودات، فليس كمثله شيء.

إن الله تعالى هو مُنوِّر النور، ومُصوّر النور، وخالق النور، فهذا النور منه سبحانه، فهو خالقه، وكل أنواع الأنوار والأضواء والحرارة والألوان بيده يصرّفها كيف يشاء، فإذا كانت هذه هي حال الشمس -وهي مِن خلقِه سبحانه- فلا شكّ أن الله تعالى الواحد منذ الأزل يكون شهيدًا بصيرًا بكلِّ شيء في كل مكان.

ثم إن الملائكة الكرام تكون في اللحظة نفسها في أماكن عدة، وكذا الجنّ، وكذلك يستطيع الشَّيطان الوسوسة لكثير من الناس في اللحظة نفسها رغم أنه شيطان واحد؛ فهو يستطيع نفث وَساوسه إلى كثيرين في اللحظة نفسها، أي يستطيع التأثير عليهم معًا.

فإذا كان لبعض مخلوقات الله تعالى -العاجزة- مثل هذه القابليات فلِمَ يُستبعد وجود الله بتجليات أسمائه في كل مكان وهو الحي القيوم الذي أوجد هذه المخلوقات؟

وجوب وجود اللَّه تعالى

سؤال: يُقال إن الله خلق كل شيء.. فمَن -حاشا لله- خلق الله؟

الجواب: كثيرًا ما يُطرح هذا السؤال، وأنا أَعد هذا السؤال علامةً ودليلًا من أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ. وأمام تحقق ما أخبر به من أخبار الغيب أنكس رأسي وأقول: ''أشهد أن محمدًا رسول الله''.

أجل، إنه رسول من الله كريم، إذ أخبر عن كل شيء سيحدث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تلفزيون ينقل ما يشاهده. وقد نطق بالحق في كل ما أخبر عنه. فالأحكام التي ذكرها والحوادث التي أخبر عنها وقال إنها ستقع في المستقبل حدثت فعلًا وكما أخبر عنها تمامًا. وهذا هو ضِمْنَ ما أخبر به. يقول ﷺ: ''**لَنْ يَبْرح النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟**''[٢]

وعندما وجّه لي هذا السؤال قلت في نفسي ''أشهد أن محمدًا رسول الله!'' ما أصدق ما رأيتَ وما أصدق ما قلتَ! فما كان بالإمكان التعبير بشكل أفضل من هذا التعبير لِسفالة طراز تفكير هؤلاء وضحالة إدراك الذين تمردت أنفسهم وأنانيتهم وتفرعنت، فأسبغوا صفة الألوهية على الأسباب وحاولوا إيضاح كل شيء بها وضمن إطارها.

فإذا رجعنا إلى المسألة الأصلية قلنا إن هذا السؤال من الأسئلة التي يطرحها المنكرون، وكثيرًا ما تنسحق العقول الغضة تحت وَطْأَة مثل هذه الأسئلة، إذ لا تستطيع فهم معنى اللَّامُتَنَاهِي، ولا تستطيع ما في مسألة استمرار تسلسل الأسباب من خداع.

(٢) البخاري: الاعتصام، ٣؛ مسلم: الإيمان، ٢١٢.

لذا نراهم يترددون ويشُكّون، إذ يظنون أن الله أيضًا سبب مثل الأسباب الأخرى، لذا فهناك أيضًا سبب آخر له، أي هو أيضًا مُسبَّب، أي نتيجة. وهذا وهمٌ... وهمٌ يستند إلى عدم معرفة الخالق، لأن الله تعالى هو مسبِّب الأسباب ولا بداية لوجوده.

وقد قام علماء الكلام استنادًا إلى قواعد معينة بإثبات أن الأسباب لا يمكن أن تتسلسل هكذا إلى ما لَا نِهَايَة، وسعوْا لإثبات وجود مسبِّب الأسباب الذي هو الله تعالى. ومن المفيد تلخيص أفكارهم في هذا الصدد بمثال أو مثالين. يقول علماء الكلام: ''إن القول بأن سلسلة الأسباب تستمر دون توقف تعبير عن الجهل بماهية الأسباب وغفلة عن الخالق''. أجل، فليس ثمة احتمال لظهور الأسباب عن طريق سلسلة الأسباب المستمرة منذ الأزل، والاعتقاد باحتمال هذا الأمر انخداع. فمثلًا إن قلنا بأن اخضرار وجه الأرض بالنباتات مرتبط بوجود الهواء والماء والشمس، وأن وجود الهواء والماء والشمس مرتبط بوجود بعض الأجزاء المادية مثل الأوكسجين والهيدروجين والكاربون والنتروجين...إلخ، ووجود هذه الأجزاء المادية مرتبط بوجود جزيئات أصغر، وهذه الجزيئات الصغيرة مرتبطة بجزيئات أصغر منها...

إن الظن بأن من المحتمل أن يستمر هذا التسلسل إلى اللانِهَاية، وأن من المحتمل إيضاح ظهور الأشياء عن هذا الطريق مغالَطةٌ وانخداع، ولا سيما إذا علمنا أن هناك أضداد المادة وأن الميتافيزيقا تغلب الفيزياء، وإذا علمنا أن الأسباب بأجمعها بدءًا من السبب الأول وانتهاء بآخره تعمل ضمن اتساق وتلاؤم وبصيغ قوانين وكأنها موظف مستخدم يقوم بأداء وظيفته.

أجل، إن القول ''إن هذا نتج عن هذا، وهذا عن ذاك، وذاك عن ذلك... إلخ''، مثل هذا القول لا يَحل أي مشكلة ولا أي مسألة، بل على العكس

يجعل المسألة مستحيلة الحل، لأن الظن بأن من الممكن أن يُعد هذا حلًّا يشبه الظن باحتمال استمرار سفسطة ''البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة'' إلى الأبد. وهذا الادعاء والظن سيبقى معلقًا ودون سند حتى نسند البيضة أو الدجاجة إلى الموجود الأزلي ذي القدرة المطلقة. ولكن ما إن تسندهم إلى الخالق الأزلي -الموجود بذاته- حتى تنحل المعضلة، لأنه سواء أُخلقت البيضة -التي هي خلية واحدة- أولًا، أم خُلقت الدجاجة أولًا وجُعلت لها قابلية إنتاج البيضة لإدامة نسلها.. سواء أكان هذا أم ذاك فالأمر سِيّان.

إذًا فتنحية هذا وتركه جانبًا وتكرار ''هذا من ذاك، وذاك من تلك... ''لا يؤدي بنا إلى أي نتيجة ولا نصل إلى أي وضوح، لأن كل جواب من هذا النمط يجلب معه استفهامات أكثر. مثلًا المطر مرتبط بالغيوم، والغيوم مرتبطة بالجزيئات الموجبة والسالبة، وهذه الجزيئات متعلقة بالتبخر، والتبخر مرتبط بوجود الماء وأخيرًا بالعناصر المكونة للماء.. وهكذا فبعد بضعة خطوات فقط ينتهي التسلسل ويقف. وحتى عندما يقف التسلسل في نقطة معينة يجد الإنسان نفسه في خضم فرضيات عديدة يحاول بها إشباع عقله ''قد يكون كذا... أو كذا... أو كذا...''

وليس هذا إلَّا محاولة لتفسير العالم الذي نشاهد فيه النظام الدقيق والتلاؤم والتناغم المدهش بين أجزائه ونحدس ظهوره من يد الحكمة الباهرة.. إنها محاولة لتفسير هذا العالم وكل الأشياء بهذيان الأطفال. كما أنها تضليل لأفق العلم وهدفه وإبقاؤهما في ظلام دامس. علمًا بأنه لا بد لكل نتيجة من سبب، ومجرد تزايد الأسباب غير المنطقية وغير المعقولة وتسلسلها لا يجعلها معقولةً ولا يضفي عليها صفة التلاؤم مع المنطق، فمثل هذا الظن هذيان وهو توهم المستحيل ممكنًا.

والآن لنشرح هذا بمثال: لنفرض أنني جالس على كرسي من دون قائمتَيه الخلفيتَين. ولكي لا يسقط الكرسي فقد أُسندَ إلى كرسي مثله، وهذا الكرسي إلى كرسي آخر مثله... وهكذا إلى ما لا نهاية، أي بعدد لا يستطيع العقل تخيله ولا يسعه الزمان ولا المكان. ومع ذلك فإن هذه الكراسي إن لم تُسنَد إلى كرسي ثابت وذي قوائم أربعة فإنه لا فائدة من هذا التسلسل.

ومثال آخر: لنفرض وجود صفر أمامنا، فهذا الصفر إن لم يُضَف إلى رقم على يساره يبقى صفرًا ودون قيمة وإن رصصت كومة من الأصفار على جنبه، حتى وإن وضع (تريليون x تريليون) صفرًا. ولكن ما إن تضع على يساره رقمًا حتى يكتسب الصفر قيمةً حسب هذا الرقم. وهذا يعني أن أي شيء إن لم يكن له وجود مستقل وإن لم يكن قائمًا بذاته فإن أمثاله من الأشياء العاجزة لا تستطيع منحه الوجود ولا منحه أي سند أو عون، ذلك لأن اجتماع العاجزين بنفس العجز لا يزيدهم إلا عجزًا.

وحتى لو فرضنا المستحيل وقبلنا بتأثير الأسباب فإن القانون الفيزيائي القاضي بـ"تناسب العلة" يوجب وجود تناسب معقول بين السبب والنتيجة، لذا يجب مثلًا التفتيش عن أسباب معقولة وذات قوة وقدرة كافية تكون وراء ظواهر عديدة بدءًا من تحول الكرة الأرضية إلى بيئة ووسط صالح لظهور الحياة واستمرارها وانتهاءً بِوجود هذا الإنسان المفكر العاقل.

هذا علمًا بأن الوضع الحالي للكرة الأرضية أي سرعتها ومقدار بعدها عن الشمس وطبقتها الجوية ودوراتها الطبيعية والمقدار المحسوب لميل محورها ومقدار ونوع الغازات التي تشكل جوها، وطبقتها الترابية والنباتات التي تكسو هذه الطبقة، وبحارها والقوانين الخفية الجارية فيها،

والريـاح والوظائـف والمهام المختلفـة التي تؤديها...إلـخ، من آلاف بل مئـات الآلاف مـن الحوادث الجارية بكل نظام واتسـاق وتناغم لا يمكن عزوهـا وإرجاعهـا إلى الأسـباب العميـاء والصمـاء أو إلـى المصادفات العشوائية، فمثل هذا الأمر يجعل العقل وكأنه يناقض نفسه بنفسه.

والحقيقة أن علماء علم الكلام عندما حكموا عن طريق مفهوم ''الدوْر والتسلسـل'' بنفي تأثير الأسـباب وبإسنادها إلى مسـبِّب الأسباب أي إلى الله تعالى، ذكروا أن كل شيء ''ممكن الوجود'' وأن كل الأسباب والعلل تسـتند إلى ''واجب الوجـود''، ففتحوا بذلك منافذ إلـى التوحيد، غير أن من الممكن الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق أسلم. أجل، ففي كل أثر من آثار الخالق ﷻ نرى ختمه وسـكّته وآيته. لذا فليس هناك دليل واحد بـل آلاف الأدلـة على وجـوده. فمنذ أن بـدأت العلوم بمحاولة الكشـف عن أسـرار الكون، كان كل علم يشـير بلسـانه الخاص إلى وجوده ويعلن عنه بأجلى صيغة. وهناك كتب قيمة جدًّا كُتبتْ في هذا الموضوع.

أجل، لقد أُوجِد كل شيء بعد أن كان معدومًا، والله هو موجِدُ وخالقُ كل شـيء، والله لكونه هو الخالق لم يُخلَق، إذ كل مخلوق شـأنه أن يكون عاجزًا ومحتاجًا بينما وجود الله ذاتيٌّ لا حاجة له إلى أي أحد، فهو الغني المطلـق الغِنى. كل شـيء يسـتند إليـه ويعتمد عليه. وكل لغـز يبدو وكأنه غيـر قابـل للحل يظهر ويتضح بـه، فهو الخالق وهو الموجِـد وهو القائم على استمرار الوجود، هو الأول وهو الآخر. فكيف يفتَّش عن مسبِّب له؟!

ولنوضـح هـذا بمثـال أو مثاليـن: مثـلًا إن رجليّ تحملان جسـدي والأرض تحمـل رجليّ. والآن وبعـد أن توصلـت إلـى معرفـة مثل هذا الحامـل المعقـول لا أحتـاج إلـى البحـث عـن أسـباب جديـدة خارجه. ومثـلًا لنأخذ العربـة الأخيرة من عربات قطار.. هـذه العربة تجرّها العربة

التـي أمامهـا، وهذه تجرها التي أمامها... وهكـذا حتى نصل إلى القاطرة، أي المحرك الذي يجر القطار. وعندما نصل إلى المحرك نقول: ''إن هذا المحرك يحرك نفسه بنفسه''. هذه أمثلة مما خلق الله، يمكن للمخدوعين العثور على سـبب وراءها، لكنهم مهما انتقلوا من سـبب إلى آخر، فإنهم سـيصلون حتمًا إلى سـبب لا يسـتطيعون التقدم بعده إلى سبب آخر. عند ذلك سنواجههم ونسألهم ''ها هي نهاية الأسباب! فماذا بعد؟''

هناك مسألة أخرى تعكر صفو بعض العقول وهي أن التفكير المحدود لبني الإنسـان لا يسـتطيع فهم مفهوم الأزل وإدراكه، لذا نراه يضفي صفة الأزلية على المادة، ثم يرى احتمال وقوع أشـياء غير معقولة في الماضي السحيق الذي لا تستطيع الأرقام إيضاحه.

قبـل كل شـيء إن الأزل ليـس بدايـة الزمـان الماضـي، إنـه لا زمان. فلـو بلغـت الأزمان (كاتريليون x كاتريليون) سـنة لما بلـغ عشـر معشـار الأزل. بينما يعرف الجميع تقريبًا الآن بأن المادة التي هي أساس تسلسل الأسـباب لهـا بدايـة معيّنة. فحـركات الإلكترونات، وأسـرار فيزيـاء نواة الـذرة، والعمليـات الغامضة التي تجري في الشـمس وتـؤدي إلى إطلاق الإشـعاعات، والقانـون الثانـي للديناميـكا الحراريـة (الثرموديناميـك)، وهو القانون الشامل للكون يشير إلى أن لكل شيء نهاية. كل هذه الأمور أدلة بضخامة النجوم وبوضوح وبريق الشموس، وكل شيء له نهاية لا بد أن تكون له بداية، وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى أي نقاش.

لذا فإن أي شـيء أسـبغت عليه نعمة الوجود يشـير إلى الخالق ويدل عليه، كذلك فإن انطفاء وجود الأشـياء وفناءه يدل على أن الخالق لا أوّل لـه ولا آخـر. لأنه من الطبيعي أن ما كانت لـه بداية كانت له نهاية، كذلك مـن الضـروري أن مـا لـم تكن لـه بداية لـم تكن لـه نهاية. لـذا فإننا نرى

أن المـادة -وكل شـيء نبـع منها- إن كان موجـودًا اليوم فهو غير موجود غـدًا. ولكـن سـير الكون البطـيء نحـو الفناء، والفنـاء التدريجـي للمادة قد يخدع الكثيرين. ولكن مصير هذه العوالم -التي نمت وتوسعت ضمن عهـود طويلـة- هـو إلى الفنـاء. أجل، إن المـادة مـع أنها موجـودة اليوم، فإنهـا -على ضوء بعض الأبحاث- متوجهة دون شـك نحو التغير. والآن لنوضح هذا بمثال قطار أيضًا:

لنفـرض أن قطـارًا توجـه من مدينـة "إِزْمِير" نحـو "طُرْغُتْلُـو" التي تبعـد عنهـا ٥٥ كـم. ولنفرض أن سـرعة القطار كانت ٥٥ كم/سـاعة عند بدايـة الرحلـة، أي إن الرحلة ستسـتغرق سـاعة واحدة. سـار القطار بهذه السرعة نصف ساعة ثم هبطت سرعته إلى النصف بعد أن بقي من المسافة ٢٧,٥ كم، أي إنه سيقطـع نصف هذه المسافة في نصف ساعة، ولنفرض أن القطار كلما سـار نصف سـاعة أنقص سـرعته إلى النصف... وهكذا، مثـل هـذا القطار يبدو أنـه لن يصل إلى مدينـة "طُرْغُتْلُو" أبـدًا. ومـع أن القطار سيصل حتمًا إلى هذه المدينة إلَّا أن راكب القطار قد يتصور أنه لن يصل إلى المدينة أبدًا بهذه السرعة المتناقصة.

وشـبيه بهذا فإن المادة سـائرة نحو التحلل والتجزؤ. وسـيتحقق هذا وإن كان بعد عدة ملايين من السـنين، أي كل شـيء فانٍ سـوى الموجودِ سبحانه وتعالى الذي لا يستند وجوده إلى شيء آخر غيره.

والخلاصـة أن الله موجـود وهو خالق كل شـيء. وتوهـم أنه مخلوق تفكير سـاذج يسـند إلى الخالق صفة المخلوق ولا يميز الفرق بين الخالق وبيـن المخلـوق. والملحـدون والمنكـرون الذيـن أبـرزوا هـذا التصـور والوهم -الذي يجفل منه الإنسان ويرتجف- أرادوا الظهور بمظهر العقل وهـم لا يدرون أنهم سـقطوا في تناقض صارخ مـع العقل ومـع المنطق.

فمن يستطيع اليوم ادعاء أزلية المادة أو إنكار الألوهية؟! فمثل هذا الادعاء لم يعد غريبًا فحسب بل علامة على الجهل والتعصب.

ولكن مع أن بعض الماديين الذين لم يستطيعوا النفوذ إلى معنى الأشياء والحوادث لا يدركون الفناء والتحلل المقبلين على المادة ولا الفناء الذي تنتظره الذرة سيبقون -حتى يوم إدراكهم هذه الحقائق- وراء بياناتهم وادعاءاتهم هذه ليخدعوا بعض السذج البسطاء.

والله الذي أحاط بكل شيء علمًا هو أعلم بحقيقة الأمر.

الحكمة من خلق اللّه للكون

سؤال: لماذا خلق الله الكون؟ ولِم لَم يخلقه من قبل؟

الجواب: السؤال له شِقَّان: أوَّلهما لماذا خُلق الكون؟ وثانيهما لِمَ لم يُخلق من قبل؟

أوَّلًا: أُشير هنا إلى أننا نحن البشر نقيس كل شيء بمقاييسنا المحدودة، وعلى ذلك تتشكل أفكارنا ونبني تصوّراتنا وَفْقها، فالباعث عندنا ضرورة في كل أمر، ولا نعزم غالبًا على فعل أمرٍ ما إلا إذا اقتضته الضرورة، ومثل هذا الدافع النفسي يسوقنا إلى أن نقيس فعل الله على أفعالنا، لكن يجب أن نعتقد ونحن نطرح سؤالًا كهذا أن الله تعالى منزَّه عن أي نقص أو خلل.

يمكن تناول السؤال المذكور جدلًا فنقول: من الذي يزعجه خلق الكون؟ إنّ موارده متاحة بين أيدينا، فهل لكم أن تدلوني على إنسان لم ينشد السعادة في تلك الموارد مستغلًّا كل ما فيها... ينثر بذورًا ويلقحها ثم يجني ثمارها؟! من الناس مَن يتعجل في قراراته إذا ما ألمَّ به أمر، ويتذمّر لأنّه خُلِق، وقد يهم بالانتحار، بيد أن هؤلاء قلة لا أثر لهم، أما سواد الناس فإنّهم لا يتحسّرون، بل إنّ قلوبهم لتفيض حمدًا وشكرًا على نعمة الحياة والوجود والإنسانيَّة، مم يشكو الإنسان؟ من حمله في الأحضان طفلًا، أم من سعادته الغامرة فتوّةً وشبابًا، أم من اشتغاله بالبنين والحفدة كهلًا؟! ... وأخصّ هنا من يؤمنون بالآخرة فإنهم لو قدَروا أن يتعاهدوا بذور السعادة السرمديّة التي تضمن السعادة المطلقة لغمرهم سرورًا عثورُهم على مفاتيح سريّة لمنافذ السعادة.

أجـل، إن ضمائرنـا لَتستشـعر تلـك النعـم كلّهـا وإن قلوبنـا لَتفيـض شـكرًا وحمـدًا لله الـذي أبدع الكـون وأنعم علينـا بالوجود. وبوسـعنا أن نوضّـح المسـألة بما نشـاهده فنقول: إن هذا الكون يتبدى لنا وكأنه مشـهر أو عـرض رسـمي لمناظر لا تنتهي زُيّنـت بآثار فنّية ملوّنـة كبيرة وصغيرة حيّة وجامدة، وأُعدّت بصورة جذابة تدفعنا جميعًا إلى مشـاهدتها والتأمّل فيها؛ هذه المناظر الخلابة وما فيها من عظمة وزينة رائعة تدلنا على صنعة فـي أحداث تجري جريان السـيل وعلى يد لطيفـة قادرة مهيمنة على تلك الصنعة، فمن عدسة هذه الأفعال نشاهد الأسماء الإلهية.. ونتابـع ما يصدر عنهـا مـن ومضـات وبارقات ولمعات وإشـارات كما يتتبـع العاشـق حِبَّه بلهفـة الوصال، وعندئذ نجد أنفسـنا بين يدي دائـرة الصفات الإلهية التي لا نعـرف ماهيتهـا تمامًا، فتصيبنا الحيـرة والتعب ويعترينا شـوق عظيم.. ونتابـع "شؤوناته الذاتية" من نوافذ تُفتح إلى القلب فيعترينا الذهول...

ولا يـزال هـذا البحث جاريًـا صعودًا وعروجًا في فضـاء رحبٍ جدًّا، مبـدؤه الحـوادث والأشـياء ومنتهاه العلاقـة بين الكون والإنسـان، ومنها إلى العلاقة بين الإنسان ودائرة أسماء الله وصفاته.

والآن ونحـن نتحدّث عـن حكمة الخالق ﷻ من خلق الكون لنتتبّعْ قليـلًا هـذا الاكتشـاف والإدراك بقـدر فهـم العـوامّ: مثـلًا -ولله المثـل الأعلـى- لنتأمـل فنّانًا عنده عدّة مهارات منها حسـن الخـط، إنَّه بمهارته هـذه يتجاوز حـدود الموضوعية ويتمـرد على الذاتية، ويعلن عن نفسـه بقدرته على الإنشاء.

ولنفتـرض أن هـذا الفنان نحّات خارق للعـادة أيضًا، فبضـع ضربات مـن مطرقتـه تنفـخ الروح فـي أعتى الحجـارة وأقسـاها، ومهارتـه تتبدّى بما يرسـمه نحتًا في بسـمات الشـفاه وغمزات الوجنات، دعوا هذا الفنان

الذي عجب الناس لحسن خطه.. دعوه يستمتع بما كُتِب عنه من مدح وثناء لمهارته في النحت ولنبحث نحن عن مهارة ثالثة له:

لنفترض أن فناننا العبقري نجّار ماهر أيضًا... نجار طَفرة يضفي على الجوز روح الفنّ، ويهب شجر الزان الخلود، ويبعث شجر الأبنوس بروح الفن، دعوا ذلك النجار تصفق له أيادٍ خبيرة بالفن والفنانين، ولننظر إلى مهارة أخرى من مهاراته:

مثلًا لنفترض أنه هو هو رسّام مبدع يظهر أجمل النقوش وأروع التشكيلات حيثما مرَّت فرشته ويرسم بحركة أو حركتين من يده ما يذهل العقل... وبوسعنا أن نضيف فنونًا أخرى كثيرة ليضيء كل فنّ جديد نضيفه جانبًا آخر لدى فناننا العبقريّ وييسّر لنا التعرّف عليه من خلال ذلك الجانب.

وكما يتعذر علينا الآن معرفة فنّانٍ كهذا دون أن يُظهر لنا مهاراته لا يمكننا أيضًا القول بأنّنا نعرفه معرفةً كاملة دون أن يُظهر لنا بعض فنونه؛ ومن هنا فكلّ ذي ملكة يريد أن يُظهر ما لديه من مهارات خفية ويريد أن يُلبِس ما له وجود علمي وجودًا خاريجيًّا. فالبذرة تنتعش فيها العقدة الحياتية، والماء الدّافق تتنازع الحيوانات المنويّة فيه الحياة رَغَبًا ولهَفًا، وحبيبات الرطوبة تتجشم آلاف الصعاب لتغدو أمطارًا... فهل ثَمّة ما يحدوها إلى هذا كلّه سوى حبّ الإراءة والظهور؟

هذا كله تعبير عما فينا وفي كل الكائنات من نقص وضعف ورغبة لا تُقاوَم، لأننا مجرد ظلال لأصل، أما الصانع الأصلي والمُبْدِع الحقيقي فمنزَّه مطلقًا عن عوارض النقص، ولا بد ألا ننسى أن تجلي الظلّ ليست كتجلي الأصل.

أجل، إن ما يملأ الكون أجمع من تموجات في شتى أنواعها وألوانها ليدلّنا على ألف اسم واسم من أسماء الله تعالى، وكلّ اسم منها يكشف لنا -كما النور الساطع على أثر فنّيّ- عن صفات ذاتٍ عليم حكيم، ويوقظ قلوبنا برسائل عن ذلك الذات الذي لا تدركه الأبصار.

ويريد هذا المبدع العظيم أن يعرّفنا بنفسه معرفةً وافية، فيجلِّي لنا آلاف الأسماء والصفات، فمثلًا يدلّنا على جماله من خلال أنواع الجمال كلّها، وعلى إرادته وقوته من خلال ما في الكون من نظام وانتظام بديع، وعلى رحمته وشفقته بما يهبه لنا حتى أخفى ما ترغب فيه قلوبُنا.

وبتعبير آخر يريد هذا المبدع العظيم أن يُظهر جلوة قدرته وإرادته فيعرض الحقائق العلمية في علمه الواسع بإلباسها وجودًا خارجيًّا؛ ويريد أن يوقظ مشاعر الحيرة والإعجاب والتقدير فيعرض أروع آثار صنعته على أولي الألباب ليشاهدوها بمنشور إدراكهم.

كما أن فنّانًا ماهرًا في آلاف الفنون يُظهر مهاراته بإظهار آثاره، فكذلك صاحب هذا الكون أنشأ قصر الكون الرائع هذا ليُظهر لنا بديع صنعته.

ثانيًا: ''لِم لَم يخلق الله الكونَ من قبل؟''

نقول بدايةً: ما معنى ''من قبل''؟ إن كنت تعني ''لماذا خُلق قبل كذا وكذا من الزمان ولم يُخلق قبل أكثر من ذلك؟'' فسترِد عليك سلسلة أسئلةٍ لا تنتهي حول مسلسل ''القبلية'' المقيدة بزمن، فيقال مثلًا: إن كان خلَقه قبل تريليون سنة فلِمَ لَمْ يخلقه قبل مائة تريليون سنة؟ ولا أعرف سببًا منطقيًّا لسؤال أو اعتراض من هذا الضرب.

فـإن كنـا نعني قِدَم العالَـم بقولنا "**لِم لَم يخلـق الله الكون من قبل؟**" أي لا يحـدُّه زمـان، فجوابـه أن القِـدم من صفات الله الخاصّة به سـبحانه فهـو مـن لـوازم ذاته، وهـو صفةٌ ذاتيّـة، أي إن هـذه الصفة له لا لسـواه، فكل ما سواه حادث.

نعـم، علم الله سـبحانه بوجـود الكائنات قديـم، فالكائنـات موجودة في علمه منذ أن كانت عَدَمًا، سواء أعبّرنا عن هذه "الموجودات العلمية" بمصطلح أهل التصوف "الأعيان الثابتة، وظلال الأنوار" أم بعبارة أخرى، فمـن الخطأ إسـناد القـدم لهـذه الكائنات، وبحث مسـألة كهـذه لا يعدو أن يكون من سوء الأدب مـع الله.

لنـا أن نبحـث في الموجـودات التي لها "وجود خارجي" بمقاييسـنا المحـدودة، لكن الحديـث عن الحقائق التي هي غيب بالنسـبة لنا صفاقة علـى الأقـلّ. ففـي الحديـث الشـريف: "**مَـا السَّـمَاوَاتُ السَـبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ بِأَرْضٍ فَـلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَـةِ**"[٣] أنـى للإنسـان إذًا أن يعـرف صاحب هذا العـرش العظيم حق معرفته فيعبّر عن أسرار ربوبيته!..

أجل، هناك أشـياء كثيرة غدت مرآة لشـؤونه الخاصة وذاته سـبحانه، علمًـا أنـه يَعلـم ذاتَه قبل خلـق الكائنات كمـا يَعلم شـؤونه دون أن يفتقر إلى شيء، أجل، إنه يعلم شؤونه الذاتية في أسمائه، ويعلم ذاته حقّ العلم بتجلي أسمائه في عالم الأسماء والأثير والجسيمات، وفي الذرات وكبرى المركبات، ثم يجليها لأولي الألباب.

فـي كل لحظـة هو عالم بهذه العوالم كلها علمًا مختلفًا في نظرنا عمّا كان قبله، أمَّا في الحقيقة فلا تغيُّر ولا تبدّل في ذاته ولا في صفاته سبحانه، وأحسن العلامة إبراهيم حقي إذ يقول:

(٣) ابن أبي شيبة: العرش وما روي فيه، رقم الحديث: ٥٨؛ صحيح ابن حبان: ٢/٧٧؛ تفسير الطبري، ٣/ ٧٧.

''تعالى ربنا عن أن يأكل أو يشرب أو يدور به الزمان،
تنزَّه سبحانه عن التبدل والتغير والأشكال والألوان،
وتلك هي الصفات السلبية له فهو عظيم الشان''.

إننا لنرى ما خلق وأظهر اليوم من آثار صنعته، بيد أنَّنا لا يمكن أن نعلم ماذا كنّا قبلُ وإلامَ سنصير غدًا.

ولا طاقة لنا بالوقوف على ماهية الوجود العلمي والأعيان الثابتة وعالم الأرواح، ولا نعرف أيضًا أي نقطة مظلمة في الوجود صاغتها السُدم الحلزونيّة شعرًا ولحّنته أنغامًا وكشف عنها الحجاب. أجل، فكما لا يتسنى لنا معرفة هذا كلِّه فإننا نقف أيضًا أمام السرّ العظيم للحياة الآخرة ونقول: ''ما عرفناك وشؤونك حقَّ المعرفة يا معروف''.

فإن كنتُ أسهبت قليلًا في هذه المسألة فما ذاك إلا لأنّ مثل هذا النوع من المسائل يستدعي مزيدًا من الحيطة والحذر، فإن أخطأت في شيء فأسأله سبحانه العفو والغفران، والله أعلم بالصواب.

حكمة خلق اللّه للناس على صُوَر شتى

سؤال: **لِمَ لَمْ يخلق الله تعالى الناس سواسية، وكان فيهم الأعمى والأعرج؟**

الجواب: **١-** مالكُ الملك سبحانه يتصرف في ملكه ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل أو يَخلق، فهو الذي خلق ذرات جسمك وسوّاك وكرّمك بهويتك الإنسانية؛ وهب لك هذا كلّه، ولا شيء سبَقَ منكَ إليه ليكون لك حقّ عليه.

فلو أنك أعطيتَه شيئًا مقابل ما وُهب لك لربما كان لك أن تسأل وتقول: "لماذا خلقني بعين ورجل لا باثنتين؟" ولكن شيئًا من ذلك لم يكن لتسند الجور إليه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فالجور إنما يكون إذا مُنِع صاحب الحقّ حقَّه، فهل لك عليه من حق لتزعم أنه جار عليك؟

بل إنك لم تكن شيئًا فخلقك فسوّاك بشرًا سويًّا ووهبك نعمة الوجود... والمخلوقات كلها دونك، فلو تأملتها لعلمتَ أنك حظيتَ بنِعَم لا تحصى.

٢- ربما يبتليك برِجْلك، لِيُبدِلك بما هو أبقى لآخرتك، يبتليك برجلك ليشعرك بعجزك وفقرك وضعفك، ويوقظ مشاعرك ويوجّه قلبك إليه سبحانه، وهذا يعني أنه يأخذ منك القليل ويهب لك الكثير، فلا جرم أن هذا من اللطف الخفيّ بك، ومَثَلُك كمثل المجاهد يُقتل فيكافَأ بالجنة،

سـقط شـهيدًا ليرقـى في المحكمـة الإلهية الكبـرى إلى مقـام يغبطه عليه الصدّيقـون والصالحـون، ويقول مـن يراه: ''يا ليتني أوتيـتُ مثل ما أوتي مـن الشـهادة''؛ فبنـاءً عليه إن هذا الشـخص لو مُـزِّق إرَبًا إرَبًا لما خَسِـرَ، بل ويُعطَى له أضعاف ما أُخذ منه.

نجـد كثيـرًا مـن المعاقيـن حملتهـم إعاقاتهم علـى مزيد مـن التوجه إلـى الله ﷻ، بينمـا أودى اليأس والامتعاض والتشـاؤم والشـعور بالنقص بفئة قليلة إلى الانحراف عن جادّة الصواب، فلا يشغلَن أحدنا نفسه بتلك القلة ولا بما مُنيَت به. والأصل إثارة الشوق في روح الإنسان نحو السعادة الأبديـة. فـإذا حمَلَت تلـك العاهات ذويها على التوجّـه إلى الحق تعالى، واعتبَـر بهم الآخرون فرقَوْا صُعُـدًا، فهذا هو مقتضى حكمة الله في الأمر، إنه عليم حكيم، فلا عبث، بل كل شيء عنده بمقدارٍ وعلم وحكمة.

تصرف اللَّه في خلقه

سؤال: يقول الله تعالى في آية: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢١٣/٢)، **ألا يكون الله تعالى بهذا منحازًا -حاشا لله- إلى قِسم من عباده؟**

الجواب: نقول أولًا: إن الله تعالى إن انحاز إلى قِسم من عباده فليس من حق أحد أن يقول له "لماذا فعلت هذا؟" لأن الله تعالى هو مالك الملك وهو المتصرف فينا وفي كل شيء، ولا يملك أحد الحق في أي ادعاء أو أي اعتراض عليه ﷻ. فهو مالك كل شيء والمتصرف في كل شيء حسبما يشاء. لذا فعندما يوجَّه سؤال متعلق به سبحانه، فيجب أن يكون السؤال في غاية الأدب وفي غاية الاحترام. فالكل في قبضة تصرفه وهو مالك ومليك كل الملك. وليس من حق أحد توجيه أي سؤال بهذا الأسلوب، لأنه يكون منافيًا للأدب الواجب تجاهه تعالى.

ولكن يمكن أن يُقال: "إن كان الله تعالى يوجهني إلى الهداية أو إلى الضلالة، إذًا فعلى أيّ أساس وعلى أي مبدإ أو حكمة يؤاخذني؟ ذلك لأنه هو الحاكم المطْلق فما حِكمته يا تُرى في هذا الأمر؟"

أجل، إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. فقد ذُكر هذا الأمر في مواضع مختلفة وبشكل متكرر في القرآن الكريم[٤]. فالمشيئة الإلهية

(٤) انظر: سُورَة الأَعْرَافِ: ١٧٦/٧؛ سُورَة الْكَهْفِ: ١٧/١٨؛ سُورَة الزُّمَرِ: ٣٧/٣٩.

هي الأساس، والذي يجب الانتباه إليه في هذا الخصوص هو أن الهداية والضلالة من خلق الله تعالى، ولكن السبب يعود إلى مباشرة العبد. غير أن مباشرة العبد ضعيفة إلى درجة يمكن أن لا يُعتدّ بها، لذا يُرجع كل شيء إلى الله خالقِ جميع الأكوان ﷻ. لنوضح هذا بمثال:

إننا نقوم بأعمال معيّنة كالشرب وتناول الطعام. ونتيجة لهذا الأكل والشرب تدخل بروتينات وفيتامينات ومعادن مختلفة إلى أجسادنا وتأخذ أماكنها وتجري تأثيراتها وتوفي مهمتها. وهذه المسائل قائمة على أسس حساسة بحيث إن قيام الإنسان بوضع اللقمة في فمه لا يكفي لتحقيقها. وحتى لو فرضنا أنه يكفي، فإن مجرد وضع اللقمة في الفم يحتاج إلى قوة في اليد ودراية في الدماغ، وكل هذا من الله تعالى.

والإنسان ما إن يضع اللقمة في فمه حتى يثير الله الغدد اللعابية فيترطب الفم، وما إن يترطب الطعام في الفم حتى تُعطى الإشارة إلى الدماغ الذي يقوم بإرسال الشفرات إلى المعدة: "انتبهي! عليكِ بإفراز العصارات اللازمة، لأن النوع الفلاني من الطعام في طريقه إليكِ". وهنا تستعد المعدة بكل غددها وبكل خدماتها وتبدأ بالعمل. وحتى هذا الجزء من العملية لو قام عقل الإنسان بحسابه والتفكير به لَمَا استطاع إلا تناول جزء منه، وقد يخطئ حتى في تناول هذا الجزء الصغير.

تقوم المعدة بالوظائف العائدة لها فتذيب ما تستطيع إذابته كالنشا والكلوكوز. ولا ينتهي الأمر هنا، فعندما يكون الطعام في طريقه إلى الأمعاء تُرسَل شفرة: "الأطعمة التالية في طريقها إليك" أي الأنواع الصلبة التي لا يمكن هضمها إلا بتدخل الأحمضة. ولا دخل للإنسان في المرحلة التالية أيضًا. ثم تذهب المواد السليلوزية إلى الأمعاء

التـي تبـدأ بالفعالية، فإذا كان قسـم مـن هذه المواد -مثـل غلاف التفاح- لا يمكـن هضمـه لعـدم وجـود أنزيـم يُذيبـه طُـرح خـارج الجسـم. كل هـذه الأمـور تجري بدقّة تامة ونتيجة شـفرات التخابـر المتبادلة حول مـا يمكـن أو لا يمكـن إذابتـه وهضمـه فـي المعدة، ثـم يأتـي دور الكبد التي تقوم بإيفاء المئات من الوظائف الملقاة على عاتقها.

فكما ترون فإن دخول لقمة واحدة إلى جسم الإنسان يستتبع ويستلزم حدوث آلاف من العلميات لكي تنقلب إلى شيء مفيد للجسم، ولا دخل للإنسـان في أي عمليـة من هذه العمليات العديدة. فإذا قام إنسـانٌ وقال: ''لقـد تناولـت لقمة وقمت بخزن الحديد والفحم في جسـدي، وإرسـال إلى كل خلية ما تحتاجه منها. فمن احتاج إلى الفيتامينات أرسلت له تلك الفيتامينـات، ومن احتاج إلى بروتينات أرسـلت له البروتينات، كما قمت بتعيير السـعرات ودرجات الحرارة وهيأت كل شـيء، وسـقت لكل شيءٍ مـا يعينه على البدء بنشـاطه وفاعليته'' إن قال مثـل هذا الكلام أفلا يكون مدّعيًا الشرك أي المشاركة في أفعال الله تعالى وتصرفاته؟.

فالتفكيـر المناسـب هكـذا: ''هنـاك يدٌ غَيبيـة تقوم بتحقيـق كل هذه الفعاليـات الدقيقـة الحافلـة بالأسـرار. فمـا إن وضعتُ اللقمـة في فمي حتى تبدأ سلسلة من الأشياء الغريبة بالحدوث. لذا فلا دخل لي في عملية هضـم هـذه اللقمة. فـالله تعالى هو الذي خلق هـذا العمل وخلق الهضم ومـا بعـده''. عندما نقـول هذا القول لا نكون قد أسـندنا عمل الإنسـان إلـى الله، بـل أسـندنا مـا لله إليـه سـبحانه. فمـا يعـود للإنسـان فـي هذا الخصـوص ليـس إلَّا مباشـرة ضئيلة جـدًّا، لذا لا يملك حق إسـناد هذا العمل إلى نفسه.

أما الهداية فهي مسألة مهمة جدًّا، وإرادة الإنسان في الحصول عليها والوصول إليها إرادة جزئية، وتتألف من إظهار اللياقة والاستحقاق لهذه الهداية. فمثلًا: كثيرًا ما أرغب في نقل جميع مشاعري وأحاسيسي بكل انشراح قلب إلى جماعة المستمعين، ولكن ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾ (سُورَةُ الإِنْسَانِ: ٣٠/٧٦). فلا أوفّق في هذا ولا أستطيع إلَّا نقل شيء ما على قدر الإمكان. وكم من مرة أردت نقل الأحكام الإلهية والأحكام القرآنية بكل إخلاص، فإذا بي أعجز عن هذا. وكم من مرة تمنيتُ أن أصلي صلاة خاشعة بحيث أنسى نفسي وأنقطع تمامًا عن هذا العالم في وجد واستغراق، فلا أوفَّق إلا بنسبة واحد من الألف. إذًا فلا يوجد في يدي -إن كنت مخلصًا- سوى رغبة مجردة، وما وراءها في يد الخالق. اللهم رحمتك نرجو، لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك، فنهلك.

ولو تأملنا مليًّا لرأينا أن الأذواق الإيمانية ولذائذها، والشوق إلى الجنة والرضا بكل ما جاء من عند الله، والشوق إليه ليست إلا مواهب إلهية يضعها الله تعالى في جوانح الإنسان، وكل ما يعمله الإنسان هو المباشرة فقط. لذا يعرَّف الإيمان بأنه شمعة يوقدها الله تعالى في روح الإنسان الذي يستعمل إرادته الجزئية في الحصول عليه. جُعلنا فداء لمن يوقد عندنا هذه الشمعة! أي إنك لا تملك في مثل هذا الموضوع الخطير سوى استعمال إرادتك الجزئية فكأنك تقوم فقط بلمس زرّ فإذا بحياتك كلها يغمرها النور. ويشبه هذا قيامك بالضغط على زرّ الكهرباء لثريّا تحوي آلاف المصابيح الكهربائية. أي إن مثل هذا التوجّه الصغير للإرادة الإنسانية الجزئية باتجاه الإيمان، ومثل هذا العمل الضئيل... يكون وسيلة لإيقاد نور الإيمان.

أجـل، نحـن مضطـرون إلى فهم هذه المسـألة على مثـال تناول لقمة الطعام ﴿**وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللهُ**﴾ (سُـورَةُ الإِنْسَـانِ: ٣٠/٧٦) و﴿**يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ**﴾ (سُـورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٣١/٧٤). إذًا فلا توجد إرادة تعلو على إرادته، فهو يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

والخلاصـة أن معظـم الأمر يعود إليه تعالى، ونصيبنا من الأمر شـيء ضئيـل إلـى درجة أنه يمكـن إهماله، لذا فـإن الادعاء بـ''أن الأمر راجـع إلينا'' يعد جرأةً غير مقبولة.

رؤية الله في عالم الشهادة

سؤال: **يتساءل البعض لماذا لا نرى الله في هذه الحياة؟ كيف نجيب هؤلاء؟**

الجواب: الرؤية مسألة إحاطة، فمثلًا هناك جراثيم في جسم الإنسان، وقد توجد ملايين من البكتيريا تحت سن واحدة، وهذه البكتيريا تستطيع بما أُوتيت من قابليات وإمكانيات نَخْرَ سن الإنسان وتخريبها. ولكن الإنسان لا يستطيع سماع صوتها أو ضجيجها كما لا يحس بها ولا بوجودها. كما أن هذه البكتيريا لا تستطيع رؤية الإنسان ولا الإحاطة به. ولكي تستطيع الإحاطة به عليها أن تكون في موضع مستقل وخارجي عنه، وتملك في الوقت نفسه عيونًا تلسكوبية. إذًا فعدم قدرتها على الإحاطة بالإنسان يمنعها من رؤيته، وهي لا تستطيع سوى رؤية ما موجود أمامها فقط. بعد هذا المثال من العالم الأصغر لنعط مثالًا من العالم الأكبر:

تخيل أنك جالس أمام تلسكوب كبير يستطيع رؤية أمكنة على بعد أربعة مليارات سنة ضوئية. ومع ذلك فمعرفتنا حول الكون وحول المكان تعد قطرة في بحر. قد نستطيع معرفة بعض النظريات غير الواضحة تمامًا حول المجال أو الساحة التي يغطيها ذلك التلسكوب وبعض المعلومات أيضًا، ونسعى انطلاقًا من هذه الفرضيات والمعلومات لنصل إلى فرضيات ومعلومات أخرى كذلك. ولكننا لا نستطيع الإحاطة الكاملة بالكون ولا بماهيته ولا بإدارته ولا بشكله العام ولا بمحتواه، لأننا مثلما لا نملك

إحاطة كاملة في العالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة التامة في العالم الأكبر.

ويتبين من هذا أنه على الرغم من امتلاكنا للميكروسكوب ولـ"أشعة أكس" فلا نحيط إحاطة شاملة بالعالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة الشاملة في العالم الأكبر. والآن لنفكر في الله تعالى، يقول الرسول ﷺ: "**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**"(٥). وقال أبو ذر ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**"(٦).

إذًا فتصور هذه العظمة الهائلة!! ونحن... نحن الذين نُعدّ بالنسبة لهذه الأكوان أجزاء ميكروسكوبية كيف نستطيع ادعاء إحاطتنا بالكون والمكان؟ بينما الأماكن كلها والأكوان كلها تعد أشياء ميكروسكوبية بالنسبة إلى عرشه تعالى الذي هو مجرد محل تنفيذ الإرادة والأوامر الإلهية... أليس هذا اشتغالًا بالعبث؟ فإذا كان الأمر هكذا فقس أنت درجة العبث في محاولة الإحاطة بالله تعالى.

لذا يذكر القرآن الكريم أنه ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١٠٣/٦). أجل، لا تدركه ولا تحيط به لا الأبصار ولا البصائر. فالرؤية تقتضي الإحاطة... هو يدرك الأبصار ويحيط بعلمه بكل شيء... ولكن الأنظار والأبصار لا تدركه. لذا يجب معرفة هذا الأمر لكي تتوضح جوانب هذه المسألة.

من جانب آخر فإن النور حجاب لله ﷻ وستار. ونحن لا نستطيع حتى الإحاطة بالنور. وقد سأل الصحابة النبي ﷺ بعد عودته من

(٥) العظمة لأبي الشيخ الإصبهاني: ٥٨٧/٢؛ تفسير الطبري: ١٠/٣.

(٦) ابن أبي شيبة: العرش وما روي فيه، رقم الحديث: ٥٨؛ صحيح ابن حبان: ٧٧/٢؛ تفسير الطبري: ٣/ ٧٧.

المعراج: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فأجاب الرسول ﷺ حسب ما يرويه أبو ذر ﷺ: "**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!**"(٧) وفي مناسبة أخرى قال ﷺ: "**رَأَيْتُ نُورًا**"(٨) بينما النور مخلوق والله تعالى هو منوّر النور ومشكِّله ومقوِّمه ومصوِّره. فالنور ليس الله بل مخلوق له، وهذا يوضحه حديث آخر: "**حِجَابُهُ النُّورُ**"(٩) أي هناك نور بينكم وبينه، وأنتم محاطون بالنور.

عندما نطرق مسائل متعلقة بالألوهية تتعمق أغوارها وتزداد صعوبة حتى يصعب حمل عبئها.

وفي النهاية نستطيع القول بأن الله تعالى لا تدركه الأبصار وأن حجابه النور. والآن لنتناول الموضوع من جانب ثالث. يقول العلامة إبراهيم حقي:

"لا نِدّ لربي ولا ضدّ،
منزَّه عن المثيل والشبيه،
منَزَّه عن الصورة،
هو مقدَّس... تعالى الله..."

أولًا لا يوجد له ضد، وهذا شيء مهم جدًّا. فلكي يمكن رؤية شيء يجب أن يكون له ضد. أنت تشاهد النور لوجود ضد له، وهو الظلام. كذلك تستطيع إبداء رأيك حول بعض الأطوال فتقول هذا متر، وهذا ثلاثة أمتار.. ذلك لوجود أضداد لها. لذا يمكن وضعه في ترتيب. ليس الله مثل النور الذي تشاهده لوجود ضد له وهو الظلام، إذ لا ضد له ولا ند.

ولنتناول الموضوع من زاوية الفيزياء. فما نسبة ما يستطيع الإنسان رؤيته من هذا الكون المبسوط أمام ناظريه يا ترى؟ أجل، هل تستطيعون ذكر نسبة ما تستطيعون رؤيته من الأشياء؟ لنفرض أن عدد الأشياء

(٧) مسلم: الإيمان، ٢٩١.
(٨) مسلم: الإيمان، ٢٩٢؛ المعجم الأوسط للطبراني: ١٧٠/٨.
(٩) مسلم: الإيمان، ٧٩.

المعروضة في معرض الكون يبلغ (مليار x مليار) شيء لكي نشاهد عظمة الخالق ونقف تجاهها بكل تبجيل وتوقير، غير أن نظرنا لا يستطيع إلَّا رؤية خمسة في المليون فقط من هذه الأشياء. أما الباقي فلا نراه ولا نعرفه. أجل، فنحن لا نرى سوى الموجات الضوئية التي لها طول وتردد معينان. إذًا فتأمل مدى تهافت سؤال البعض ''لماذا لا أرى الله؟'' يسأل هذا وهو لا يعلم بأنه لا يستطيع رؤية سوى خمسة في المليون فقط من هذا الكون.. ثم هو بعد كل هذا يظن أن الله تعالى يمكن أن يكون من المرئيات، وهذا تفكير سطحي.

ويوم القيامة يراه من أجهد فكره في الدنيا أمام الآيات الكونية، فيراه سلطان الأنبياء محمد ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين. أما الآخرون فيرونه كلٌّ حسب مرتبته. ويعد هذا الأمر تشويقًا كبيرًا وحضًّا ودعوةً للتفكر والتأمل. فالذين يريدون الحصول على الدرجات العليا في الآخرة عليهم أن يجددوا قلوبهم وأفكارهم، وبتعبير أصح عليهم أن يكونوا في هذه الدنيا أصحاب همّة عالية وروح وفكر يليق بحظوة رؤية الله تعالى يوم القيامة، أي ألَّا يرحلوا من هذه الدنيا بزاد قليل، طبعًا كل حسب استعداده وقابليته.

وهناك قول يتردد على ألسنة الناس على أنه حديث قدسي -رغم أن العلماء يضعّفونه ويقول بعضهم إنه موضوع-: ''**مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**''[١٠].

إذًا فما أعظم منة ونعمة هذا الذات المقدس الذي لا يعد كل الأكوان ذرة أمام عظمته... ما أعظم نعمته على كل مؤمن عندما تجلى على قلبه كنزًا وساقه إلى الاطمئنان والسكينة.

وأخيرًا نقول: الله أعلم بالصواب.

---

(١٠) كشف الخفاء للعجلوني: ٢/٢٥٥؛ وانظر لما روي في معنى قريب منه: مسند الشاميين للطبراني: ٢/١٩.

حكمة الامتحان في الدنيا

سؤال: **ما حكمة وجودنا في الدنيا وابتلائنا فيها، وهو سبحانه أعلم بما نحن فاعلون في هذه الدنيا وبما نمتثل له وما لا نمتثل من أوامر؟**

الجواب: أجل، إنّ الله تعالى وهو يعلم ما نحن فاعلون في هذه الدنيا قد خلقنا فيها ليبتلينا وهذا يكشف ما عندنا من قابليات واستعدادات من خلال ما كُلِّفنا به، فالناس معادن، هكذا خلقهم الله، وثَمَّة في المعادن: النحاس والفحم والحديد والذهب والفضة.

هذا خلق الله، وهو ربُّنا الذي أحسن كل شيء خلَقَه، وله ﷻ أسماء تتجلى في آثاره، فهذا المعرض إنَّما أقامه ليظهر جماليات أسراره المكنونة ويعرض تلك الآثار المتنوعة أمام أنظار الخلق، فالفنّان -ولله المثل الأعلى- إذا كانت لديه مهارات وطاقات كثيرة من مثل الإنشاء والتشكيل وأراد أن يُعرف ويَظهر فسبيله إلى ذلك إنما هو أثره الفني.

وبتعبير آخَر نقول: إن الله تعالى يريد أن يُظهِر لنا كيف تتجلى أسماؤه الحسنى في معادن المخلوقات، وفيها الفحم والذهب والفضة، وكيف يستمر هذا التجلي فيما كان منها ذهبًا خالصًا أو فضّةً خالصةً، أو حديدًا عالجته يد الإنسان. فالله تعالى يُظهِر تجليات أسمائه بدرجات متفاوتة ومستويات متنوِّعة ليبصِّرنا كيف يصيّر الفحم من تلك المعادن ألماسًا

دفعـة واحدة، هكذا يعرّفنا بنفسـه سـبحانه، فيمنّ علينـا لنتعرف عليه حقًّا ونعرِفه يقينًا. أجل، فهو خالق كلّ شـيء، وهو الذي أخرج من كلّ شـيء ما لا يُحصَى من الثمر.

إذًا أَنْ تصيـر تلـك المعـادن ذهبًـا وألماسًـا وفضّـةً أمـرٌ من شـأنه أن يصفّـي العبـاد وينقيهـم ويجعلهـم أهلًا لدخـول الجنة، وفي هـذا المقام يقـول سـيدنا رسـول الله ﷺ: "**النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُـمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْـلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا**"[١١]. فعُمَر العزيز الشـريف في الجاهلية هو عمر الوقور الجادّ المتواضـع المهيب العزيز في الإسلام، عمر الشديد صعب المراس الـذي يُرغِـم الآخريـن على ما يهـوى في الجاهليـة هو نفسـه عمر الذي يخفـض للنـاس جنـاح الـذّل تواضعًا، وهو هـو تجده عظيمًـا عزيزًا على الكفار والمجرمين، وكيفما كان معدن الشـخص في الجاهلية فهو كذلك في الإسـلام؛ لذا إذا ما رأينا إنسـانًا يتدفق حيوية ونشـاطًا وتوهُّجًا تلهفنا إلى دخوله في الإسلام؛ لأن العزيز في الجاهلية عزيز في الإسلام.

هـذا المعـدن هـو عنصـر الإنسـان يتناولـه الإسـلام فيَصهـره ويُعِدّه حتـى يصيّـره ذهبًـا خالصًـا، وهكـذا اسـتحال الصحابـي ذهبًـا خالصًـا، ثـم أخـذت تقلّ قيمة وعيار مَن جاء مِن بعد، فتدنوا بمرور الأيام من عيار ٢٢ إلى عيار ١٨، ١٧، ١٦.... حتى إن من المسـلمين في القرن العشـرين مـن تدنّـى عيـاره إلـى عيـار؛ أجل، فهـذا العصر شـاع فيه كلّ هـذا القدر من التدني والزيف.

إننا نُبتَلَى في هذه الدنيا لنتزكّى، وهو تعالى أعلم بما يزكّينا، فيبلونا به، حاشـا أن يفعل ذلك ليعلم منّا ما لم يكن يعلمه؛ بمعنى أنّه يبتلينا بأنفسـنا، والحق أننا نُبتلى بأنفسنا.

(١١) البخاري: الأنبياء، ١٩؛ مسلم: الفضائل، ١٩٩.

إنّنا لَنجاهد ونسعى لنتزكّى ونتطهّر، واتّبعنا المنهج وكلُّنا شوق وأمل أن يُعالَج مَن كان منّا حديدًا أو ذهبًا خامًا ليغدو ذهبًا خالصًا. أجل، إننا إذا ما قمنا بمثل هذا الضرب من المجاهدة يُظهِر ربّنا على أيدينا ما سبق في علمه سبحانه أزلًا، وبهذا نمتحن أنفسنا بأنفسنا ونقف على حقيقتنا بين يدي الله، والقرآن الكريم يبين هذا فيقول: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٢٤)، فإذا عرفت هذا فاعلم أنك تمتحن نفسك بنفسك، فالله تعالى حاشا أن يمتحننا ليعلم حالنا، بل الأمر على خلاف ذلك، أي إنَّه يكشف لك عن نفسك، ويمتحنك بنفسك، والله أعلم بالصواب.

العبادة والتعبّد

سؤال: بما أن الله لا يحتاج إلى عبادتنا فلماذا لا نقوم بعباداتنا كما يحلو لنا؟

الجواب: إن عبادة الله تعالى أمر مترتب على معرفته ﷻ، أي إن الإنسان يشاهد لوحات الجمال في هذا الكون ودلائل النظام فيه، ثم ينتقل إلى واضع النظام؛ ومَن يتأمل هذا الكون بدقّة وإمعان يرى أنه ما من شيء فيه وضع عبثًا أو دون نظام أو دون غاية، لذا يرى أن عليه أيضًا أن يتحرك ضمن هذا النظام.

ومن نظر إلى الوجود من زاوية الجمال يرَ جمالًا مُذهلًا وخارقًا بحيث لا يستطيع تخيل جمال أعظم منه، فمن جمال وجه الإنسان إلى جمال الأرض فالسماء فالنجوم، وأمام مثل هذا الجمال الرائع الذي يأخذ بالألباب ويسحر القلوب، لا بدَّ أنَّ به يُعرف ومن ورائه يُرى مالك هذا الملك وصاحب ذاك الجمال.

وسواء أكان هذا تأملًا آفاقيًّا أم تأملًا أنفسيًّا فإنه يملأ نفس الإنسان وروحه بالنشوة والفرح والإثارة فيغدو كطفل صغير يريد أن يثب ويقفز، ويطلق صرخات الفرح كلما رأى أجمل الأسماء (الأسماء الحسنى) وهي تلمع مثل فراشات مضيئة فوق أجمل الأفعال والإجراءات والتقديرات، فلا يملك الإنسان نفسه من الإعجاب والتقدير والتبجيل لهذه الصفات التي هي منبع كل خير وجمال، ويكاد الإنسان يغيب عن وعيه من الذهول والإجلال وهو بين يدي مالك الكون أجمع.

ويبدو كل شيء في الكون من زاوية أخرى وكأنه هُيِّئ وأُعِدَّ في مكان آخر ثم عُرض لخدمة الإنسان، فهناك نِعَم مقدمة له في عُلَب محفوظة أو على شكل ثمار وفواكه حتى بدت الأرض وكأنها مائدة عامرة بكل الأصناف، وعندما يمد الإنسان يده إلى هذه النعم يحس بمالكها الحقيقي ويزيده هذا الإحساس إعجابًا واندهاشًا ولذة أخرى، فلو عقل الطفل وهو يرضع من أمه -منبع الحنان- لأحس أن مثل هذا الغذاء المفيد جدًّا له كأنه مقدم لنجدته من عالم آخر، ولأحس أن هناك وراء مظاهر الأحداث جميعها مُنعمًا و رزّاقًا كريمًا، ولكان عليه آنذاك أن ينحني تعظيمًا وتبجيلًا له.

أجل، كل نعمة وكل إحسان يدل على المُنعِم المحسن، ويسوق إلى إجلاله وتوقيره، فأينما شاهدنا نعمةً أو جمالًا أو نظامًا وجبت العبودية لصاحب هذه النعم والجمال والنظام، أي متى ما جعلنا الله تعالى نحس بوجوده، فعلينا أن نشكره بالعبودية فورًا، ومن هنا يقول المعتزلة وكذلك الماتريدية بشروط: لو لم يُرسل الأنبياء ولم يقم أحد بإرشاد الإنسانية إلى الله لكانت الآيات والأدلة التي يزخر بها الكون كافيةً لمعرفة الإنسان بالله، ولكان الإنسان مكلفًا آنذاك بمعرفة الله، وهذه المعرفة تدفع الإنسان إلى تحري ما يرضي الله. ويمكن إيراد أمثلة عديدة على وجهة نظر الماتريدية، فمثلًا: نرى أن بعض المعاصرين للرسول ﷺ رغم أنهم نشؤوا بجوار الكعبة المملوءة بالأصنام والأوثان وما كان ثَمَّة مَن يُعلِّمهم حقائق التوحيد، فإنهم كانوا يحسون إحساس ذلك البدوي وقد قيل له: بم عرفتَ ربك؟ فقال: "البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسَماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما تدل على العليم القدير؟!" هذا قول بدوي لم يكن يرى في الصحراء سوى الرمال الممتدة أمامه، فكيف بغيره إذًا؟

جاء رسولنا بمفهوم سامٍ لإنقاذ البشرية، ولو جاز التعبير لقلنا: إنه كان إنسانًا فوق الإنسان، فقد وصل إلى إدراك المعنَى الحقيقي للكون قبل نبوته، وحدس وجود الله تعالى وبدأ بالبحث والتأمّل في غار "حراء" والتحنث أي التعبد فيه، ففي رواية للبخاري عن أمّنا خديجة ﵂ "أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يَتَعَبَّدُ فِي غَارِ "حِرَاء" وَأَنَّهُ لمَ يَكُنْ يَنْزِلُ إِلَى مَكَّةَ إِلَّا لِلتَّزَوُّدِ بِالزَّادِ"[١٢]؛ وهذا يدل على أن الإنسان يستطيع بإدراكه اكتشاف بعض الأمور، ويسوقه هذا الاكتشاف إلى العبودية لله تعالى على نحوٍ ما.

وما قاله زيد بن عمرو بن نفيل وهو على فراش الموت يستحق التأمل، فقد كان زيدٌ عمَّ عمر بن الخطاب ﵁، وقبيل وفاته استدعى جميع أفراد عائلته وجمَعهم حوله وأخبرهم بما يعلمه من صفات النبي المنتظر، ولم يقدَّر له أن يرى رسولنا ﷺ، أي إنه بلغ بفرسه الشاطئ، ولم يتيسر له ركوب سفينة النبي، غير أن روحه بكلّ ذرّاتها تنسمت عبير رسولنا ﷺ فحدس الحقيقة الأحمدية بكل جوارحه، ولكنه لم يستطع أن يطلق اسمًا على ما أحس به؛ فعن عامر بن ربيعة ﵁ قال: "سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أُومن به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ، فإن طالتْ بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمتُ أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وإقراءه منه السلام، فردّ عليه السَّلامَ وترحم عليه"[١٣]، وكان يقول: "اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم"[١٤]. وهكذا يظهر أن هذا الضمير النقي لو لم يكن في مجتمع وثني لاستطاع بتأمل هذا الكون ونظامه الوصولَ إلى عبودية الله تعالى.

(١٢) البخاري: بدء الوحي، ١؛ مسلم: الإيمان، ٢٥٢؛ الترمذي: المناقب، ١٣.

(١٣) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٤٠.

(١٤) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٣٧.

فمعرفة الله تعالى تبدأ العبودية معها فورًا؛ أجل، فما دام هناك من ينعم علينا بكل هذه النعم فالعبودية موجودة أيضًا؛ لذا فقد وضع الله تعالى في فطرة الإنسان وفي قلبه شعورًا بالعبودية وإحساسًا بها، أي كما قال زيد: "اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم!"، والوحي السماوي هو وحده الذي يحدد ويبين الشكل الصحيح للعبودية ويحول بذلك دون انحرافها لتبقى في حدود الأوامر الإلهية؛ كأن الله تعالى يقول: إنني أنا الله وأنت عبدي، عرفتني بالنعم التي أنعمت بها عليك، وأنا سأعلّمك آداب العبودية التي تمثل بها بين يدي:

تتوضأ أولًا ثم لكي تجاهد نفسك تذكر أن الله ﷻ هو الأكبر، وأن كل ما سواه صغير ضعيف، ثم تعقد يديك أمامك إخباتًا لله، ثم تجتهد ما استطعت في الفهم لتظهر لهفتك لسمو روحك إلى حيث عرج سيد الأنبياء، ثم تركع شاكرًا، وكلما أخبتَّ في الركوع بلغتَ أعماقًا أخرى، ثم تسجد لتَبلغ الأعماقَ في التواضع، ثم ترفع لتستريح ثم تسجد السجدة الثانية وتكثر من الدعاء إذ "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**"(١٥)؛ وتتأمل الآية الكريمة: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢١٩/٢٦) أي يرى مكانك بين الساجدين؛ وبقدر قابليتك وانسجامك وتفاعلك مع جوّ السجود تسمو في معراجك وهو الغاية من الصلاة.

إذًا فالعبادة هي الإيمان بالله والمعرفة بالذات الإلهية ثم القيام بالعبودية إزاء هذه المعرفة بمحبة وإجلال وفي ظلِّ الهدي الربّاني وتحت أوامره، وما تقدَّم هو أحد وجوه هذه المسألة.إننا أمام معرفة ربنا لا ينبغي أن يصدر عنّا ما فيه طيش أو ما لا يليق، وعلينا أن نستنير بأنواره ﷺ في ظل إرشاد الآيات البينات نبتغي بذلك ما يرضي الله ﷻ.

(١٥) مسلم: الصلاة، ٤٢؛ أبو داود: الصلاة، ١٥٢.

وأمَّا المسألة الثانية فنقول: إن الإنسان بحاجة في الساحات كافَّة -تجاريةً كانت أم علميةً أم فنّيةً أم زراعيةً أم صناعيةً- إلى مرشد يتعلَّم منه، ولنفرض: أنَّ لكلٍّ منكم عملًا، فأحدكم عنده مصنع نسيج، وهذا عنده مصنع بلاستيك، وآخر له معرض تحف، ولنفرض أن هناك شخصًا يريد مصلحتنا لئلا نتعرض للخداع، ويعرف الأصول وأساليبها، فعهد إلينا أن ننجز أعمالنا بإتقان، ثم جمعنا ووقف أمامنا قائلًا: ''بوسعكم أن تقوموا بهذا العمل، فهو ضرورة وحاجة، ولتنفذوه بإتقان عليكم بالعنصر البشَري ورأس المال فاستثمروهما جيدًا، وعليكم بتدابير الاقتصاد وعدم الإسراف والعناية بكذا وكذا من الأمور''؛ فذرة من الإنصاف تحملنا على الاهتمام بنصائحه لا سيما أنه لا يروم من وراء إرشاده منفعة، فنصغي إلى نصائحه ونتأمل توجيهاته بعناية، وننظم أمورنا وفقها.

وهكذا الأمر في طاعاتنا وعباداتنا لله تعالى لا نفعل ما تمليه علينا أهواؤنا ورغباتنا بل نعمل وفق النظم والقوالب والهيئات الحاضرة في روح العروج التي يرشدنا إليها خالقنا ومعبودنا؛ وهكذا تحصل البركة في عباداتنا، وتكون كمثل سنبلة أنبتتْ سبْع سنابل، فمن يدري فلعلنا نلمس الزر الذي يفتح أمامنا أبواب الرحمة الإلهية عندما نقول ''الله أكبر''، ولعل أبواب الإلهام تفتح أمام أرواحنا آنذاك، ومن يدري فلعلّنا عندما نقرأ سورة الفاتحة نستعمل مفتاحًا سرّيًّا لفتح قفْل ذي شفرات سرّية، ومن يدري أي أبواب سرية تنفتح أمامنا في كل ركن من أركان الصلاة التي نؤدّيها.

أجل، بوسعنا أن نقول: إن الطرق جميعها ستنتظم وتستقيم وجميع الأبواب تنفتح حينما نسجد، وإن أَدْعِيَتَنا سترتفع بين يدي ربّنا وسنحاط آنذاك بالملائكة الكرام؛ ومن يستطيع أن ينكر حدوث كل هذا؟ إن المبلّغ الصادق ﷺ يخبرنا ببيانه البليغ النوراني عن هذا كلّه، إذًا فأفضل شكل

للعبادة هو الذي بيَّنَه لنا ربّنا؛ ذلك أن الله الذي خلق ماكِنة الإنسان أَدرَى بكيفية تشغيلها، وبطرق استخراج أفضل ثمرة منها سواء في سبيل الحياة الدنيا أو الآخرة؛ إذًا فمن خلق وصنع هذه الماكنة وهذا المعمل عمل "كَتَالُوجًا" لها ووضعه في موضع منها، فليُؤخذ هذا الكَتَالُوج بعين الاعتبار إن كان المطلوب إدارة هذه الماكنة إدارة عقلية وصحيحة، إذًا فالعبادة لا تؤدَّى كيفما اتفق، بل في حدود إرشادات وتعليمات رسولنا ﷺ، وعندئذ تؤدَّى العبادة في أفضل صورها، وهذه نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على أمة محمد ﷺ؛ لذا نقول: ذلك فضل الله، ونتضرع بدعاء رسولنا الكريم ﷺ ألا يكِلَنا ربّنا إلى أنفسنا طرفة عين.

تفاوت الناس في الإمكانيات

سؤال: **هناك أشخاص أعطاهم الله كل شيء، الأموال الطائلة والسيارات الفارهة والقصور الفخمة والشرف الرفيع والصيت الذائع... بينما الآخرون يتضورون جوعًا وتصيبهم آلام وبلايا ومصائب وفقر وعلل. فيا ترى هل هؤلاء فاسدون والآخرون يحبهم الله حتى أغدق عليهم ما أغدق، بينما هؤلاء ينسحقون تحت وطأة أعباء الحياة؟**

الجواب: مثل هذا السؤال لا يُسأل إلا من أجل الوصول إلى المعرفة، وإلا فإن السائل يكون آثمًا. ومن كان في ضيق فله أن يَسأل هذا السؤال من أجل الفهم لا الشكوى.

يعطي الله تعالى المال والدور والمراكب لمن يشاء، ويعطي الفقر وضيق اليد لمن يشاء. ولكن لا يمكن هنا إنكار دور بعض الأسباب كالظروف العائلية وغيرها، كما لا يمكن إنكار قابلية شخص ما وكياسته ودرايته في كسب المال وتنميته، وكذلك لا يمكن إنكار مدى تأثير معرفته بطرق الربح في الأحوال والشروط والظروف المحيطة به أيضًا. ومع هذا فقد لا يعطي الله تعالى المال لأشخاص مع وجود القابليات عندهم. ومع هذا فقد ورد في حديث ذي مغزًى عميق يخص موضوعنا عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**"[16]. وهذا له معنى فيما نحن بصدده.

(١٦) مسند الإمام أحمد: ١/٣٨٧.

ثم إن من الخطإ عد المال والجاه خيرًا مطلقًا. أجل، فالله ﷻ قد يعطي المال والرفاه والسعادة الدنيوية لمن يطلبها وقد لا يعطي، وسواء أعطى أم لم يعط فهو خير في كلتا الحالتين؛ فإن كنتَ إنسانًا صالحًا واستعملت المال المعطى لك في أمور الخير، فالمال هنا يُعد خيرًا. ولكن إن لم تكن إنسانًا صالحًا، بل كنت منحرفًا عن الصراط القويم فسواء أعطاك الله المال أو لم يعط فالوضع يكون سيّئًا بالنسبة لك.

أجل، إن كنت إنسانًا غيرَ مستقيم فالفقر يكون عندك وسيلةً إلى الكفر، لأنه يحرضك على رفع راية العصيان تجاه ربك. كما أنك إن كنت بعيدًا عن الاستقامة فمعنى هذا أنك لا تملك حياةً قلبيةً وروحيةً صحيحةً، لذا فإن الغنى سيكون لك مصيبةً وبلاءً ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٨). لقد خسر الكثيرون هذا الامتحان حتى اليوم؛ فكم من غني مع أنه يملك ثروةً كبيرةً لا يملك في قلبه شرارة نور واحدة بسبب جحوده. لذا فإن إعطاء الله تعالى المال والجاه لهؤلاء يعد "استدراجًا" أي وسيلةً لانحرافهم. ولكن هؤلاء استحقوا هذا لكونهم أماتوا حياتهم القلبية والروحية وقضوا على القابليات الفطرية التي وهبها الله تعالى لهم. من المناسب هنا ذكر هذا الحديث النبوي: "**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**"(١٧).

بينما لم يكن البراء -وهو شقيق أنس- ﷺ يملك طعامًا يأكله ولا دارًا يأوي إليها. كان يعيش على الكفاف. وكم من أشعث أغبر مثل البراء كانوا يوقرون ويُنظر إليهم كعظماء ويقيّمون حسب سعة قلوبهم وعمقها وعظمتها، ونور نفوسهم وضيائها. لذا وصفهم النبي ﷺ أنهم لو أقسموا على الله لأبرهم.

(١٧) الترمذي: المناقب، ٥٥.

إذًا فلا يمكن النظر إلى مجرد الفقر أو إلى مجرد الغنى على أنه مصيبة أو نعمة. فقد يكون الفقر حسب موقعه من أكبر نعم الله تعالى. وقد اختار الرسول ﷺ الفقر بإرادته فقال لعمر ﷺ المتألم من فقر الرسول ﷺ: "**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟**"[١٨] وبينما كانت الثروات تسيل إلى خزينة بيت المال عاش الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فقيرًا، لا يتناول إلا ما يسد رمقه فقط ولم يطلب المزيد.

ولكن هناك نوع من الفقر -أعاذنا الله منه- يكاد يكون كفرًا. فمثلًا لو كان هذا السؤال صادرًا لا عن قصد معرفة وعلم، بل تعبيرًا عن السخط، من فم جاحد، يعد هذا جحودًا لنِعَم الله تعالى وشكوًى منه وعصيانًا... أي عُدّ كفرًا. إذًا فالفقر يعد نعمةً أحيانًا وأحيانًا أخرى نقمةً، أي أن الأصل في الموضوع هو الصدى الذي يلقاه في القلب، أو كما قال الشاعر:

"يا رب! كل ما يأتي منك مقبول،
إن كان خلعةً... أو كان كفنًا،
إن كان وردةً... أو شوكًا،
نعمتك ومحنتك... كلاهما حسن".

وفي شرقيّ الأناضول هناك مثل يقول "كل ما جاء منك جميل، سواء أكان هذا أم ذاك".

الإنسان إن كان مع الله فلا يضره أن يكون غنيًّا وأن يلبس فاخر الثياب، قد يبلغ مرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله، ولكن إن لم تكن للإنسان أي علاقة بالله تعالى فإن فقره يكون له خسرانًا في الدنيا وخسرانًا في الآخرة أيضًا. وكذلك إن كان الغني غافلًا عن الله تعالى فإنه وإن بدا سعيدًا في الدنيا فإن خسرانًا كبيرًا ينتظره في الآخرة.

(١٨) البخاري: تفسير سورة التحريم، ٢؛ مسلم: الطلاق، ٣١؛ مسند الإمام أحمد: ١٧٦/٣.

تكفّل اللّه بالرزق

سؤال: يقولون: إن الله تعالى تكفل بالرزق، فما لنا نرى أناسًا في بعض الدول يموتون من المجاعة التي استغرقت خمسين أو ستين يومًا؟

الجواب: تبيّن آيات في كتاب الله ﷻ أن الله تعالى تكفل للخلق جميعًا بالرزق، منها مثلًا: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ٦/١١) و﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥٨/٥١).

أجل، فالرازق هو الله، وجميع آي القرآن في هذا تشير إلى أن الرزق في كفالة ربانية؛ فلا أحد يموت جوعًا، ولكن على الناس أن يعلموا أن الله تعالى إنّما تكفل بما يفي بحاجاتنا الضرورية من الرزق، أمَّا ما سوى ذلك فلم يتكفّل به سبحانه، هناك أشياء لا تعد من قبيل الرزق الذي تكفل الله به، فلو جعلها الإنسان رزقًا ضروريًّا له بإسرافه وسوء استعماله وسيّئ عاداته ثم فقدها فمات، فليس لنا أن نقول حينذاك: إن ذاك الإنسان مات لانقطاع الرزق.

هلموا بنا نضرب أمثلة يسيرة لذلك، مثلًا: مدمن الأفيون الذي اعتاد تعاطي الأفيون، لو حاولتَ ثَنْيَه عن ممارسة هذه العادة السيئة لجنّ وثارت ثائرته، وقد يموت إن بلغ إدمانه للمخدر مبلغه. أجل، يموت هذا الإنسان إذا ما حرم من الأفيون، لكن سبب موته إدمانه على الأفيون أوَّلًا، ثم إقلاعه عنه أخيرًا على نحوٍ لا يتناسب وطبيعتَه.

وهناك آخر اعتاد التدخين وأُشْرِبَ دمه بالنيكوتين، فلو أقلع هذا عن التدخين دون أن يسترشد بوصفة مناسبة لبدت على جسده بعض

الأعـراض، ربمـا تتـورم يده ورجلـه ووجهه، وعندهـا يقول لـه الأطباء: ''لا يمكنـك الإقـلاع عـن التدخيـن بهـذه الصـورة، فمثل هـذا الانقطاع غيـر المناسـب ربما يؤدي إلـى حدوث بعض المضاعفـات''، ففي المثل ''ترك العادات من المهلكات''.

هناك عادات أخرى كتلك:

لو أنّ إنسانًا تعود على تناول كيلو من البروتينات يوميًّا، رغم أن حاجة الجسـد اليومية من البروتينات لا تزيد عن خمسـين جرامًا، أو لو أنه اعتاد أكل كيلـو فاكهـة وآخَـر من البقـلاوة وآخر من اللحم يوميًّـا ثم أقلـع عن تلك العادة فمن الممكن أن تصيبه الرعشة فيمرض ويعجز عن أن يستوي قائمًـا، أما لـو تناول معدله اليومي من الفاكهة ''٥٠-١٠٠ جرام''، وتناول مثله من البروتينات أيضًا فتلك هي كفايته اليومية من الأغذية، بل قد تكفيه بضعة أيام، فهذا أمر مردّه إلى العادة.

وتدّخِر خلايا الجسم هذه الأطعمة شحومًا، فإذا عدِمَت الخلايا غذاءً جديدًا عمَدت إلى استخدام هذا المخزون شيئًا فشيئًا، فيتغذى به الجسم.

ومثـال ذلك أيضًا هؤلاء الذين يموتـون جوعًا هنا وهناك، فلو اقتصد هؤلاء فيما قدره لهم ربهم من الرزق لَحفِظ عليهم حياتهم، هب أنّ الله ﷻ رزق شخصًا كيسًا من القمح فاستهلكه في شهرين لظل سائر السنة جائعًا ثـم مـا يلبث أن يموت جوعًا، أمَّا إن اقتصـد فأكل كل يوم حفنةً من كيس القمح فلسوف يكفيه سنةً كاملةً، ولن يموت بالنظر للأسباب.

وهـذا يعنـي أنّ الناس لا يموتون فقـرًا أو جوعًا أو حرمانًا من الرزق، بـل يموتـون لأنهم اعتادوا تبذير ما رزقهم الله مما فيه كفايتهم أمدًا مديدًا، فأدمنت أجسـادهم هـذا فغدا تركهم لعاداتهم هـلاكًا لهم بمقتضى قوانين الشريعة الفطرية.

عالمية سيدنا محمد

(صلى الله عليه وسلم)

سؤال: يزعم بعض الناس أنّ رسالة سيدنا رسول الله ﷺ خاصة بعهده ومقصورة على العرب، فما قولكم في هذا؟

الجواب: لا دليل أو أمارة تثبت أنّ رسالة نبينا ﷺ خاصةٌ بعهده كما لا دليل على أنه ﷺ إنما أُرسل إلى العرب خاصّةً، بل إن الدلائل كلها تبرهن أنه ﷺ كان يصل ليلَه بنهاره طوال حياته السَّنيّة ليبلُغَ برسالته ما بلغ الليل والنهار.

نهض الإسكندر ليؤسّس دولةً تهيمن على العالم، ومثلَه فعل سيزار لروما والرومان، ومن بعده نابليون كذلك. لكن نبينا الكريم، جوهرَ الخَلق، وسيدَ الزمان والمكان ﷺ، عندما وجَّه أتباعه لفتح العالم كان يستهدف من ذلك إزالة العوائق من الطرق المؤدية إلى سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، ويستهدف من جهة أخرى توجيه البشرية -التي هي أشرف المخلوقات لكنها انقلبت رأسًا على عقب وهَوَتْ في أسفل سافلين- إلى الهدف الذي من أجله خلقها الله، ويستهدف أيضًا استرداد كرامة الإنسان المفقودة. وقد مدَّ ﷺ يده المباركة البيضاء لتحقيق هذه الغايات، فبلّغ رسالة ربه إلى كل شخص وكل بقعة بلغَها صوته، بصفته رسولًا يأتمر بأمر الله ويهتدي بهداه.

وإليكم بعضًا من دلائل عموم رسالته ﷺ:

١- لما كان رسول الله ﷺ بمكّة أمر بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فعرَّف سُفراءُ الهداية الأوائلُ كثيرًا من أهل الحبشة بالإسلام. نعم، كانت رحلتهم هجرةً في ظاهرها، بيد أن إسلام النجاشي ملك الحبشة ومن معه بسعيهم هناك ودعوتهم لَهو استجابة مُثلَى وإشارة أُولَى تبرهن أنه ﷺ رسول الله إلى الناس كافّةً.

٢- كان من الرعيل الأول في عصرِ الصحابة أجناسٌ مختلفة، فسيدنا بلال ﷺ حبشيّ، وسيدنا صهيب ﷺ روميّ، وسيدنا سلمان ﷺ فارسيّ، وآخرون من أعراق أخرى؛ تسنّموا مناصب رفيعةً أكثر من كثير من العرب وهم ليسوا بعرب، وهذا له مغزًى عميق؛ فهو يدلّنا على أن رسالة الإسلام رسالة عالمية.

٣- لحِق سراقة بن مالك رسول الله وصاحبه يوم الهجرة، وبشّره ﷺ بسِوارَيْ كسرى بن هرمز قبل فتح العراق بسنوات، وتلك إشارة منه ﷺ إلى أن رسالته ستبلغ بلاد فارس، بل إلى ضرورة تبليغ رسالته إلى هناك، وما طالَت بالبشارة مدّة بُعيد وفاته ﷺ حتى تحققت، ففُتحت العراق، ولبس سراقة سِوارَي كسرى.

٤- عن أُمّ حَرَام بنت مِلحان ﷺ -وهي خالة النبي ﷺ من الرضاع في رواية، وقيل من محارمه من جهة خالاته- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا فِي بَيْتِهَا، فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: "يَا رَسُولَ اللهِ مَا يُضْحِكُكَ؟" قَالَ: "**عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ...**"[١٩]، وهذه إشارة أخرى إلى أن الرسالة ستمخر عباب البحار، وتحققت هذه البشارة المباركة في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

(١٩) البخاري: الجهاد والسِّير، ٨؛ مسلم: الجهاد والسِّير، ٤٩.

٥- بشّر النبيُّ ﷺ صحابته ذات مرَّة بفتح مصر، وأن نور رسالته سيبلغها في عهدهم، وأوصاهم بأهلها: "**إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا** (أَوْ قَالَ: **ذِمَّةً وَصِهْرًا**)"[٢٠]، فهو ﷺ يعزز بذلك أواصر القربى التي كانت أمّنا مارية ﵂ وأمّنا هاجر زوجة سيدنا إبراهيم ﵇ أهمَّ وشائجها.

٦- لما كان النبي ﷺ يحفر مع صحابته الخندق بالرافعة والمعول والمجرفة، بشّرهم بفتح الحيرة وصنعاء ومدائن كسرى وبلاد الشام[٢١].

وبعد، فهل بقي لمدَّعٍ مستمسَك على أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب وحدهم أو بعهده فقط، أم أن علينا أن نعدّ هذه البلاد من الجزيرة العربية، وأن نسمّي أهل الحيرة والفرس والروم عربًا؟!

والأدلة من الكتاب والسنة على عموم رسالته كثيرة، منها:

١- يقول ﷺ: "**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**"[٢٢]، وفي رواية أخرى "**بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**"[٢٣]، ويتقوّى هذا بما جاء في تاريخ الطبري: أنَّ النبيّ ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم: "**إِنِّي بُعِثْتُ رَحْمَةً وَكَافَّةً فَأَدُّوا عَنِّي يَرْحَمْكُمُ اللهُ**"[٢٤].

٢- ولما جاء رسولَا كسرى قال لهما النبي ﷺ: "**قُولَا لَهُ: إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ مُلْكُ كِسْرَى**"[٢٥]، يشير بذلك إلى أن رسالته ستُخرِج العالم ومنه الفرس من الظلمات إلى النور.

(٢٠) مسلم: فضائل الصحابة ﵃، ٥٦.
(٢١) سنن النسائي: الجهاد، ٤٢؛ مسند الإمام أحمد: ٣٠٣/٤.
(٢٢) البخاري: التيمم، ١.
(٢٣) مسند الإمام أحمد: ٣٠٤/٣.
(٢٤) تاريخ الطبري: ٦٤٥/٢.
(٢٥) أبو نعيم: دلائل النبوة، ٣٤٨/١.

٣- وجّه النبيّ ﷺ أصحابه إلى بقاع العالم كافّة، فقبل فتح إسطنبول والأناضول بقرون أخبر أن الجيوش الفاتحة ستدُقُّ يومًا ما أبواب أوربا، فمدحهم وأميرَهم، ورغَّب في ذاك الفتح المبين، فقال: "**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ**"(٢٦).

أمَّا حديث القرآن عن هذا فبيّن جليّ، لا خفاء فيه ولا تأويل، فمثلًا:

١- ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سُورَةُ ص: ٨٧/٣٨). دليلٌ على أن نبينا ﷺ كُلّف بدعوة الناس كافّة.

٢- ﴿**لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٧٠/٣٦)، فالآية تقرّر هذه الحقيقة بأَبْيَن وأصرَح، ففيها أن رسالته ﷺ للخلق جميعًا، الإنس والجن، فمعارضتها بأي شكل كفر وجحود.

٣- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ سَبَإٍ: ٢٨/٣٤).

٤- ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٥٨/٧). فدلالة مثل هذه الآيات جليّة على أن الله أرسلَه للنّاس كافّة، فهو رسول الله إليهم جميعًا، إذًا لا معنى ألبتة لدعاوى لا أصلَ لها تحصر رسالته ﷺ بزمان ومكان ما، أو بعهده خاصة.

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم يتكلم عن الأنبياء الآخرين عليهم السلام وكيف أن دعوتهم كانت خاصة بأقوامهم، ليبيّن الفرق بين الأنبياء كافّة وبين رسول العالَمين ﷺ، فمثلًا قال عن نوح وهود وصالح عليهم السلام: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٥٩/٧)، ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**﴾

(٢٦) مسند الإمام أحمد: ١٨٩٥٧.

(سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٦٥/٧)، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧٣/٧).

وهكذا تحدث عن سيدنا لوط عليه السلام في الآية الثمانين من السورة نفسها، وعن سيدنا شعيب في الآية الخامسة والثمانين، ويكاد كلما ذكر الأنبياء السابقين يشير إلى أنهم إنما أُرسلوا إلى أقوامهم خاصةً، فلم يدع المسألة مبهمةً، بل أفصح عمن أُرسِل إلى قومه خاصّةً، ومن أُرسِل لهداية الناس كافّةً.

حقًّا لقد سمعت الأرض كلها برسالته ﷺ منذ أن بُعِث، فاستحسنها الناس جميعًا أيَّما استحسان، وغدت حياةً للحياة بما تركَته من أثر طيب على مساحة كبيرة امتدت من بلاد المغرب حتى بلاد ما وراء النهر، فكثيرٌ من الدول الإسلامية امتثلَت قرونًا عدّة للتشريع الذي أنزله الله عليه ﷺ، فالمبادئ التي قدّمها للبشر تتفاعل مع الحياة على الدوام، وهي رائدة للفكر، مرشدة للعلوم، تبعث على البحث والتأمّل، حافظت على حيويتها وجدتها، فغدت منشودةً في كل مكان رغم ما مُنِيَت به من أعداء الإسلام منذ عصور من بغي واعتداء وتخريب، واليوم يُجمِع آلاف العلماء والمفكرين على أن عودة الإنسانية إلى ذاتها رهنٌ بالرُّوح والقِيَم النبوية، وهذا لا يُعَدّ دليلًا واحدًا فحسب على عالمية رسالته بل إنه بمنزلة آلاف الأدلة.

ودلَّت كتب السير والحديث على أنّ النبي ﷺ بعث بكتب إلى ملوك العالم؛ بدأت بهرقل عظيم الروم فالمقوقس عظيم القبط في مصر، وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة، ليبلّغ دعوته إلى العالم كافّةً، فعرّف ﷺ نفسه رسولًا للعالمين منذ أن دعا إلى الدين الحق حتى يومنا هذا، واستحسن الناس جميعًا مبادئ شريعته أيَّما استحسان، فدلّ هذا على أن الله أرسلَه للنّاس كافّةً، فهو رسول الله إليهم جميعًا، فالمسألة قطعية الثبوت، ويبدو أن إثارة شبه جديدة حولها مصدره الحسدُ والحقد والغلّ ليس إلا.

حادثة تلقيح النخل

سؤال: يقول النبي ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ"[٢٧] وأومأ بإصبعه إلى فَمِه ﷺ، ولما أشار على أصحابه بترك تلقيح النخل فلم يُثمر قال: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ"[٢٨] ، فكيف الجمع بين الحديثين؟

الجواب: لُبَابُ السؤال أن لدينا حديثين ظاهرهما التعارض:

الحديث الأول: "**مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**"، أومأ ﷺ ذات مرة بإصبعه إلى فيه وقال: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**". الحديث أخرجه أصحاب السنن كأبي داود وغيره عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، كان رضي الله عنه يكتب كل ما يتناثر من فمه الشريف ﷺ من دُرَر، فلا يفوته شيء، حتى إن أبا هريرة رضي الله عنه ذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان أكثر منه رواية: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب"[٢٩]، كان عبد الله بن عمرو بن العاص رجلًا زاهدًا متعبّدًا، اشتهر بالعبادة والطاعة، يقول رضي الله عنه: "أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ "وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ" فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ؟**" قُلْتُ: "قَدْ قُلْتُهُ" قَالَ ﷺ: "**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ**

(٢٧) أبو داود: العلم، ٣.

(٢٨) مسلم: الفضائل، ١٤٠.

(٢٩) البخاري: العلم، ٣٩.

مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ" فَقُلْتُ: "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ" قَالَ ﷺ: "**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**" قُلْتُ: "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ" قَالَ ﷺ: "**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ**" قُلْتُ: "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ" قَالَ ﷺ: "**لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**"[٣٠].

يمكن أن ندرك من قوله "إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ" أنه بلغ في العبادة مبلغًا. أجل، فكان شخصًا ربّانيًّا في تقواه ورقّته وعبادته، وكان ﷺ أيضًا يقدُر كلام النبي ﷺ حقّ قدره، ولا يغادر صغيرةً منه ولا كبيرةً إلا سجّلها.

سبب ورود الحديث الأول: قال سيدنا عبد الله بن عمرو ﷺ: قالت لي قريش: تكتب عن رسول الله ﷺ وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر؟! فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: إن قريشًا تقول: تكتب عن رسول الله ﷺ وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر، قال: فأومأ إلى شفتيه، فقال ﷺ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِمَّا بَيْنَهُمَا إِلَّا حَقٌّ فَاكْتُبْ**"[٣١]. هذه هي الواقعة الأولى.

الواقعة الثانية: لما شرّف النبيّ ﷺ المدينة بقدومه، ورأى أهلَ المدينة يلقحون النخيل، قال: "**مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا**"[٣٢]، وفي رواية: "**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**"[٣٣]، لم يقل: "ليس للتلقيح أي فائدة"، بل أشار إلى أن هذا ليس مؤثّرًا حقيقيًّا. فترك أهل المدينة التلقيح، فلم يثمر النخيل في تلك السنة، ومن يدري فلعله كان من قضاء الله وقدره ألا يثمر النخيل في تلك السنة أُبِّر أو لم يؤبَّر، فقال النبي ﷺ بعدئذ: "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"[٣٤]،

(٣٠) البخاري: صيام، ٥٦.

(٣١) المستدرك للحاكم: ١/١٨٦.

(٣٢) مسلم: الفضائل، ١٣٩؛ مسند الإمام أحمد: ١/١٦٢.

(٣٣) مسلم: الفضائل، ١٣٩.

(٣٤) مسلم: الفضائل، ١٣٩.

ولا يصح أن نفهم من هذا "أنتم تعلمون أفضل مني"، فيحتمل أنه ﷺ قصد بقوله "**مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا**" هذا المعنى: أنتم تلقحون النخيل، لكن ذلك لا يُغني عن قدر الله ومشيئته شيئًا. تعلمون أن بعض النباتات تثمر سنة وسنة، فمن الممكن أن اتَّفق أن النخيل لم يثمر في تلك السنة، فلحظ النبي ﷺ أحوالهم، وعلِم أنهم لم يستوعبوا حكمة كلامه، فقال ﷺ: "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"، فكأنه يريد بهذا أنه لم يحِنْ بعدُ فهمُ أمرٍ جَلَلٍ لا يتأتى استيعابه إلا بعد تجربة وجدانية.

وإليكم حادثةً أُخرى: كانوا في الجاهلية ينسبون إلى الأسباب تأثيرًا حقيقيًّا، فمثلًا جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أنهم كانوا يقولون: "**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**"، يعتقدون أن النجم الفلاني إذا ما طلع تداعى السحاب فأمطرت السماء.

وفي هذا قال رسول الله ﷺ: "**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**" قَالُوا: **اَللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**. قَالَ ﷺ: "**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: "مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ" فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ؛ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: "بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا" فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**"[٣٥].

أجل، كانت هناك زمرة تنسب إنزال المطر إلى الله كما تنسب كلَّ خير إليه سبحانه وتلك هي الزمرة المؤمنة، وهناك زمرة أخرى ترى المطر وغيره من صنع الأسباب، وتلك هي الزمرة الكافرة.

إن إسناد التأثير الحقيقي إلى الأسباب اعتقاد سائد جدًّا في الجاهلية؛ فكان لا بدّ من استئصال شأفة هذا الاعتقاد، وإظهار أن الأمر كلّه لله، وأن الله متفرد بربوبيته كما أنه متفرد بألوهيته.

(٣٥) البخاري، الأذان، ١٥٤؛ مسلم، الإيمان، ١٢٥.

أجـل، فكمـا أن الله تعالى لا إله إلا هو وحده لا شـريك له، فهو غنيّ كذلـك عـن المعين في أفعاله، فهو سـبحانه مُنزِل السـحاب طلـع نجم أم أَفـل، ولكنه ﷻ جعل لنزول المطر أَسـبابًا أو أمارات تُقارن نزولَه ليتأهب النـاس لـه، وربما لا ينزل المطـر وإن وُجِدتْ، فالأمر بيده سـبحانه. هدَم النبيُّ ﷺ بقوله هذا كلَّ سـبب أسـند إليه الناس وقوع الأشـياء والحوادث، ليعلموا أنْ ليس للأسباب تأثير حقيقيّ، وأنّ الأمر كلَّه لله مسبِّب الأسباب، ولتتعلَّق قلوبهم بمن هو على كلّ شيء قدير ﷻ.

واقعة أخرى: قال النبي ﷺ: "**لَا عَدْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ**" فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُـولَ اللهِ فَمَا بَـالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَـاءُ فَيُخَالِطُهَا الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ فَيُجْرِبُهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟**"[٣٦].

فـلا نفي هنا لسـريان المرض، وإلا لما حـذّر النبي ﷺ أصحابه بقوله: "**إِذَا سَـمِعْتُمْ بِـهِ** (الوباء) **بِأَرْضٍ فَـلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِـأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**"[٣٧]؛ لم يكن النبي ﷺ لينفي وجود الأسـباب بل كان يفنّد المنطق الجاهليّ، فبينما يعلّمهم ﷺ أنّ لوجود الأسباب حكمة، كان يشير إلى أن الجراثيم والحُمَات تأتي بالمرض، بيد أن هذا لا يعني أنّ الأسباب هـي كل شـيء، فالأخذ بالأسـباب وظيفة، والإيمان بـأن الأمر بيد الله هو عيـن التوحيـد، وأحكم النبـي ﷺ بيانه لهذه المسـألة الدقيقة بقولـه "**فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟**"، فحكم ببطلان التسلسل والدور، أي هذا من ذاك وذاك من سـابقه، فالأول ممن؟ وهو ما جعلهم يقولون في النهاية "الله"؛ إذًا الأمور التـي نراهـا تجري وَفقا للأسـباب إنما تجري بأمـر الله وإرادته من بدايتها إلى نهايتها، فالله هو خالق كل شـيء، فبهذا أتى النبي ﷺ بُنيانَ الشـرك مـع الله في ربوبيته من القواعد، وأهاب بالأرواح أن تُشرِك، ولفت الأنظار إلى قضيةٍ بالغة الأهميّة.

(٣٦) البخاري: الطب، ٥٢؛ مسلم: الآداب، ١٠١.

(٣٧) البخاري: الطب، ٢٩.

وعودةً إلى مسألة التلقيح... انتشرت في الجاهليّة عقيدة معينة في أمر التلقيح، فبه يؤتي النخل أُكُلَه أضعافًا مضاعفةً، وبدونه لا يثمر؛ وفي هذا شرك خفي، إذ مردّ إثمار النخل هو التلقيح لا غير، فاستهدف النبي ﷺ هدْمَ تلك العقيدة الباطلة، ليبيّن لهم بأسلوبٍ تَعيه عقولهم أنَّ الأسباب إن هي إلا حُجُبٌ رفيعة أمام عزة الله وعظمته، فلقَّنهم درسًا أوَّلًا، فلما كشفوا عن نظرة تغاير ما قصده قال لهم: ''أنتم أعلم بأمور دنياكم''.

أتراه يمدحهم حقيقةً أم أنه يومئ إلى أنهم لم يستطيعوا أن يستوعبوا حقيقةَ ما بيَّن كما أبان؟ فتأمل.

مسألة ثالثة: كلام النبيّ ﷺ كلّه بل حياته كلّها إرشاد لأمته؛ فلو باشر النبيّ ﷺ توجيه أصحابه في حياتهم كلّها دِقّها وجِلّها بصورة التشريع، فقال مثلًا: هكذا صبّوا الماء، وطوّفوا به المائدة ثم اشربوا، وإذا فعلتم كذا فافعلوه هكذا، وإذا قطعتم شجرًا فاقطعوه من أسفل، وإذا ضربتم على الحديد فاضربوا عليه هكذا، وضعوه في الفرن هكذا... فلو علّمهم كل شيء وأمرهم به لكان عليهم وعلينا أن نمتثل تلك الأوامر إلى يوم القيامة امتثالَنا للأوامر التشريعية الأخرى، بيد أنه ﷺ زادهم بقوله هذا ثقة بأنفسهم لِيُثْرُوا معارفهم وتجاربهم وممارساتهم؛ فالسنبلة ربما تغدو مائة حبة أو عشرًا كما نبّأه علام الغيوب، فبالتجربة والتلقيح ربما تبلغ أترجة حجم الشمام أو البِطّيخ.

مسألة رابعة في منتهى الأهميّة: إنَّ الله أوكل إلى الإنسان أمر التدخل في الكون، فهو ﷺ خليفته ﷻ في الأرض، فبهذا كان للإنسان الأمر والتصرف في الأشياء التي خلقها الله له على مستوى ''الشرط العادي''، وتلك هي حكمة منح الإرادة للإنسان، بل إنها مقتضَى خلافته ﷻ في الأرض، فلو لم يكِل النبيّ ﷺ الأمر إليهم فقيّدهم في الشريعة الفطرية

كما التشريعية لقالوا: إنما امتثلنا الأمر فلقَّحنا، أو النهي فتركنا؛ فتجف حينئذ منابع العلم والمعرفة البشرية وتذهب التجارب والخبرات هباءً منثورًا، ويتعارض تشريعٌ جاء بتعليم الفطرة مع الفطرة نفسها.

إن أقواله ﷺ وتشريعاته باقية إلى يوم القيامة؛ لذا كان يذكر ﷺ أمورًا قطعيةً لا تدع طريقًا للأوهام وخطأ الأفهام في المستقبل، ليرجع الناس جميعًا دائمًا بطمأنينة تامَّة إلى هذا المنهل العذب المورود، فكان لا بد أنه لا يخرج من فيه عليه الصلاة والسلام إلا الحق، ولم يخرج إلا الحق.

مسألة خامسة: كان النبي ﷺ إنسانًا، فهو أعلم بمعنى حرية الإنسان، فالإنسان إن لم يكن حرًّا لم يعُد إنسانًا، فلا يطلق لفظ إنسان بتمامه على أسير أو سجين، وليس من الإنسانية أيضًا أن يرزح الإنسان تحت ذلّ القهر وتسلط الكفرة الفجرة بأن يعيش حياته كما يرتضونها له، لا كما يرتضيها هو، أجارنا الله من إنسانية كهذه، وأصلح من رضي بمثلها.

أجل، فالإنسان إنسان بإرادته، فهي خِصِّيصَى غاية في الأهمية، وهي كبذرة واراها الثرى، وما إن تتوارَى حتى يُولَد من مدفنها شجرة عظيمة، فنبيّنا ﷺ لم يقيد إرادتهم، بل جرَّبهم أوَّلًا، ثم قال: خيرٌ لكم أن تفعلوا ما كنتم تفعلون لتنالوا ثمرة إرادتكم وينال الذين يأتون بعدكم ثمرات إراداتهم.

وجَلَا تلك الحقيقةَ بقوله "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"، وما يقول إلا حقًّا، عليه أكمل التحايا وأتمّ التسليمات.

حكمة تعدد زوجات النبي

(صلى الله عليه وسلم)

سؤال: **هل لكم أن تبيّنوا لنا حِكمة تعدد أزواج الرسول ﷺ ؟**

الجـواب: بدايةً إن مـن يلوكون هـذا الموضوع بأفواههم مـا اطّلعوا ولا تفكّروا، فلو بذلوا بعض الجهد في قراءة شيء من "المغازي والسير" لَما أسَفُّوا بطرح سؤال كهذا.

سُـئلتُ عن هذا مرارًا، وحاولت الإجابة بأشـياء -لا أدري هل كانت إجابةً تامةً أو ناقصةً- سأكرّر هنا ما أتذكره منها:

لزواج سيد المرسلين ﷺ وجوه عدّة، منها ما يتعلق بذاته الكريمة ﷺ، وأهـدافٌ ومقاصـد لوحظت فـي زواجه، وحاجات وضروريـات، وأخيرًا أحـوال خاصـة تتعلق بأزواجه ﷺ ويجـب تنفيذها... وإليكـم تحليلَ هذه الأمور واحدة تلو الأخرى:

نتنـاول أوَّلًا الموضـوع وعلاقتَـه بتلك الشـخصية الزكيـة، اعلم أولًا أنَّ صاحـب المقـام الرفيـع ﷺ لم يتزوج حتى بلـغ الخامسـة والعشـرين، فإذا لاحظت ظروف ذلك البلد الحار وأنَّه نَبت وشـبَّ على العفة والطهر وأن الجميـع سـلّم بعفتـه في الماضـي والحاضر، علمـتَ أن العفة عنده سجية وخلق لا ينفكّ عنه، وتلك دلالة على قوة إرادته وتحكُّمه في نفسه. ولو أن لديه أدنى ميل في هذا لسارع أعداؤه قديمًا وحديثًا إلى إشاعة ذلك فـي العالم كله، لكـن لا أحد منهم تجرَّأ على فرية كهذه رغم أنهم اتهموه بأكاذيبهم وافتروا عليه.

كان زواجه الأول ﷺ في الخامسة والعشرين بسيدة لها منزلة كبيرة عند الله وعند رسوله، لكنّ عمرها أربعون سنة وتزوجت مرتين قبلَه، وكان عمر هذا العش السعيد ثلاثًا وعشرين سنة، ففي السنة الثامنة من البعثة توفِّيتْ ﵂، وتركَت وراءها حزنًا عميقًا، فرجع الرسول ﷺ وحيدًا كما كان. أجل، فبعد ثلاث وعشرين سنة من حياة سعيدة مع أسرته عاد ليعيش عَزَبًا زمنًا وكان في الثالثة والخمسين؛ ثم تزوج الأُخريات في سنٍّ تضعف فيه الرغبة، فدعوى اتباع الشهوات بعدئذ لا سيما في ذلك البلد الحارّ تجافٍ لا منطق فيه ولا إنصاف.

مسألة أخرى ترِدُ هنا: ما علاقة النبوة بتعدُّد الزوجات؟ وأودُّ أن أشير بإيجاز إلى الآتي:

١- من يحاول استغلالَ هذا الأمر إمَّا ممن لا يلتزم بأيِّ دين وأي مبدإ أخلاقيّ، فلا حقَّ له في نقد أمرٍ كهذا أصلًا، إذ لا وزن لمبادئ الأخلاق عنده ولا يتحرج من العلاقات الآثمة وإن كثُرت؛ وإمَّا أنّه من أهل الكتاب لكن ديدنه النقد والهجوم الجائر بحقدٍ وبلا تأمل كافٍ؛ فيذكر في الكتب المقدسة التي يؤمن بها أن عدَّةَ أنبياء عظام تزوجوا عددًا من النساء، ومنهم سليمان وداود ﵈، فعلى أتباع هؤلاء الأنبياء أن ينصفوا في هذا الأمر، فالرسول ﷺ لم يكن أوَّلَهم في ذلك، وتعدُّد الزوجات ليس أمرًا منافيًا للنبوَّة وجوهرِها، فللتعدُّد إذا ما قُرِن بالنبوّة فوائد عدَّة ستُذكَر.

أجل، فالأنبياء يبلّغون التشريع، ومنه أحكام الأسرة، وللأسرة وجوه عدّة يلفُّها الستر والخفاء، فلا تطّلع عليها إلا الزوجة، ولا بد من معرفة أحكام تلك الوجوه صراحةً دون لجوء إلى كنايات قد يعسر معها الفهم والاستنباط، فكان تعدُّد الزوجات ضروريًّا للأنبياء ليبلّغْن عنهم، وليحملْنَ عبء الإرشاد والتبليغ في قضايا المرأة، فقيامهن بهذه المهمة ضرورة تقتضيها النبوّة ووظيفة النبيّ والتشريع الخاصّ بالمرأة.

٢- وفي هذا المقام حِكَم تخصّ أزواجه وحدهنّ ﷺ:

أ- لما تفاوتت أعمارهن، فكانت منهن الشابّة والكهلة والعجوز، ولكل مرحلة أحكامها، اتخذ الرسول ﷺ منهن طريقًا إلى تطبيق الأحكام الخاصّة بكلّ مرحلة.

ب- لما كان أزواجه الطاهرات رضي الله عنهن من قبائل شتَّى، نشأت مودّة راسخة متينة بين تلك القبائل، ثم بينها وبينه ﷺ، فغدا الرسول ﷺ عندهم واحدًا منهم، فاجتمع له عندهم اتّباعه على دينه ومشاعر ذوي القربى الفطريّة.

ج- قامت كلٌّ منهنّ بتبليغ الرسالة إلى قبيلتها في حياته ﷺ ومِن بعده، فكلٌّ منهنّ حلقة في سلسلة تبليغ الرسالة الأحمديّة ما ظهر منها وما بطن إلى أفراد قبيلتها كافّة، فعنهنّ أخذت تلك القبائل القرآن وتفسيره والحديث واطّلعت على روح الدين.

د- بنى النبيُّ الأكمل ﷺ بزواجِه منهنّ أواصرَ قُربى مع جمّ غفير من عرب الجزيرة، وغدا ضيفًا كريمًا في بيوتات القبائل، وكانت تلك بوابّة نفذوا منها إليه ليتعلموا منه أمور دينهم عن كثب، وبهذا كان كلّ من هذه القبائل يشعر ويفخر بقربه منه ﷺ، وهذا ما شعر به مثلًا بنو مخزوم قبيلة أُمِّنا أم سلمة ﵂ وبنو أميّة قبيلة أمّنا أم حبيبة ﵂.

٣- ما سبق عامّ وبعضُه يشمل سائر الأنبياء، وإليكم ظروف زواجه بأمّهات المؤمنين واحدة واحدة:

أجل، سنرى هنا أنَّ منطق البشر سيهون كالتراب عند هذه الشخصية السامقة المؤيدة بالوحي، وأن عقل البشر سيركع أمام هذه الفطانة العظمى.

أ- السيدة خديجة بنت خويلد ﵂ هي زوجته الأولى، أكبر منه بخمسة عشر عامًا، كان هذا مثالًا نادرًا وأسوةً لكل زواج، بقي ﷺ وفيًّا صادقًا معها طوال حياتها، ولطالما كان يذكرها بالخير والمودّة بعد وفاتها.

ولما توفيت بقي بعدها زمنًا بلا زواج، رغم أن له منها أيتامًا، تحمّل مؤونتهن ورعايتهن، وأصبح لهن الأب والأمّ، هب أنّا فرضنا المستحيل أَفهذا هو سلوك من هو مغرَمٌ بالنساء؟

ب- زوجته الثانية -ولا نلتزم بالتسلسل- هي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق أقربِ مَن صحبه ونصرَه وكابد معه ﵂. كان زواجه ﷺ من بنته أثمن هدية منه إليه ﵂، فسيحظى بهذا الزواج شرفَ القرابة الباقية يوم ينقطع كل نسب وسبب وصِهر إلا نسبَه وسببَه وصِهرَه ﷺ.

أجل، لقد أصبحت عائشة الصدِّيقة وأبو بكر الصدّيق ﵂ وجهًا ناصعًا لقرابةٍ نبوية قرّبت بينهما وبين الرسول ﷺ حسًّا ومعنًى.

أوتيت ﵂ ذكاءً نادرًا وفطرةً خالصةً، فهي مهيَّأة فطريًّا لترث الدعوة النبوية، وقد برهنت حياتها بعد زواجها من الرسول ومسيرتها الدعويّة بعد وفاته ﷺ أنها حقًّا أهلٌ لأن تكون زوجًا للرسول دون من سواه، فتجدها محدِّثةً عظيمة حينًا، ومفسرةً كبيرةً أو فقيهةً جليلة القدر حينًا آخر، فهي بفهمها وفقهها النادر تمثِّل الرسالة الأحمدية ظاهرًا وباطنًا، وهذا يفسِّر رؤيَا زواجه بها ﷺ، فما شعرت نفسها قبل أن يُعَكَّر صفو فطرتها إلا وهي في بيت النبوة.

نال أبو بكر الصديق ﵁ بهذه المصاهرة منزلةً شريفةً رفيعةً، أمَّا هي ﵂ فوجدتها فرصةً للتدريب والتأهيل لتطوّرِ قابلياتها واستعداداتها فتصبح في طليعة طلاب الرسول ﷺ، ثم تغدو في عالم النساء أكبر مرشدة مبلِّغة، فهي في بيت النبوة زوجة وطالبة.

ج- الزوجة الثالثة -ولا نلتزم بالتسلسل- هي أم سلمة المخزوميّة ﵂، من أوائل من أسلم من النساء، ولما اشتدّ الأمر على المسلمين بمكة هاجرت إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وكانت في طليعة الصفوف آنذاك.

تحمَّلت مع زوجها أبي سلمة المشاقَّ في هذه الرحلات المُضْنِية، وكان أبو سلمة ليس كمثله إنسان في عينها، كابد معها ما في مراحل الدعوة من آلام ومشاقّ، وتُوفِّي عنها في المدينة المنورة ولها منه خمسة أطفال، أشفق الشيخانِ على أرملة وحيدة تعيش الضيق والضَّنك مع أطفالها، فسارعا إلى خِطبتها، فأبَت؛ فما من أحدٍ يقوم عندها مقام زوجها أبي سلمة، ثم خطبها رسول الله ﷺ، حيث إن امرأة فاضلة نسيبة من أشرف القبائل ضحَّت بكلِّ شيء في سبيل دينها بلا تردّد، ما كان لها أن تُترك بلا راعٍ، بل لا بُدَّ من الأخذ بيدها، فخطبته ﷺ لها عون وغَوث. أجل، فالرسولُ ﷺ منذ شبابِه كان يساعد اليتيم وذا الفاقة والحاجة، فزواجه منها يحقق تلك الغاية وَفقًا لظروف ذلك العهد.

أمُّ سلمة كعائشة أوتيتْ ذكاءً وفطنة، وهي مؤهلة لمقام المرشدة المبلِّغة، فامتدَّت إليها يد الشفقة والرحمة لتعتني بها، وقُبِلتْ طالبةً في مدرسة العلم والإرشاد ليشكرها عالَم النساء، وإلا فما تفسير زواجه ﷺ في الستين من عمره بأرملة ولها خمسة أطفال أخذ على عاتقه عبء رعايتهم، فهيهات هيهات أن يَجُوز عقلًا تفسيرُه بالشهوة.

د- ومن أزواجه أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان ﵂، بنتُ رجل كان قبل أن يسلم رمزًا للكفر ضد الرسول ورسالته. وهي مِن أوائل مَنْ أسلم، وفي طليعة المسلمين، هاجرَتْ إلى الحبشة إِثْرَ الضيق والضَّنْك، فأغمَّها تنصّرُ زوجِها هناك ثم وفاته، فهي امرأة حلَّ بها ما حلّ من المصائب والنكبات، وكان الصحابة حينئذ قلّة فقراء ومعظمهم يعاني

من شـظف العيـش، فماذا بوسـع أمّ حبيبة أن تفعل وتتصـرّف؟ أفتنتصر ليغيثها النصارى أم تعود إلى وكر الكفر في بيت والدها أم تستجدي هذا وذاك؟ مـا كان لسـيدةٍ فاضلةٍ تقيّةٍ نسـيبةٍ من أنبل البيـوت وأغنى العوائل أن تسـلُكَ أيًّا من تلك السـبل، فلا شـيء يسـعف أمرها ويطبّب سِـقامها سـوى أن تمتدّ إليها يدُ الرسـولِ ﷺ، فتزوّج ﷺ أم حبيبة التي ضحّت أيّما تضحية في سـبيل دينها، فاغتربت عن وطنها وباتت حائرةً في أمرها بين الحبـش ومفجوعـة بـردّة زوجها ثـم وفاتـه؛ أفيُنتقد زواجٌ كهـذا أم يُعزَّز وينتصَر له بوصفه رمزًا للشـفقة ممن أُرسـلَ رحمةً للعالمين؟

وبالإضافة إلى هذا فهي -كغيرها من أمّهات المؤمنين- كان بوسـعها تقديمُ شيءٍ كثيرٍ للمسلمين والمسلمات من العلم والعرفان، فقُبِلتْ زوجةً وطالبةً في بيت النبوة.

وأتـاح هذا الزواجُ لأبي سـفيان وعائلتِـه زيارةَ بيت النبـوّة بلا حَرَج، وتبدّلـتْ نظرتُهم وخَفَّ غَلْواءُ عداوتهم للإسـلام، بل إنّ الأمويين جميعًا تأثّروا بذلك، وكانت في تلك العائلة عصبية مقيتة وعنف على المسـلمين وشدّة، فلانت عريكتها وغدت مهيَّأةً لقبول كلِّ خير.

هـ- زينـب بنت جحـش ﵂ واحـدة ممـن آواهـنّ إليه بيـت النبوة السـعيد، نسـيبة شـريفة مرهفة الحسّ والمشـاعر جدًّا، تجمعها بسـلطان الأنبياء ﷺ قرابة، نشأت قرب رسول الله ﷺ، وعندما خطبها لزيد ﵁ تردّد أهلهـا بادئ الأمر، وعرَّضـوا برغبتهم فيه ﷺ، فلمّا رأوا عزيمته ﷺ رضوا بزيد بن حارثة ﵁.

كان زيـدٌ رقيقًـا فـي يـومٍ من الأيـام أي كان فـي جملة العبيـد فأعتقه الرسـول ﷺ، وكان إصرار الرسـول ﷺ على هذا الزواج لتأسيس المساواة بين الناس وترسـيخها، واتَّخذ من أقاربه جسـرًا لبلوغ هذا الأمر الشـاقّ،

ولكن سيدتنا زينب كانت ذات فطرة سامقة ولم يكن هذا الزواج عندها سوى طاعة أمر، فلم يكن يبدو أن هذا الزواج يعمر طويلًا، وما عاد على زيد بشيء سوى العذاب والألم.

وأخيرًا عرَضت مسألة الطلاق، وبينما الرسول ﷺ يسعى ليدوم الزواج، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الزواج منها، إنّه ابتلاء عسير مرير، إذ إنَّ عليه أن يفعل ما لم يفعله الأقدمون، أي إنَّ عليه أن يعلن الحرب على العادات القديمة والتقاليد المستعصية، وهذا نضال عسير، ولولا أنه أمر الله لما كان له أن يتمّ، فقام تملؤه مشاعر الاستغراق في العبودية ليمتثل أمرًا ما أشقَّه على العفيف الطيّب، قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: ''وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٣٧)''[٣٨]. أجل، لقد شقّ عليه هذا الزواج كلّ تلك المشقّة.

أما الحكمة الإلهية فأرادت أن تُدخِل هذه السيدة الطاهرة الجليلة القدْر إلى بيت النبوة لتتسلح بالعلم والعرفان، وتؤدي وظيفتها في الإرشاد والتبليغ، وهذا ما كان، فبعدها تجلَّى في حياتها كلّها دقّ الأمور وجلّها مما ينبغي أن تكون عليه أمّهات المؤمنين.

كان أهل الجاهلية يعدّون الابن بالتبني ابنًا حقيقةً، وزوجتَه زوجةَ الابن؛ فلما أراد الله إبطال هذه العادة الجاهلية بدأ بنبيّه ﷺ أوَّلًا؛ فإذا قلتَ لشخصٍ: يا بُني، فليس معناه أنه ابنك حقيقةً ولا زوجته زوجة ابنك.

وزواجه ﷺ بزينب رضي الله عنها فيه قضايا كثيرة يمكن ذكرها، ونكتفي بهذا لئلّا يتجاوز موضوع إجابة لسؤال حده، آملًا تناوله في شكل مستقل ومفصل.

(٣٨) البخاري: التوحيد، ٢٢؛ مسلم: الإيمان، ٢٨٨.

و- من اللائي تشرفن بالانتساب إلى بيت النبوة جويرية بنت الحارث ﵂، أُسِرَت يوم أن غزا المسلمون قبيلتها المشركة، نال كبرياءَها وعزةَ نفسها ما نالهما، فهي نسيبة من أشراف قبيلتها، ويوم أن جيء بها إلى الرسول ﷺ كانت قد امتلأت غيظًا وعداوةً للمسلمين، وحلَّ صاحبُ الفطنة العظمى ﷺ تلك العقدة بأيسرَ من شرب كوب ماء بارد.

عقد الرسول ﷺ على جويرية ﵂ فحازت مقام أم المؤمنين، ومكانةً قدسيّةً لدى الصحابة، وأُشرِب قلبها وأفئدة قبيلتها بحب الإسلام لما أرسل الصحابة ما في أيديهم من سبي قبيلتها فأعتقوهم بعد أن بلغهم زواج رسول الله ﷺ منها قائلين: "أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"(٣٩).

كان زواجه ﷺ هذا وقد ناهز الستين عامًا حلًّا لمعضلات كثيرة برمية واحدة، فعمّت وسادت نسائم الصلح والسِّلم أجواء كانت مشحونةً بالقتال.

ز- السيدة صفية بنت حُيَيّ ﵂ ممن حظينَ بهذا الشرف، كانت بنتَ رأس يهود خيبر، قُتِل أبوها وأخوها وزوجها في معركة خيبر وأُسرت قبيلتها، كاد قلبها يشتعل حقدًا طلبًا للثأر، فلما تزوجها الرسول ﷺ إذا بها تغدو أمّ المؤمنين، وتسمع الصحابة ينادونها: يا أمَّنا... يا أمَّنا، فبخلقه العظيم ﷺ صارت ترى فخرها الأعظم أنها زوجته ﷺ، فانطفأت الأحقاد وتلاشت رغبة الثأر، وأصبحت جسرًا يصل كثيرًا من اليهود بالرسول ﷺ ليعرفوه عن كَثَب، فلانت قلوبهم، فالله الذي يخلق من شيء واحد أشياء كثيرةً، ولِفِعاله حِكَم لا تُحصَى، قد جعل في هذا الزواج خيرًا كثيرًا وبركة.

إنني أرى من الصواب أن نقول: بهذا الزواج لقّن رسول الله ﷺ أمّتَه درسًا في كشف سرائر الأعداء وخباياهم؛ أجل، ففي زواج نساء من الأمم الأخرى فائدة جليلة في النفوذ إلى سرائر هذه الأمم ومكاشفتها، بشرط صون أسرارنا لئلا تُفشَى للأعداء.

(٣٩) أبو داود: كتاب العتق، ٢؛ المستدرك للحاكم: ٢٨/٤.

ح- أمّ المؤمنين سودة ﵂ كانت ممن حظين بهذا الشرف أيضًا، وهي من طليعة المسلمين، ومن المهاجرين إلى الحبشة مع زوجها، فلما توفي وجدت نفسها وحيدةً مثل سيدتنا أمّ حبيبة، فواساها الرسول ﷺ وسلَّها من بؤسِ الوحدة وصارَ لها أنيسًا، ولا رغبة لهذه السيدة العظيمة من الدنيا إلا الموت وهي زوجة لرسول الله ﷺ.

قس على ذلك بقية أزواجه ﷺ... كما ظهر أن لزواج الرسول ﷺ حِكَمًا ومصالحَ كثيرةً، وليس للنوازع النفسانية فيه يد. فمن حِكمه عقد أواصر قربى مع اثنين أصبَحَا من الخلفاء الراشدين، وكذا ما تتمتع به أزواجه من أهليّة وقابليّة، وتزوج -كما رأينا- لحِكَم ومصالح أخرى فتحمَّل أعباءً كبيرةً.

انظر جهده وعدله ﷺ في نفقته على هذا العدد من النساء من مسكن وملبس ومأكل ومشرب، وانظر دقته في معاملتهنّ الخاصّة ورعايته لهذا بحزمٍ وكمالَ عدله فيه، وسدَّه لِما قد يطرأ من مشكلات بينهن، وحلَّه ما وقعٍ منها بكل سهولة؛ كل هذا دليل على أنه نبي، وكما قال جورج برنارد شو: ''إنه ﷺ لو كان الآن بيننا لحلَّ مشاكل العالم كلّه بسهولة كما يحتسي كوبًا من الشاي''.

ونحن نعلم علم اليقين مشقة تحمّل أسرة من زوجة وولد أو ولدين؛ فعلينا أن ننحني إجلالًا لهذا النبيّ العظيم ﷺ فهو يدير بنجاح لا نظير له وبتناغم ووئام كبير بيتًا فيه زوجات من بيئات ومشارب وثقافات أسرية متنوّعة.

أمَّا أنّ عدد أزواجه ﷺ أكثرُ من العدد المباح لأمته فهو تشريع خاص. أجل، إنه تشريع خاص قد نعلم أو لا نعلم كثيرًا من حِكَمه ومنافعه، فقد أُذِن له أوَّلًا بالزواج بلا عدد، ثم حُدَّ ذلك بحدود فلم يحلّ له الزواج من بعد.

عذرًا، فقد أطلتُ، ولكنها ضرورة، فالموضوع ذو أهميّة.

ضرب المرأة

سؤال: كيف تفهمون توصية الرسول ﷺ بضرب النساء؟

الجواب: لم ترد من الرسول ﷺ توصيةً بضرب النساء. فالكل يعلم ما قاله في حجة الوداع. ولكن السؤال متعلق بما ورد في آية ﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤). وهذه الآية توصي الرجال بما يأتي:

أولًا: أول ما يفعله الرجال تجاه النساء الناشزات الخارجات عن الطاعة والمتصرفات بخشونة ورعونة هو القيام بنصحهن. ما دام النساء يعشن معكم ويقمن بإنجاز ما تريدونه منهن، ويُدِمْن نسلكم، إذًا عليكم أن تكونوا مرشدين لهن. تقومون بإزجاء النصح لهن ومحاولة الارتفاع بهن إلى المستوى الإنساني اللائق بهن. قد يكون فيهن بعض الضعف وبعض الميول التي لا تعجبكم، عند ذلك عليكم أن تساعدوهن وتوضحوا لهن طريق الاستقامة. قد يحاولن استعمال فِتْنتهن، ولكن وظيفتكم الأولى هي إيصالهن إلى مستوى الشعور برقابة الله تعالى. وهذا هو باختصار معنى ﴿**فعِظوهنّ**﴾.

ثانيًا: إنّ غُرف النوم هي الأماكن التي قد تستغلّها المرأة لإحكام نفوذها وسيطرتها على الرجل. فإن وُفّقت المرأة ووصلت إلى بُغيتها هذه في غرفة النوم، واستعبدت الرجل فيها، لم يستطع ذلك الرجل تَوقّعَ

أي طاعة أو استجابة منها في الأمور الأخرى. فإن استطاع الرجل استعمال إرادته وعدم الاستسلام والإذعان في هذه الساحة التي تعد ساحتها وعدم الوقوع في قبضتها هناك، سهُل عليه قيادة المرأة من الناحية النفسية. ولكن عليه أن يفعل ذلك دون تجاوز حدود الأدب، وفي ظل من الكتمان، بحيث لا يشعر به أحد في البيت أو في خارجه. وهذا أمر حسّاس، لذا يجب عدم سلوك طريق الإفراط أو التفريط، بل المحافظة دائمًا على التوازن حتى يمكن الوصول إلى نتيجة مرضية من كلا الطرفَين.

ويجب على الرجل ألَّا يترك غرفة النوم، وألا ينام في فراش آخر، بل يكتفي بإدارة ظهره لها حيث تتجلى هناك درايته في استعمال إرادته. وهكذا يستعمل الرجل سلاحها نفسه تجاهها ويغلبها به ولا يدَع لها فرصة استغلال سلاحها. وتجاه مظاهر أنانيتها تظهر شخصيته ويقول ''أنا لن أذوب أمامكِ''.

غير أننا يجب أن نذكّر هنا بأن الآيات عندما تذكر هذه الخطوات تذكرها ضمن ترتيب وتسلسل معيّن. ومع أن أبا حنيفة يرى أن ''الواو'' هو للجمع المطلق إلا أن الجمهور يرى أن هذا الحرف يفيد التتابع والترتيب، أي يجب أن يتم النصح أولًا، فإن لم يُفِد النُصحُ شيئًا هجَرها في المضجع. فهذا هو ما نفهمه من ﴿**وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ**﴾.

ثالثًا: قد لا يفيد كل ما جاء أعلاه، بل تستمر المرأة في نشوزها وعنادها، وهنا أي في المرحلة الثالثة يعطى للرجل حق ضرب المرأة، ولكن ضمن تحديدات معيّنة، إذ لا يجوز أن يسبب الضرب أي أذى كبير للمرأة، وهذا هو مفهوم ﴿**وَاضْرِبُوهُنَّ**﴾.

إذًا يجب أن ننظر إلى الموضوع آخذين بنظر الاعتبار هذه المراحل أو الخطوات الثلاث. وإنّ إهمالها وتركيز النظر على الضرب فقط

-سواء تأييدًا أو معارضةً له- أمر بعيد عن التوازن، لأن الضرب ليس أساسًا وقاعدةً مقررة. فقد قال رسول الله ﷺ: "**لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ**" فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذَئِرْنَ النساء على أزواجهن. فرخّص في ضربهن. وبعد مدة امتلأ بيت الرسول ﷺ بالنساء الشاكيات من ضرب أزواجهن، وقامت زوجات الرسول ﷺ الطاهرات بإخباره بالأمر، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وجمع الصحابة وقال ﷺ: "**لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ**"(٤٠).

وهكذا حسم الموضوع، أي عندما أعطى الرخصة في البداية مهّد الطريق للشكوى، وعندما جاءته الشكاوى منَع الضرب. فهناك أحاديث كثيرة حول عدم الضرب تفصل ما أجملته الآية. فمثلًا: انتقد الرسول ﷺ تصرف الرجال الذين يضربون نساءهم ثم يقعون عليهن في الليل كالبهائم فقال ﷺ: "**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ**"(٤١). كأن رسول الله ﷺ يقول: "أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبدَ؟! يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره".

إن الضرب هو العلاج الأخير وعندما لا يبقى هناك طريق آخر، أي عندما لا تفيد الخطوة الأولى ولا الثانية. فهو علاج استثنائي ولا يطبَّق إلا على من كانت فطرتها وطباعها لا تستقيم إلا بالضرب. ويجب ألا يكون الضرب مؤذيًا أذًى بالغًا لها، لأن الرسول ﷺ يقول: "**إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَّقِ الْوَجْهَ**"(٤٢). الوجه أفضل مرآة لتمثيل رحمانية الله تعالى، ففيه ملامح تمثل هذا المعنى، لذا يجب عدم الضرب على الوجه. والحقيقة أن الغاية من الضرب هي إثارة كبريائها وكرامتها وتحريكهما.

(٤٠) أبو داود: النكاح، ٤٣.

(٤١) البخاري: تفسير سورة الشَّمس، ١.

(٤٢) أبو داود: الحدود، ٤٠.

لذا يجب استعمال أصغر ما يمكن استعماله لهذا الغرَض. لا أزال أذكر الآن-على رغم سنين طويلة مضت- كيف أمسكت معلمة الابتدائية بأذني قائلةً: ''وأنت كذلك؟!''، كلما تذكرت هذا المشهد تذكرت تلك النصيحة والأثر النفسي الذي تركه هذا التنبيه في ضميري.

قلنا إن الضرب هو آخر طريقة للعلاج يُستعان به في إصلاح المرأة، وأنه يجب ألا يؤذيها. وهنا علينا أن نذكر أن الرجال سيكونون مسؤولين أمام الله إن قاموا بالضرب المبرح أو استعملوا الضرب في غير نية الإصلاح.

فكما نستعمل سبيل النصيحة لها ونأمل أن نصلحها ونقومها بالنصيحة والكلام الجميل، وكما نستعمل أسلوب الهجر في الفراش دون أن نجرح كرامتها بل نفكر فقط في إصلاحها، كذلك إن كان الضرب الخفيف يؤدي إلى صلاحها استعملناه. ولكن ليس معنى هذا أن نقوم بضربها كما يُضرب الحيوان إن عصَتْ أو نشزتْ، فهذا أسلوب فظ وجاهليّ ولا هدَف له، وهو يضع الإنسان أمام مسؤولية كبيرة بين يدي الله تعالى. وهذا شيء وارد بالنسبة لجميع أشكال التربية. فالمعلم ليس له ضرب تلميذه خارج إطار التأديب والإصلاح، وإلا كان مسؤولًا.

والآن أتساءل، بأي عقل وبأي منطق يمكن أن نعارض الضرب الذي يأتي في المرحلة الأخيرة وبعد تجربة جميع وسائل النصح والإرشاد والهجر وفشلها؟ ولنفرض أن الضرب أدى إلى صلاح امرأة واحدة من بين كل مائة امرأة، فلماذا يقوم الدين الإسلامي بسد الطريق أمام هذا الإصلاح؟ فهذه طريقة للتربية والإصلاح. وعندما أذن الرسول ﷺ بالضرب أذن في ضمن هذا الإطار، وعندما منع الضرب كان يمنع الضرب المبرح والقاسي، ويحفظ المرأة من مشاعر الحقد والانتقام.

وقد يخطر على البال في هذا الخصوص سؤال: إذا كان يحق للرجل ضرب المرأة الناشزة المعاندة، فلماذا لا يحق للمرأة ضرب الرجل الناشز والمعاند؟

يقول الله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤) ومناط القوامة: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤). فالرجل يفضُل المرأة في نواح عديدة. ولكن يجب تقييم هذا التفاضل والنظر إليه كالتفاضل الموجود بين أعضاء الجسم الواحد. فإذا كان الرجل مثلًا في موقع العين، كانت المرأة في موقع الأذن. وإذا كان الرجل في مرتبة الدماغ، كانت المرأة في مرتبة القلب، أي هناك رابطة وثيقة بينهما. فالقلب يضخ الدم ليعيش الدماغ، وإذا حدث نزيف في الدماغ مات القلب. فحياة كِلا العضوَين متداخلة، وهما يشكّلان عضوين مختلفين ولكن لجسد واحد. ومع هذا فإننا لا نستطيع إنكار تفوق الرجل على المرأة إن نظرنا إلى الموضوع نظرةً كلّيةً وشاملةً. الرجل يقضي عامَه كاملًا في فعّالية ونشاط، ويقوم أحيانًا بأشقّ الأعمال، وهو أقوى من المرأة من الناحية الجسَدية والنفْسية، وتُسند أشقّ الأعمال إلى الرجل حتى في الغرب، فعُمّال المناجم من الرجال على الدوام.

أما المرأة فهي تحيض -بحكم طبيعة تكوينها- أيامًا كل شهر، وفي حالة النفاس تبقى ملازمةً للفراش ما يقارب شهرًا ونصف شهر، وهي أضعف من ناحية القوة الجِسْمية وقوة الإرادة، ولا تستطيع حضور جميع المحافل الاجتماعية في جميع الأوقات، وعندما تفقد أثمن كنوزها لا تستطيع النظر إلى وجوه الناس في المجتمع، لذا كان عليها أن تتصرف بحذَر شديد، ولا يجوز لها الخروج إلى سفر طويل وبعيد دون مُصاحبة محرم لها.

فـإذا أخذنـا كل هذه الأمور بنظر الاعتبار وأمـورًا أخرى كذلك لم نر حاجةً لذِكرها ويعلمها الجميـع، ظهرت لنا حقيقة تفوق الرجل على المرأة بشكل لا يمكن إنكاره. ومـع ذلك فإن من نافلة القول أن المجتمـع يحتاج إليهما معًا. المرأة تسـبق الرجل في حدسـها وشفقتها وحنانها، لذا وُكلت إليهـا رعاية الأطفال؛ والأب لا يسـتطيـع القيام بهـذا، ولكنه أقوى تحمّلًا ضد الضغوط الخارجية للأحداث، لأنه مؤهَّل للقيام بأشقّ الأعمال.

عندما يبدأ الطفل بالبكاء في الليل قد يضطر الأب إلى ترك غرفة النوم إلـى غرفة أخرى، ولكن الأم تُسـرع إلـى غرفة الطفل، وقد تبقى معه حتى الصبـاح، لأنهـا تحمـل حنانًا لا يوصـف نحو طفلها. وقد اشـتهرت قصة رمزية بأن أحد الأولاد ذبح أمَّه وقطعها أوصالًا، وعندما بدأ بتقطيـع قلبها جرح يده فصرخ دون إرادة ''آه يا أمي!'' فتكلم قلب الأم ''لبيك يا بني!''. طبعًـا هذه قصـة رمزية ولكنها عظيمة الدلالة على حنان الأم. ولا يَشُـكَّنّ أحد أنه إن ظهر مثل هذا الوحش وظلَم أمه ثم تورط في مشكلة، فإن أمه ستكون أول من تبادر إلى نجدته والوقوف إلى جانبه، أي أن المرأة تسبق الرجـل فـي هذا المجال العاطفي. وإذا تم هذا السـبق في مكانه الصحيح يكون وسيلةً لخير كثير.

المـرأة هـي التي تربّـي النشء الجديـد، فبتربية وتعليـم جيدين ترفـع هـذا النشء إلى أوج الإنسـانية. والرجل يقضي أكثـر أوقاته خارج البيت. أمـا المـرأة فهـي في البيت منـذ الصباح وحتى المسـاء مشـغولة بأطفالها وتربيتهـم التربيـة الصحيحـة. والأمهـات هن مربّيـات الأبطـال والرجال العظـام ومفاخـر الإنسـانية. فـإن قامـت المـرأة بالعمـل ضمـن المجـال الذي تظهر فيه ميزاتها وقابلياتها، وقام الرجل بالعمل ضمن ساحة قابلياته كانت الأسرة جنةً من جنان النعيم.

الرجـل بـلا امرأة ناقص، والمـرأة بلا رجل ناقصة. لـذا فإنه ما إن تم خلـق آدم عليه السلام فـي الجنة التي تحتوي كل شـيء بأكمل وجه حتى خلقت لـه أُمّنـا حوّاء. ولو كانت حـواء أول الخلق لَخُلق لهـا آدم، لأنه لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر. تقوم المرأة بتدبير الشؤون الداخلية للبيت، والرجل يقوم بالشـؤون الخارجيـة. وإذا كان لعمل الرجل جوانبه الصعبة فيجب أن نقول الشـيء نفسـه بالنسـبة لعمـل المرأة. ولكـن قوامة الرجل فـي البيت المسـتندة إلى قاعـدة "الغُنْم بالغُرْم" تضـع على كاهل الرجل مسـؤولية ثقيلة أخرى. لذا كان الإنفاق على المرأة وعلى الأولاد وتحمل جميـع مصاريف البيت ضمن واجبات الرجل ومسؤولياته.

إن حقـوق المـرأة المقدمـة مـن قِبَـل النِّسـائية (*Feminists*) لا تفيـد إلا فـي الهبـوط بمنزلـة المرأة من مكانها السـامي وإهانتهـا وجعلها تحت الأقدام. واسترجال المرأة عملية حمقاء تشبه التجول عاريًا في الشتاء ولبس المعاطف في الصيف. فالمرأة عزيزة ما بقيت في موقعها الصحيح، والرجل يستحق الاحترام ما بقي داخل حدوده ولم يتجاوزها. والذين يريدون تبديل مواقعهم يتعرضون إلى لعنة الرسول ﷺ، لأنهم يصادمون الفطرة. فالفوضى التي تحصل في الجسم عندما تتغير أماكن أعضائه، فتكون الأذن على الركبة والأنف في وسـط البطن والعين تحت الرِّجْل.. مثل هذه الفوضى تحصل عندما يستبدل الرجل والمرأة مكانيهما. فالمرأة يجب أن تبقى امرأة، والرجل يجب أن يبقى رجلًا. فهذا هو حكم الفطرة، والذين يبذلون جهودهم لتبديل هذه المواقـع إنما يحاربون الفطرة وطبيعة الأشياء.

الحاجة إلى الدِّين

سـؤال: **يقال إن الإنسان عندما لم يستطع إيضاح وتفسير بعض الظواهـر الطبيعية اخترع فكرة الدين. فهل تقدُّم المدنية يزيل الحاجة إلى الدين؟**

الجـواب: يدّعي أعداءُ الديـن بأن المفاهيم الدينيـة اختُرعتْ من قبَل الإنسان نتيجة لشعوره بالعجز أو إظهارًا لامتنانه. وخلاصة ما يذكرونه هي:

هناك حوادث تقع في الكون لا نعرف ماهيتها ولا نستطيع تفسيرها بالقوانيـن الفيزيائيـة والكيميائية. فلِكي يحلّ الإنسـان هذه المعضلة أسند هـذه الحـوادث -كما فعل فـي الماضي أيضًـا- إلى خالـق. كذلك أضاف الإنسان قدسية إلى بعض الحيوانات المفيدة له، ثم تطور هذا فأسبغ عليها صفة الألوهية. وكون نهر "الجانج" مقدسًا لدى الهنود ونهر "النيل" مقدسًا لدى المصريين القدماء، وإضفاء القدسية على البقَر في الهند...إلخ، يرجع كلـه إلـى ارتباطه بمنفعة الإنسـان. ولم يكن موقف الإنسـان تجاه الخوف يختلف عن هذا، فخوفه الكبير أو رعبه من بعض الأشياء ساقه إلى تقديسها لكي يصل إلى الأمان منها. وفي بعض الأديان إلهان، إله للخير وإله للشرّ، أي قُسـم الحـب والخـوف بين هذيـن الإلهين، وفكـرة الجنـة والنار تنبع من هذا الأساس. والدين في الأصل -بزعْمهم- تسرية وسلوان بُرجُوازيّ، وهو شـيء مخترع من قبل رجال الدين، وأفيون للشـعوب وللجماهير التي يقوم بتخديرهم... إلى آخر هذه الادعاءات والمزاعم.

فهل الدين كما يقول هؤلاء شيء مخترع فيما بعد لشرح الأمور الغامضة أو ليكون ملجأً وتسريةً وسلوانًا؟ كلَّا، على الإطلاق! فـ"الدين" كلمة عربية، تدل على عدة معانٍ منها الجزاء والطريق. وقد وجدت هذه المفاهيم في تعريف الدين، فهو طريق وصراط، وفيه طاعة الله تعالى، وفيه أيضًا المكافأة لمن أطاع والعِقاب لمن عصى.

أما التعريف الشرعي له فهو "وضعٌ إلهيّ سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات"[٤٣]. يخاطب الدينُ أصحابَ العقول، وهكذا يكون الإنسان قد قام بأعمال الطاعة بإرادته. فالدين يعطي الإرادة حقها ولا يشلها. والطريق الذي يوجه إليه الدين هو طريق للخير المطلق، وليس الخير الذي يراه هذا أو ذاك، بل للخير الحقيقي نفسه.

يقوم الدين بهذا التوجيه من ناحية العقيدة أولًا؛ فقد يستطيع الإنسان بعقله التوصل إلى وجود خالق لهذا الكون. ولكن الإيمان على النحو الصحيح وبالمستوى اليقيني يأتي بعد أن يستمع إلى صوت النبوة الهادر وهو ينعكس على وجدانه الذي خُلق مستعدًّا ومتهيئًا للاستجابة إلى هذا الصوت الذاكر لله. ثم إن النبي عندما يأتي، يأتي مجهَّزا بالأدلة التي تثبت أنه مُرسل من عند الله تعالى. فإذا كان هذا النبي مرسلًا بكتاب معجِز يستمرّ إعجازه إلى يوم القيامة، إلى جانب العديد من المعجزات المؤيِّدة له، فهل يبقى بعد ذلك مجال للشك أو الشبهة؟. إن الإنسان يتمكن آنذاك أن يعرف كيف يؤمن بالآخرة وبالقدَر والأمور الأخرى التي يجب الإيمان بها، كما يقوم النبي بشرح وإيضاح ما غمض من هذه الأمور.

وتقوم العبادة بحفظ هذا الإيمان نضرًا في القلوب، لا يذبل ولا يتفسخ ولا تصيبه الشيخوخة والبِلَى. فالإيمان بلا عبادة يفقد نوره

(٤٣) التعاريف للمناوي: ص: ٣٤٤.

ورَونَقه وشَوقه وعِشقه، فلا يبقى للشخص منه سوى الفخر بعظمائه السابقين المدفونين تحت طبقات التراب. فتراه يذكر دائمًا مناقبهم وأنهم كانوا علماء صالحين وشيوخًا عظماء. لا شك أن ذكرهم بالخير شيء حسن، ولا سيما في هذه الأيام التي كثر فيها توجيه الشتائم إلى الأجداد، إلا أن هذا لا يكفي ولا يضمن للإيمان الاستمرارَ والدوام.

والصلوات الخمس التي نسعى فيها للمثول بين يدي الله تعالى تُجدّد إيماننا، كما تجدد عهدنا الذي عقدناه مع الله وتقوّيه، ولكن بشرط أن نستشعر آيات القرآن عند تلاوتها والتسابيح عند قراءتها في كل ركن من أركان الصلاة. وإذا تسرّبت الإلفة إليها وأدت إلى ذبولها وأفقدتها روحها، فإن هذه الصلاة لن تعني سوى إسقاط للفرض فقط، دون أن نحصل من ورائها على الفيوضات المرتقبة.

لذا نرى أحد الروحانيين العظماء عندما يصل ذات مرة في سجوده إلى حال يستشعر فيها حلاوة الصلاة يقول "ليتني أستطيع أن أصلي صلاة مثل تلك الصلاة مرة أخرى" ويُضيف بعدها "لقد كانت صلوات الصحابة كلها مثل تلك الصلاة". فقد كان كل ركن من أركانها يحمل إليهم رسالة جديدة من الله تعالى. أما الإلفة فلم تكن تجد لها مكانًا في صلاتهم، كما كانت عباداتهم الأخرى تتم في نفس الحالة الروحية الرفيعة. لذلك يجب على من يحج البيت أو يؤدي الزكاة أو يصوم أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينهل من هذه العبادات قوةً معنويةً دافعةً ومحركةً ومقويةً لإيمانه.

الجانب الآخر من الدين متوجه نحو المعاملات. فيجب أن تنظم فعاليات المؤمن الاقتصادية حسب مرضاة الله تعالى، أي لا بد أن يكون القرآن والسنة المقياس في تحديد مبادئ التجارة وأسسها. وهذا من شأنه

أن يكـون قـوةً دافعةً للإيمـان، لأن الالتزام بهذه المبـادئ يتم بقهر النفس ورغباتها والاستسلام لإرادة الله تعالى وأوامره.

لنفـرض أن مؤمنًـا يريـد بيـع بضاعة ما، فعليـه بيان العيـب إن وجد فـي بضاعتـه، ولكن يعـرف أنه إذا ذكر العيب فسـيقلّ ربْحُه أو سيَخسـر، وعلـى الرغـم من ذلك سـيحسّ بانشـراح في قلبـه لأنه أطـاع الله تعالى. وعندما يقف بين يدي ربه في الصلاة سـيكون انشـراحه القلبيّ هذا عاملًا إيجابيًـا في حصولـه على فيض معنوي من الصلاة، وهكـذا يتجدد إيمانُه ويزيد نضرةً. هذه هي الوسائل التي توصلنا إلى مرضاته تعالى.

وقـد أمرَنـا الله ﷻ بابتغـاء الوسـيلة إليـه، وأكّـد النبـي ﷺ أهميتهـا في قصة الثلاثة الذين حُبسوا في المغارة وذكروا أعمالهم الصالحة متوسلين بهـا لنجاتهـم منهـا. فكان أحدهـم بَرًّا بوالديـه، والآخر عفيفًـا في موقف حـرج للغايـة، والثالـث مراعيًا للحق أشـد رعايـة. وقد تضرعـوا إلى الله أن يقبـل أعمالهـم الصالحـة هـذه وسـيلةً لنجاتهـم. فأنجاهـم الله فعـلًا وتدحرجـت الصخـرة الضخمـة التـي سـدّت بـاب المغـارة فخرجـوا سالمين(٤٤). ومن الأهمية بمكان أن يتشبه المسلم بأخلاق الرسول ﷺ قدْر طاقته، ويتتبّـع سـلوكه وتصرفاته في كل شـيء، في مأكله ومشـربه وقيامه وقعوده ومنامه وعبوديته.

وإذا كان الله تعالـى قـد حرم الربا، فيجب علينا الابتعاد عنه والهروب منه حتى ولو أعطَونا بكل قرش ألفًا، والقيام بالتصرف نفسه حيال جميع الآثام صغيرها وكبيرها، لأنها ستعود إلينا يوم القيامة كشعلة نار متّقدة.

مـا نسـتخلصه مـن كل هذا هـو أن الديـن كلٌّ كامل لا يقبـل التجزؤ والانقسـام، أو بعبـارة أخـرى إن ما يقبل الانقسـام والتجـزؤ لا يُعد دينًا.

(٤٤) انظر: البخاري: البيوع، ٩٨؛ مسلم: الذكر، ١٠٠؛ أبو داود: البيوع، ٢٩.

فالديـن يشـبه شـجرةً باسـقةً، العقائـد جذورهـا، والعبـادات ومـا يتعلق بهـا أغصانهـا، والمعامـلات أزهارهـا، والعقوبـات حارسـها، والأوراد والأذكار هـي العناصـر التـي تغـذّي هـذه الشـجرة من تحـت ومن فوق. والدين بوجهه الكامل هذا موضوع من الله تعالى ومبلَّغ من قبَل النبيّ ﷺ.

كان مـن المفـروض أن يتوجـه وجـدان كل إنسـان إلـى ربـه ليتلقى منه روح الدين بشـكل مباشـر ودون وساطة. ولكن بما أن أرواح الجميـع لا يمكـن أن تصـل إلـى مرتبـة الصفـاء المطلوبـة فقـد اصطفـى الله ﷻ مـن بين عبـاده أنبياء: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٧٥).

والله ﷻ يجعـل مهمـة الرسـالة إلى من يشـاء من عباده مـن الملائكة أو مـن النـاس. وقـد اصطفى مـن بين الملائكـة -الذين لا يعلـم عددهم إلا الله، منهـم من هو راكـع أو سـاجد أو قائـم منذ أن خلقهم الله- جبريلَ الأمين عليه السلام ليبلّـغ رسالته إلى رسولنا ﷺ. وطوال ٢٣ سنة قام جبريل عليه السلام بمهمة نقل الوحي إلى الرسول ﷺ، وكان النبي ﷺ يصغي إليه بكل لطائفه مـع احترام بالـغ. وقد تأسست بينه وبين جبريل عليه السلام طوال هذه السنوات صلة وثيقة بحيث إن جبريل عليه السلام عندما زاره لآخر مرة بكى الرسـول ﷺ. أجل، كان الله تعالى يختار هؤلاء لأداء رسالته.

وقـد اصطفـى الله الأنبياءَ الآخريـن بنفس الصيغة ومـن أفضل الناس وأكثرهم اسـتعدادًا لأداء الرسـالة. فقد كانت معـادن الجميـع من الذهب الخالـص. وكمـا كان الرسـول ﷺ "مُصطفى" بهذا الشـكل كان الصحابة الذين تتلمذوا عليه من المصطفَيْنَ الأخيار. وهكذا وبوساطة هذه السلسلة الذهبية انتقل الدِّين إلينا.

وكما تعرض نبيُّنا ﷺ لمختلف أنواع الأذى في سبيل تبليغ الدين، تعرض الأنبياء الآخرون أيضًا إلى صنوف شتّى من العذاب والأذى واضطروا إلى مجابهة جميع الصعوبات، ولم يفعلوا ذلك في سبيل الحصول على أيٍّ من أعراض الدنيا، بل لو قام الرسول ﷺ بالتخلي عن دعوته لأصبح من الأغنياء ولَوَصل إلى كل ما يشتهيه الإنسان من نعم هذه الدنيا.. لَتزوج من أجمل النساء ولأصبح من زعماء مكة. ولكن ما قيمة كل هذه الأمور أمام النبوة؟

لقد عُرج به إلى السماوات وتناثرت النجوم كالحصى تحت قدمَيه وهو في طريقه إلى ربه. وبعد أن شاهد هناك من صور الجمال ما لم يشاهده أحد من قَبلُ ولن يشاهده من بعد رجع إلى أمته ليرفعها ويسمو بها. فأي إنسان يفارق تلك الأماكن بعد أن شاهد الجمال كل الجمال وذاق القرب كل القرب؟ ولكنه رجع... إلى أين؟ إلى دنيا كانوا يفرشون فيها على طريقه الأشواك ويرمونه بالقاذورات ويقذفونه بالحجارة حتى تدمى قدماه الشريفتان... وإلى مدينة كان يواجهه فيها الاستهزاء اللاذع والإهانة المريرة. إذًا لم تكن المصلحة الشخصية أو الخوف وراء تجشمه كل أنواع العناء في سبيل دعوته وتبليغ رسالته. إن إنسانًا لم تستطع مناظر الجنة أسْر قلبه ففضّل الرجوع إلى أمته لا يمكن أن يكون رجل منفعة أو مصلحة.

إن الله ﷻ غنيّ عن كل شيء، وليس في حاجة إلى عبادتنا، ولكننا نحن بحاجة إلى أن نعبده. ولكي يعيش الإنسان الذي اختاره خليفة له في الأرض من بين جميع المخلوقات الأخرى حياةً متوازنةً، فقد أمره بالعيش بالأسلوب الذي خطه القرآن الكريم. وبعبارة أخرى فإنه تفضَّل علينا وأهدى إلينا منهجًا مضيئًا اسمه الدين بسبب عجزنا

عـن إدارة أنفسـنا إدارة صحيحـة، ولكـي لا ننزلـق إلـى دروب منحرفـة وخاطئة. فأمرنا أن ننظم أنفسنا ونَبنِيها حسب تعاليمه ومقاييسه حتى نتمكن من تشغيل جميـع المواهب المكنونة في أنفسنا للسموّ إلى الأعالي.

أجل، نحن بحاجة إلى الدين. ولو تمكن الإنسـان من معرفة حاجاته الحقيقيـة ووعـى أنـه ما خُلق إلا مرشـحًا للسـعادة الأبدية، ولو اسـتطاع استخدام جميـع لطائفه وقابلياته وتَنْمِيَتها لدَعا الله هذا الدعاء ولو بكلمات مختلفة: ''يا رب! أرسِـلْ لنا نظامًا من عندك لكي ندير به أنفسنا ونحفظها من الزلل ومن سلوك الطرق الخاطئة، وأنقِذْنا من التيه بين الطرق المتعرجة والملتوية التي لا تؤدي إلى أيّ هدف''.

لقـد سـار حتـى كبـار الفلاسـفة وعقلاؤهـم سَـيرًا مترنحًـا ومتعثـرًا ولـم يتمكنوا من الوصـول إلى الحقيقة قط، بينما العامي فينا الذي مشـى متتبعًا آثار أقدام الرسول ﷺ لم يخْطُ خطوةً واحدةً في الفراغ، بل عاش في كل مرحلة من مراحل حياته إنسـانًا يعرف نفسـه ويراعي حقوق الآخرين، لأنه يتطلـع إلى مرضاة الله، ويقتدي برسول الله ﷺ الذي هو المثَل الأعلى له، ومن ثم يستغل كل لحظة من رأسمال عمره كبذرة أنبتت سبع سنابل.

لـم يكـن الديـن مخترعًـا من قبـل عقـل الإنسـان اسـتجابةً لمطالبه. أمـا المظهـر الضـروري للديـن الذي يبـدو كذلـك فنابـع من كونـه نظامًا فطريًا يلائم طبيعة الإنسـان، وكونه شـعورًا مغروسًا في فطرة الإنسان منذ البداية. فقد خُلق الإنسان بطبيعة محتاجة إلى تعاليم الدين. فبفضل الدين فقط يدرك الإنسـان الحقيقة والصواب فـي العقيدة والمعاملات، وبفضل الدين فقط يُصبح أهلًا للجنة حيث ينصهر في بوتقته وينضج شـيئًا فشـيئًا حتـى يصـل في النهاية إلى هيئة تمكن الرسـول ﷺ من معرفته وأخذه بيده وضمه إلى أمته تحت لواء الحمد يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: "**مَا مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.**" قَالُوا: وَكَيْفَ تَعْرِفُهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ فِي كَثْرَةِ الْخَلَائِقِ؟ قَالَ: "**أَرَأَيْتَ لَوْ دَخَلْتَ صَبْرَةً فِيهَا خَيْلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ وَفِيهَا فَرَسٌ أَغَرُّ مُحَجَّلٌ أَمَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ مِنْهَا؟**" قَالُوا: بَلَى. قَالَ: "**فَإِنَّ أُمَّتِي يَوْمَئِذٍ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ**"(٤٥).

نحن بحاجة إلى أن نُعرَف هكذا، ونحن المحتاجون إلى الدين وإلى نفحاته التي تهب الحياة.

لقد جاء الدين بأسس إيجابية تحتضن الحياة بأكملها. والنظرة التي ترى الدين شيئًا قاصرًا نظرةٌ ضيقةٌ. والذين يحاولون إقصاء الدين من الحياة ووضعه على الرف سيدركون يومًا ما الجريمة التاريخية التي يهمّون باقْترافها، وسيندمون على فعلتهم هذه. إن هذا الخطأ يُرتكب في كثير من البلدان شرقًا وغربًا، غير أن الدين هو روح الحياة ولن يستطيع أحد إنكار ذلك.

للدين أصول وفروع، أما الأصول فلا يمكن مسها بأي تغيير على الإطلاق. وما من فرق بين ديننا والدين الذي كان عليه آدم عليه السلام في الأصول، إذ إن أسس العقيدة واحدة في جميع الأديان السماوية. ولعدم وجود نص فإنني أحذَر من إصدار حكم قاطع، ولكن يمكن القول بأن أصول الدين هي نفسها بالنسبة للملائكة أيضًا، أي أن جميع الملائكة يؤمنون بما نؤمن به، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر والبعث بعد الموت. أما الفرق ففي درجة الإيمان ومرتبته.

والأمر نفسه ينطبق على العبادات كذلك. فما من تشريع سماوي صحيح أتى دون أن يلزم أبناءه بالعبادة. وقد تختلف هيئة أدائها حسب الشعوب والعهود، لأن الله ﷻ قد حدد لكل أمة عبادةً ملائمةً لطبيعتها

(٤٥) مسند الإمام أحمد: ١٨٩/٤.

وظروفها وزمانها. أجل، قد يختلف الشكل، ولكن المضمون ووجود العبادة أصلٌ ثابتٌ لا يتغير أبدًا.

ولنتناول عقيدة الآخرة على سبيل المثال، فإننا نجدها في جميع الأديان السماوية. فهي من الضروريات التي تحدث عنها كل نبي لأمته تفصيلًا أو إجمالًا. ولولا هذه العقيدة التي تحث الإنسان على الخير وتنهاه عن الشر لزالت الميزة التي تميز الدين عن أي نظام اقتصادي أو اجتماعي بشري. فالدين يبني الكثير من أحكامه وتعاليمه على الإيمان بالبعث بعد الموت.

لو لم يكن هناك إيمان بالآخرة لما كانت هناك فائدة للعبادات ولا للأذى الذي يتعرض له الإنسان في سبيل الدين والتضحيات التي يقدمها، ولا لأي عقيدة أو إيمان؛ ولَخَلع عن نفسه الكثير من الفضائل التي يتحلى بها. فالإيمان بالآخرة هو الذي يحثنا على الالتزام بالفضائل، لأننا نؤمن بأننا إن عملْنا مثقال ذرة خيرًا أو شرًّا فسنراه هناك.

ثم إننا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سنرى فيها جمال ربنا سبحانه، هذه الرؤية التي لا تعادلها حتى حياة الجنة كلها. وبفضل الوصول إلى هذه الهبة الكبرى وبالشوق الذي يشتعل في نفوسنا تنصقل أرواحنا وتسوقنا لسلوك الطريق القويم المؤدي إلى هذا اللقاء دون انحراف.

يقوم الأنبياء بأمر من الله تعالى بنسخ بعض الأحكام الفرعية من الشرائع السابقة ورفع أحكامها، وقد جرت سنة الله على هذا النحو، وهذا مرتبط بنسبة تقدم الوعي لدى الإنسان ونضوجه. فالبشرية كانت تعيش دور الطفولة في عهد آدم عليه السلام بينما شبَّه النبي ﷺ نفسه بشمس وقت العصر، أي إن البشرية وصلت في عهده إلى دور النضج والكمال، وبدأت تميز الحق من الباطل تمييزًا جيدًا، ومن ثم تمسكت بالحق الذي جاء بعد الباطل تمسكًا قويًّا.

جاءت فروع الدين مناسبةً وملائمةً لهذه المرحلة، والله تعالى هو واضع هذه الفروع بحكمته الواسعة. نرى مئات المصالح والحِكَم في أشكال العبادات لهذا الدين، أي إن شكل العبادة فيه مناسب لجماعة ناضجة واعية. أما الأديان الأخرى فقد تعرضت للتحريف والتبديل وفقدت هويتها الأولى. وحتى لو حافظت على هويتها لما كانت ملائمةً للعهد الحالي. ذلك لأن الله تعالى حدّد الدين الذي يرضى عنه وهو الإسلام.

وخلاصة القول، لم يكن الدين قط نتيجة لخوف الإنسان من الآفات الطبيعية كالسيول والصواعق، كما لم يكن كذلك نظامًا اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا لا يهدف إلا إلى حل مشاكل الإنسان الاجتماعية والاقتصادية ليوصله إلى السعادة والرفاه، ولم يكن إفرازًا للطبيعة البشرية كما ادعى ''رينان'' و''روسو''، بل هو مجموعة قوانين إلهية تكفلت بسعادة الإنسان في الدارين. إن سعادتنا وراحة بالنا مرتبطتان به، وبه يمكن دوام ارتباطنا بالقوانين، وبوساطته يمكن الوصول إلى الجنة والنظر إلى جمال الله تعالى. ومهما ترقت الحضارة فإنها تعجز حتى عن تحقيق السعادة الدنيوية للإنسان، فكيف تستطيع إذًا أن تحل محل الدين؟!!

حقيقة الجهاد في الإسلام

سؤال: بينما نجد الإسلام يتخذ السماحة أساسًا ويُحيل إيمان الناس أو عدم إيمانهم إلى إرادتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٥٦)؛ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٨/٢٩)، **نجد فيه أيضًا آيات يُستنبط منها أن الإسلام قد انتشر بالإكراه واتخذ في سبيل ذلك السيف لإرغام الناس على الإيمان به، مثل قول الله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٧٣)؛ (سُورَةُ التَّحْرِيمِ: ٦٦/٩)، **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾** (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٨٩)، **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٢٩)، **فكيف نجمع بين هذه الآيات، وما تعريف الجهاد في الإسلام؟**

الجواب: ظل النبيُّ ﷺ قُرابة ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو الناس سرًّا وجهرًا إلى التوحيد وإلى ما جاء به الإسلام من هدي عظيم، ثم واصل دعوته خارج مكة، في الطائف والمدينة. فكان أول جمع يتبعه ويجيب دعوته أهل المدينة، لم تمض مدة طويلة حتى لم يبق بيت في المدينة إلا دخل فيه الإسلام، فأصبحت المدينة مهد حضارته

وأول عاصمة له. وخلت الدعوة حتى ذلك اليوم من أي نوع من أنواع الإكراه أو التضييق أو حمل الناس على الإيمان، بل استمعوا وفكروا مليًّا، ثم اختاروا طريق النور برغبتهم ومحض إرادتهم. وهكذا تشكلت بيئة مناسبة للمسلمين يستقرون فيها وينطلقون منها لنشر الإسلام، فلهم أن يعيشوا عالمهم الفكري وحياتَهم الإيمانية والعقدية في حرية دون إملاء.

وكلما تمكَّن هذا المجتمعُ الجديدُ في شِبه الجزيرة العربية بما له من خصائص، وغدا محرابًا تتجه إليه الإنسانية المهمومة القابعة في الظلام، ازدادت قريش طغيانًا وهي من يشتعل فؤادها بعداوة الإسلام، فأغارت على الإسلام وأهله، لتنال من الدين الجديد بأي شكل. ولما امتزجت هذه العداوة البغيضة مع دهاء ونفاق مَن طُبِع على عداوة الأديان في تلك المنطقة؛ هبت عواصف عاتية طوّقت الدينَ الجديدَ وهو ما يزال فسيلةً بل برعمًا في ربيع حياته، واتسع نطاق هذه العواصف وانتشرت زوبعتها حتى دخل فيها الساسانيون والرومان، فأفرز هذا عداءً أبديًّا للإسلام وأهله.

إن بذور العداوة الصليبية والماسونية الممتدة حتى يومنا هذا مردُّها إلى الأيام الأولى التي تأسست فيها الدولة الإسلامية في المدينة؛ وقد أثارت مكافحةُ الإسلام لكل أنواع الزيغ والضلال الفكريّ وكفاحُه لتتويج الإنسان بكرامته المسلوبة من جديد، حميَّةَ بعض عبدة الأصنام وأتباع ديانات أعلنوا عن ولائهم للكنيسة والبِيَع، وما زالت سيول من الدماء تسبب فيها أمثال هؤلاء المفسدين تجري في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا تحت مسمَّيات عدّة.

من هنا نشبت الحرب بين المسلمين وثلاث طوائف تريد أن تطفئ نور الله، وأرى من المفيد تصنيفها للوقوف على كل واحدة منها على حدة:

١- مشركو مكة،
٢- يهود المدينة وخيبر،
٣- الرومان وأتباعهم من عرب آل غسان،

١- مشركو مكة:

أ- غزوة بدر:

تجشم رسول الله ﷺ صعابًا لا تخطر على بال بشر خلال ١٣ سنة من الدعوة في مكة، وواجه ما لاقاه بتحمل كبير وصبر بالغ، ممتثلًا قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَحْقَافِ: ٣٥/٤٦)، ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ**﴾ (سُورَةُ الرُّومِ: ٦٠/٣٠)، ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٥٥/٤٠)، فواصل ﷺ دعوته في ثبات أولي العزم وصبرهم أسوةً بأنبياء الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

امتدت المرحلة الأولى ١٣ عامًا، واجه فيها المسلمون كثيرًا من المشاقّ والصعاب، ثم غدا تضييق الخناق أمرًا لا يطاق، فزاد القمع والاضطهاد، ولم تعد الحياة في مكة ممكنةً، فأُذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فتركوا أوطانهم وديارهم وذويهم في مكة، وسلكوا طريق المدينة فرادى وجماعات، فازداد إيذاء المشركين لهم بعد الهجرة، وسلبوا واقتسموا ما تركوه من أموال في مكة، فما عادوا يملكون شيئًا من الدنيا لا في مكة ولا في المدينة.

والحقُّ أن هذه البلدة الجديدة المباركة فتحت صدرها لهؤلاء المهاجرين، واستقبلتهم بحفاوة بالغة، كيف لا وهم أعزُّ مَن ظُلم وأكرم

مـن اضطُهد على مرّ التاريخ. أجل، اسـتقبلتهم، لكـن لم يكن لهم مأوى ولا مطعـم من مالهم الخاص، فاجتهد أهل البلدة المباركة ألّا يُشـعروهم بأي شيء، فشاركوهم آلامهم، وحملوا عنهم عوزهم، فحُقَّ لهم أن يلقبوا بـ"الأنصار". ورغم ذلك ضاقت صدور المهاجرين لما رأوا أنفسـهم عبئًا على إخوانهم من الأنصار؛ وكلما رأوا أموالهم المنهوبة تُباع في الأسواق هنا وهناك ألحّت عليهم الرغبة في إحقاق الحق واسترداد الأموال.

أليـس جديـرًا بالإنسـان أن يقـف مبهـورًا معجبًـا أمـام جلـد هؤلاء المظلوميـن المضطهديـن وصبرهـم وإذعانهم الخالص لأوامـر الله تبارك وتعالى، وهم مَن حِيلَ بينهم وبين حقوق الحياة كافة؛ أخرجهم المشركون من أوطانهم وديارهم واستولوا على أموالهم لتعظم ثروتهم، وكان اليهود والمنافقون في المدينة يثيرون حفيظة قريش عليهم ليطفؤوا نور الإسلام.

فحينما بلـغ المشـركون في ظلمهم وغدرهم الذرى، وبلـغ المؤمنون القمة في صبرهم، جاءت أنباء بأنَّ قافلةً لقريش ستمرّ بالقرب من المدينة فيها أموال المهاجرين وممتلكاتهم المسـلوبة. كان المشـركون قد حجزوا أموال المسـلمين كلهـا، فأهمّ المسـلمين أمرُ اسـترداد الحقوق وتخفيف العبء عن أهل المدينة، فأرشدهم الله سبحانه إلى سبيل تأديب المشركين وإلجـام اليهود والمنافقين ومجازاة قريـش ومعاقبتها، هذه الطامّة الكبرى التي تتربص بالمسلمين للانقضاض عليهم.

ومـن قبل نزلت على رسـول الله ﷺ الآيات الكريمـة بالإذن بالجهاد، يقـول المولـى ﷻ: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِيـنَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيـرٌ ۞ الَّذِيـنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِـمْ بِغَيْرِ حَـقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾ (سُـورَةُ الْحَجِّ: ٣٩/٢٢-٤٠)، ويأمر في آيات أخرى بمعاقبة المعتدين الذين يتربصون بالمسـلمين بغيًا وطغيانًا، ولم يكتفوا بذلك بل أخرجوهم واسـتولوا على

بيوتهم وأراضيهم وسلبوا أموالهم، يقول ﷻ: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٩١/٢).

أجل، فالذين ظُلِموا واضطُهدوا بأنواع الظلم والاضطهاد ثم أُخرجوا من ديارهم ولا يملكون ولو ما يسدّ الرمق؛ بيَّن الله لهم كيف تُستردّ الحقوق ويحاسَب الخصوم بعد معاناة دامت ثلاث عشرة سنة. كل ذلك ليتسنَّى لهم تبليغ الناس علانية، ومحاربة من يحول دون ذلك، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٧٥/٤)، فهذه الآية توجّههم أن جاهِدوا في سبيل الله ونصرةِ دينه وتحريرِ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من أيدي الكفار المعتدين لتقوموا برعايتهم والعناية بهم. وهدف هذا الجهاد إعادة حق الحياة إلى من حُرِمَه، واستعادة المكانة والتقدير لمن سُلِبَهما، وإلجام من يحول دون انتشار الدين العالميّ. فتحقق ذلك كلّه بحول الله وقوته، ووقعت غزوة بدر الكبرى، ولا أعلم هل يمكن لأحد أن يخرج بعدئذ -بعد كل ما فعله المشركون والوثنيّون بالمسلمين- ليقول: "ليتها لم تَقَع"؟!

ب- غزوة أحد:

لم تستسغ قريش المتكبرة هزيمة بدر، كيف وهي المغرورة المعتدية غليظة القلب التي ألفت الظلم والعدوان، وامتهنت السلب والنهب؟ ثارت حفيظة جبابرتها لانقطاع سبل السلب والنهب وانتقال الزعامة من مكة إلى المدينة، وتولّد لديهم حبّ الانتقام والمواجهة. حملهم هذا الحقد الدفين إلى أطراف المدينة، فهاجموا المسلمين ظلمًا وعدوانًا، فخاض المسلمون المعركة للدفاع عن أنفسهم وعما يجب أن يدافعوا عنه،

فلم يكن أمامهم إلا هذا لحفظ دينهم وشرفهم وأعراضهم، ولا أحد يفعل غير هذا، بل لا يصح أن يُفعل إلا هذا في الحقيقة.

ج- غزوة الخندق:

اشتد حقد المشركين مرة أخرى بعد أُحد واندلعت نيران الكراهية التي لا تعرف الانطفاء إزاء المسلمين، وبتوالي الأيام والشهور عظمت هذه النيران واتسعت، وامتزجت بعداوة اليهود في المدينة، وأحاطت بالمدينة المنورة من جهاتها الأربع، رغبةً في إطفاء نور الإسلام كليةً. أجل، امتزج الغلّ والحقد الذي حمله المشركون سنوات للإسلام والمسلمين مع مؤامرات وتدابير اليهود، لتضيق الخناق على هذه الفئة القليلة من المسلمين في المدينة المنورة، وارتُكبت أخزى شناعة في التاريخ. فقابلها المسلمون بشجاعة وثبات بشكل لا مثيل له في التاريخ، وقدّموا أروع البطولات في سبيل الحفاظ على دينهم وإيمانهم وحماية شرفهم وأعراضهم؛ هذه البطولات التي ستظل كالذكرى الجميلة في الصدور، وتظل محل افتخار إلى الأبد.

كانت الخندق أيضًا معركةً دفاعيةً، من جنس المعارك التي يمكن أن تقوم بها الآن أي أمة تتعرض للعدوان كما وقع في الماضي.

د- فتح مكة:

كان فتح مكة فتحًا مرتقَبًا وأمرًا نبويًّا جرى تنفيذه بدقّة وعلى حساسية كاملة في عدم هدر دم أحد؛ وكان هدفه إزالةَ عقبات جائرة حالت بين المسلمين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق وبين العودة إلى بلدتهم وإحياء حدائقهم وبساتينهم، وتطهيرَ الكعبة من الأوثان، فإليها يتجهون كل يوم خمس مرات، وضمانَ الحرية للمستضعفين

من رجال ونساء وولدان مقهورين مظلومين أسارى بيد المشركين منذ سنوات، وإرساءَ حقوقهم في الحياة وأداء العبادات. أجل، كان فتحًا مباركًا انشرحت به الصدور للإسلام، فدخلت القبائل والعشائر في دين الله أفواجًا، وكانوا من قبل أسارى في حياتهم ومشاعرهم وأفكارهم لِما يمليه عليهم سادة مكة من مطالب ومفاهيم ورغبات.

تحقق فتح مكة كما خُطط له من قبل، وعفا النبي ﷺ عن أهل مكة كافّةً: "**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ**"(٤٦)، وفجأةً لانت بهذا التسامح والعفو العامّ وبتلك العظمة قلوبٌ قاسيةٌ صلدة، وانشرحت الصدور والبصائر، فغدوا بحقٍّ أمناء البلد الأمين، إلا أنهم نكسوا رؤوسهم خجلًا مما فعلوه بالمسلمين من قبل، وراحوا يبحثون عن كفارة يكفِّرون بها عمَّا ارتكبوه من جرائم.

دلّتنا هذه الإشارات المجملة على أن غاية النبي ﷺ من غزواته هي نشرُ الإيمان، وإحقاق الحق، والدفاع عن المظلومين والمضطهدين، وتطهير سبل السعادة ماديةً كانت أم معنويةً من عقبات تعرقل الوصول إليها، وإزالةُ اعتداءات تحول دون نشر نور الإسلام.

ويا للعجب! لم تسفر الغزوات طيلة ثلاثة وعشرين عامًا سوى عن ٣٧٥ قتيلًا، أفيعدل هذا الرقم اليوم ضحايا حوادث المرور شهريًّا؟!

٢- غزو النبي ﷺ لبعض قبائل اليهود:

لم يستسغ بعض أهل الكتاب نبوته ﷺ، ولما انتصر المسلمون في غزوة بدر امتلؤوا غيرةً وحقدًا حملهم على أن يُظهروا ما في جَعبتهم من عداوة للنبي ﷺ وصحبه.

(٤٦) المعجم الكبير للطبراني: ٨/٧-٨؛ السنن الكبرى للبيهقي: ٩/٢٠٢.

أجل؛ لقد استشرى أمر يهود بني قينقاع بعد غزوة بدر، فكانوا يبحثون عن ذريعة لمحاربته ﷺ، وأخذوا يكيدون مع أعداء الإسلام والمسلمين خُفية، ويهددون النبي ﷺ علانيةً، قالوا له -وقد اعتدَوا على امرأة مسلمة في سوقهم-: "لا يغرّنك أنَّك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فُرصةً، إنَّا -والله- لئن حاربناك لتعلمَنَّ أنا نحنُ الناس"[٤٧]؛ وبذلك كانوا أول من نقض العهد وأثار الفتنة وتعرض لنساء المسلمين بالسوء.

أما بنو النضير فرغم ما بينهم وبين النبي ﷺ من عهد اتفقوا مع قريش سرًّا على جبهة مشتركة ضد الإسلام ونبيه ﷺ.

وأما بنو قريظة فرغم حلفهم مع النبي ﷺ نكثوا عهدهم يوم الخندق يوم أن بلغت القلوب الحناجر، والتحقوا بجبهة قريش ليهدموا حصن الإسلام من داخله.

وذكر المؤرخ المصري حسن إبراهيم حسن في كتابه "تاريخ الإسلام" أن النبي ﷺ لم يتخلّ عن عدله واستقامته وحلمه إزاء ما صدر عن اليهود من خيانات متتابعة، ولم يعاقبهم على ما بدر منهم من خيانات ومحاولات لضرب الإسلام من الخلف إلا بقدر الجرم الذي ارتكبوه، وإنما فعل ذلك دفاعًا عن حقوق الإسلام والمسلمين[٤٨].

مضت غزوة الخندق وما فتئت مراجل حقد اليهود تغلي ولا تهدأ؛ فوضعوا له السمّ في الطعام، وهمّوا أن يرموه بصخرة من أعلى المكان الذي يجلس فيه، وحاكوا له المكايد المتوالية، وحرّضوا عليه أعداء الإسلام كلهم بشتى صنوفهم، ولم يتوانوا في قرار محاربة المسلمين سرّا وعلانية، ولم تفتر عزيمتهم وسعيهم في إثارة الفتن بالمدينة المنورة.

(٤٧) سيرة ابن هشام: ٤٧/٢.

(٤٨) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ١١٠/١.

فلحظ النبي ﷺ هذا كلَّه، وقرر إجلاءهم من المدينة لتنعم العاصمة الإسلامية بالأمن والأمان.

وبعد إجلاء اليهود من المدينة بدؤوا يتجمعون هم وغيرهم في خيبر، واتخذوا منها معقلًا وحِصنًا. فبدأ الأمر ينذر بخطر أكبر؛ فيهود خيبر يضيّقون الخِناق على العرب الفقراء بمعاملاتهم التجارية المنحطّة، ويعقدون صفقات تجارية مع قريش مرّة ومع الرومان مرّة أخرى، لينالوا من المسلمين ويطفئوا نور الإسلام.

قرر النبي ﷺ لمواجهة هذه المكايد التي لا تنتهي أن يحكم خيبر بأحكام الإسلام العادلة، ففتح خيبر بعد غزوة الأحزاب وأدخلها تحت حكمه في ظل النظام الإلهي العادل.

وبهذا الفتح سيطر المسلمون على هؤلاء الضاربين حول المدينة الذين أفسدوا كل شيء، ولم يكن همّهم إلا المكر والمكيدة والكذب وخداع الآخرين، فحيل دون إضرارهم بغيرهم، وكتب الأمان للإسلام والمسلمين.

تُوفيّ النبي ﷺ، وجاء عهد الخلفاء الراشدين وما زال بعض أهل الكتاب في الغدر والخيانة يوغلون، ففي حروب الردة قاموا بمهامّ استفزازية فألّبوا الروم -والمسلمون مشغولون بمشكلاتهم الداخلية- وشكلوا شبكات تجسس للرّوم والساسانيين، وعملوا على هدم الإسلام بلا هوادة. وآخر ذلك محاولة اغتيال عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فلما تفاقم أمرهم استشار سيدنا عمر ﷺ الصحابةَ في مسألة إجلاء بعضهم؛ إنهم دُمَّلٌ لا ينفك عن الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة العربية، واعتمد في ذلك على إشارة من النبيّ ﷺ[٤٩]،

(٤٩) عن عمر بن الخطاب ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا" (البخاري: الجزية، ٦؛ مسلم: الجهاد والسير، ٦٣ (واللفظ لمسلم).

فنزل اليهود أرضًا قصيَّةً عن عاصمة الإسلام وأُعطوا أراضي وممتلكات في الأرض التي أُجْلوا إليها.

لا أعلم، هل هناك شيء آخر يمكن أن تقوم به دولة اليوم إذا فعل معها اليهود ما فعلوه بالمسلمين حينذاك؟

٣- ما فعله النبي ﷺ بالرومان ونصارى العرب:

بعث رسول الله ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة الصحابيَّ الحارثَ ابن عمير الأزدي إلى ملك الرّوم بالشام أو إلى ملك بصرى ومعه رسالة يدعوهم النبي ﷺ فيها إلى الإسلام بأسلوب ليّن، فعرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني فقتله، قتله والناس جميعًا يقرون بالقانون الدولي: "ما على الرسول من سبيل"، ولما بلغ النبي ﷺ خبره أنفذ إلى مؤتة جيشًا قوامه ثلاثة آلاف، وأمّر عليهم زيد بن حارثة ﷺ.

بلغ المسلمون مؤتة وواجهوا عدوًّا يزيد عنهم ٢٠-٣٠ ضعفًا، ورغم ذلك صمدوا بفضل مناورات خالد العبقرية، وقفلوا راجعين إلى المدينة بأقلّ الخسائر.

ثم تفاقم عداء الجبهة الرومانية والساسانية للإسلام، وكثُرت الاستفزازات عددًا، لكن الحروب التي خاضها ﷺ طول حياته السنية عبارة عما ذكرنا، وهي حروب دفاعية. بل لك أن تقول: إنه لم يُشهِر السيف قط على مدار حياته النورانية إلا إذا اضطر إليه. فهو إنما أُرسل رسولًا، ليبلغ رسالة ربه الشاملة إلى الإنسانية كافّةً في أرجاء العالم قاطبةً، فما كان له أن يكفّ عنها؛ فهو رسول الله، والإنسانية بحاجة إلى رسالته التي حملها إليها لتسعد وتَبْلُغَ الحقَّ والحقيقة، فقامت الجبهات المذكورة بوضع عقبات أمامه لتحول دون تبليغه لهذا الخير العامّ، وهذا ما كان

متوقَّعًا منها، فعلوا فعلتهم وتغلَّب رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه على ما نصبوه من عراقيل، ورغم وجود ما يُستغرب من قِبل الذين لا يرون حقائق الأشياء وحِكَم الأحداث، لكنّ المهم أنه حقق نتائج طيّبةً.

إنما أرسله الله ﷻ لفتحِ القلوب ببراهين القرآن الألماسية، وإرشادِ الإنسانية إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وربطِ القلوب التي تشتتت هنا وهنالك بالله ﷻ، وتوجيهها إلى التوحيد، وإعادةِ الإنسان إلى إنسانيته، وإحياءِ مبدأ المساواة المتهدم والتوازن المزعزَع بين الناس وإقامةِ العدالة الشاملة مرة أخرى، وإرساء مبدأ حفظ المال والنفس والعرض على أسس سليمة. وكان واجبه في تبليغ رسالته أن يخاطب العقول والقلوب والأرواح، وألّا يلجأ إلى الإكراه مطلقًا؛ وهكذا فعل. أجل، لقد اختار منهج الإقناع والتعليم وسلك مسلك الشرع الربّاني: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٥٦).. وخاطب العقول والقلوب في ضوء الدستور القرآني: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/١٢٥).. وعلِم لزوم التمييز بين وظيفة الرسول وبين شأن الربوبية، بإرشاد قوله ﷻ: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٥٤).. واتخذ من التوجيه الإلهي: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (سُورَةُ الغَاشِيَةِ: ٨٨/٢١-٢٢) دستورًا يتصرف وَفْقًا له وهاديًا يرشده.. ورغم ما قام به الأعداء من أعمال وفِعال شائنة لا تليق به واصل سيره في ضوء البيان القرآني: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ (سُورَةُ ق: ٥٠/٤٥).

أجل، ظلَّ ﷺ ينقّب عِدَّةَ سنوات عن الأرواح الطاهرة والقلوب النقيَّة بلا ضيق أو ضجر، ولم يقابل السيئة بالسيئة، بل خاطب قلوبًا لم تُغيَّب الإنسانية فيها، ودخل في حوار مع عقول لم تتلوث بالإلحاد والكفر، بل إنه لم يتوان عن تبليغ رسالته وإن في أحلك الظروف.

ولما جاء اليوم الذي عمَّ فيه نورُ الإسلام أرجاء الأرض كافّةً أخذت الأرواح التي ألفت الظلام والظلم والجور تضيق وتتضجر أكثر، وبدؤوا يشكِّلون جبهات ليطفئوا نور الإسلام وينالوا من المسلمين وإن كلّف ذلك ما كلَّف؛ إلا أنَّ ذلك العمل النوراني الذي كان أمرًا من الله والوظيفةَ الأساسية لرسول الله قد تقبَّله المؤمنون وأصبح عشقهم وغايتهم المثلى، فنذروا أنفسهم لتحرير الإنسان من الأفكار الجاهلية، ودحضِ الخرافات، وتطهيرِ المعابد والصدور من علائق الآلهة الكاذبة، وحمايةِ الضعفاء والمظلومين، ودرءِ الظلم والاضطهاد بأشكاله كلِّها، وكفالة حرية الدين والعقيدة، ونشر نور الإسلام في أمن وأمان، والرقيّ بمبدأ العدل والمساواة والأخوة بين الناس... فلم يتخلف هؤلاء الربانيون -ولا يُعقَل أن يتخلفوا- عن هذا الطريق النوراني.

ثمّ إنه لما كان الهدف هو سلام العالم وصلاحه، دعت الحاجة إلى القضاء على من يحولون دون بلوغ نور الحق إلى أرجاء العالم، ودحرِ من يعتد على الإسلام، ومعاقبة من يريد إطفاء نوره. وهذا لا يعني أبدًا أن الإسلام قد انتشر بالسيف.

نعم، دخل الإسلام معظم البلاد التي فتحها وحكمَها بلا جيش ولا قتال، هكذا انتشر في عهد النبوة بين العرب، وعلى هذه الشاكلة انتشر في إفريقيا وجنوب آسيا. بل يمكن أن يقال: إن المسلمين الأوائل لم يذهبوا بالإسلام هنا وهناك، بل بفتح قلوب الناس في أرجاء الأرض

أَتَوا بالناس إلى الإسلام وانصهروا معهم. أجل، لم يلجأ المسلمون إلى السيف -بصرف النظر عن استثناءات قليلة جدًّا- إلا لحفظ التوازن العالميّ وحماية المظلومين والمضطهدين، فأدّبوا أهل الظلم والغدر وأعداء النور، ومع ذلك لزموا نهج العدل والاستقامة فلم يجوروا على أحد.

أجل، إن مجتمعًا يلزم الحق والاستقامة في الحرب والغلبة بل في قتل من وجب قتلُه لهو المجتمع المسلم، وإليكم عددًا من الدساتير المهمّة التي اضطلع المسلمون بتطبيقها منذ عهد الخليفة الأول حتى يومنا هذا:

١- لا تخونوا ولا تغلّوا.

٢- ولا تغدروا ولا تمثلوا.

٣- ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة.

٤- ولا تعزقوا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة.

٥- ولا تذبحوا شاةً، ولا بقرةً، ولا بعيرًا إلا لمأكله.

٦- وإذا مررتم بقوم فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له.

توضّح هذه الدساتير الجهادية التي لم نذكر منها إلا اليسير أن المسلمين الأوائل قد سبقوا العالم الحديث بكثير. أجل، لقد حرّم الإسلام الغدر ولو بالعدوّ، والتمثيلَ وعقابَهم بالحرْق، وعزْقَ نخيلهم وبساتينهم وحرْقَها؛ وجعلَ من مبادئه إعلامَ الجبهة المعادية بالحرب قبل إعلانها، وإذا حارب قومًا لا يجيز الغارة عليهم دون دعوتهم إلى الإسلام وتعريفهم بالحقيقة؛ وإذا لقي المسلمون العدو أمرهم بأن تكون نيّتهم إعلاء كلمة الله في أرجاء العالم فقط.

فبفضل إخلاص هؤلاء الأوائل وابتغائهم وجه الله في كل حركاتهم وسكناتهم زُرعت الثقة والأمان فورًا في قلوب أهل البلاد التي فتحوها، فأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا. وإلا لَما كان باستطاعة حفنة من الناس انبعثت من قلب الصحراء أن تسود وتحكم ثلاث قارات، وتحافظ عليها على مدى عدّة عصور.

كثير من الإمبراطوريات على مرّ التاريخ قامت بالسلاح والحروب، ولكن سرعان ما انهارت وتلاشت هي ومؤسّسوها، ولم يعد لها ذِكر. أمَّا الإسلام فإن الإنسانية ما زالت تشعر بوزنه في أرجاء العالم منذ أكثر من ألف سنة رغم محاولات التخريب والتدمير التي تعرّض لها، فسِرُّ هذا يكمن في الصُّلح والصلاح والأمن والأمان والرحمة الشاملة التي تسري في روحه.

إذًا ليس السلاح والقوة أصلًا وغايةً في الإسلام، بل كلاهما حارس لرسالة القرآن وحافظ لنور الإسلام؛ استخدمها الإسلام في إحياء الحق وإقامةِ حرية الفكر وتهدئة رَوع المظلومين والمضطهدين ونصرة الضعفاء والبائسين، وواجه بها أصحاب القلوب المغلقة والأفكار المسبقة الذين يرون الحقّ في القوة، ويتخذون الحياةَ البهيمية هدفًا، ويستمتعون بالظلم والغدر، ويَعتدُّون بأنفسهم شبه آلهة. فبهذه القوة ضَمِن الإسلامُ للناس جميعًا حرية الاختيار والاعتقاد، وهذا جعلهم يؤمنون ويرضون بالإسلام الذي يخرُج هو والقلوب الصافية والأفكار السليمة والعقل والمنطق من مشكاة واحدة.

أجل، إنه النظام الذي تنشده الروح ويعدّه الفكر طبَعيًّا وفطريًّا، ويُسلِّم له العقل والمنطق. أما القوة فهي لتمزيق الحجب التي تحول بين المادِّيّين الذين يرون أن القوة هي كل شيء وبين رؤية الإسلام الذي هو معرض

للجماليّات، وللقضاء على كلّ مارِدٍ متمرّد على الحقيقة يصدّ الناس عن الوصول إلى مناخ الإسلام الجميل، وللكشف عن جسر العبور نحو السعادة الأبديَّة أمام الأبرياء والمضطهدين والأرواح التي تنشد الحقيقة.

الواقع يشهد أن أعداء الإسلام لم يتوانوا من قبل ومن بعد في تشويه صورة الإسلام والمسلمين؛ ليتستروا على ظلمهم وغدرهم وسلبهم ونهبهم وسفكهم للدماء، ويلفتوا الأنظار إلى نواحٍ أخرى.

إن الذي ظلم واستخدم السلاح والجنود هو فرعون؛ آذن بالحرب على كلِّ معبود ليجبر شعبه على عبادة ''أخناتون''، وأغلق المعابد الأخرى كافَّةً. ولم يَتَسنّ للبوذية أن تصل إلى سيلان وجنوب آسيا إلا بما مارسه ''أسوكا'' من قمع واضطهاد وإكراه، وما المازدية سوى سفينة أبحرت في سيل من الدم سفكه ''كوباط''، ثم دُفنت معه في مقبرة التاريخ.

وجاء قسطنطين عام ٣١٣م ليرغم الناسَ على اعتناق النصرانية بمكره لا يتصوره عقل، بله ظلمه واستبداده؛ وحارب شارلمان الساكسون ٣٣ سنةً كاملةً فأنهكهم وأرغمهم على التنصُّر، وتنصرت مصر بعد سفك دماء الآلاف من الناس، وتنصَّرت روسيا كرهًا عندما واجهت الدنمارك كيلا تغرق في بحيرات الدم والصديد.

تعلمون أنّ ما ذاقه وما تجرعه العالم الإسلاميّ طوال عصور من ظلم وتنكيل على أيدي الصليبيين لا لِشيء أمرٌ يفوق الوصف والبيان، حتى إن الفاتيكان أعربت في الفترة الأخيرة عن أسفها في هذا الصدد. لقد هدموا وأحرقوا البلاد التي دخلوها في سبيل إرغام الناس على التنصر، وذبحوا أهلها ولم يرعوا ذمّةً لشيخ كبير أو امرأة أو طفل، ونهبوا وسلبوا القبور والمعابد، وحوَّلوا المساجد والزوايا إلى إسطبلات للخيول، فعلوا ذلك كله وهم يزعمون أنهم يحسنون للنصرانية، وخير شاهد

على ذلك كُتُبهم والتحف الإسلامية التي يعرضونها اليوم في أرجاء العالم كافّةً، وخاصةً المستبدّين والقمعيّين الذين يسعَون للسيطرة على العالم وحدهم... إن الكتّاب الغربيِّين الذين لا يعتدُّون بما قام به هؤلاء من فظاعات وشناعات بل يتجاهلونها بعيدون عن الإنصاف والموضوعية حتى يوثَقَ بهم وبكلامهم، ومثلهم من نحا نحوهم بلا وعي من نظرائهم في العالم الإسلامي.

وليس ما عرضناه آنفًا محض ادعاء بل هي حقائق تدعمها أدلة، كتب عنها مئات المنصفين من الكتّاب الغربيين أمثال توماس أرنولد وتوينبي؛ أكّدوا أن المسلمين لم يسفكوا الدماء في البلدان التي فتحوها ولم يلجؤوا إلى القوة والإكراه؛ ونرى من المفيد هنا التذكير بعدد من الوقائع التي تشير إلى ذلك:

١- لما فتح المسلمون دمشق اعتنق معظم الناس الإسلام، أما الآخرون فدخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم، ثم دخلوا في الإسلام باختيارهم ومحض إرادتهم شيئًا فشيئًا، بل إن من ظل على النصرانية منهم هُرعوا إلى الكنائس يدعون الله أن ينصر المسلمين عندما حاول الرومان المسيحيون الاستيلاءَ على دمشق مرة أخرى.

٢- ذكر توماس أرنولد في كتابه ''تاريخ انتشار الإسلام'' أن كل الدول الإفريقية التي دخلها الرومان وفي مقدمتها مصر عانت كثيرًا تحت نِير الحكام المسيحيين إلى أن بزغ نور الإسلام في تلك الأماكن.

أجل، بفضل الإسلام عاد الشعب المصري إلى إنسانيته مرة أخرى، فكانت مصر مركزًا مهمًّا خلال الفتوحات الإسلامية لإفريقيا ثم غدت في الفترات التالية مهدًا للحركات العلمية والثقافية.

٣- ومن الحقائق التي اتفق عليها كثير من الأصدقاء وجمع من الأعداء أن شعب الأندلس عندما اعتنق الإسلام، تحوّلت إسبانيا إلى مركز ثقافي علمي مهم تحت راية الإسلام على مدى ثمانية قرون؛ ولا يليق بنا أن نذكر هنا ما قامت به بعض الدول الغربية ضد الإنسان والإنسانية والعلم والثقافة بعد ذلك.

٤- فتح العثمانيون إسطنبول ودول البلقان وأوربا الشرقية بالعدل والنَّصَفَة والعفّة والمرحمة؛ فاعتنقت الدول المنهزمة الإسلام بإرادتها واختيارها.

٥- ومن الحقائق المجمع عليها أن بلاد ما وراء النهر اعتنقت الإسلام بإرادتها واختيارها وهكذا السلاجقة من بعد، واضطلعوا بوظيفة رفع راية الإسلام عدة عصور، وحققوا هذا بفضل نور الإسلام.

٦- دخل الإسلام في أوغندا والصومال وسومطرة وجاوا والفلبين على يد الدعاة الربانيين، واستحسن شعوب هذه البلدان الإسلامَ وقبلوه وعملوا به لما رأوا في سلوكيات هؤلاء المرشدين اللطفاء من لطف وظرافة وأخلاق حسنة، يعترف بهذا كثير من الكتّاب الغربيين من أمثال: توماس كارليل، وغوستاف لوبون، وتوماس أرنولد، وتوينبي.

عُرف المسلمون واشتهروا بأنهم كالحَفَظة من الملائكة، هكذا كان الأمر في معظم البلاد التي دخلت تحت مظلة الإسلام على مرّ التاريخ، لم يشْكُ منهم ذِمّيٌّ قطّ، واستمر هذا الحال الذي تحفّه السكينة والراحة حتى قام الغربيون بتحريض ذميين يعيشون في المجتمع الإسلامي لإثارة المشكلات تِباعًا في بقاع العالم كلّه. إن هذه الشعوب التي وقعت فريسةً لهؤلاء ندمت فيما بعد على ما قدّمت وبكت، بكت ولكن هيهات فقد فات الأوان.

نعم، إن الإسلام هو النظام الوحيد الذي جاء بمبادئ السلام العالمي، وناشد العقل والروح والوجدان معًا، وغلب خصومه بالحجة والمنطق، ولا نظير له في ذلك. والمسلمون -وهم من يمثل هذا النظام- تعلقت أفئدتهم بنور الكتاب والسنة، وبهديهما اهتدوا إلى جعل الكون مهدًا للأخوة، فبحثوا عن سبل التحاور مع الناس جميعًا بأي شكل. فقد أرشدهم القرآن الكريم إلى أنَّ الأساسَ في التعاملِ مع الناس هو المروءة والشهامة، ودلَّهم على أعلى الغايات التي لا بد أن يَصبُو إليها المؤمنون بقوله ﷻ: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ: ٨/٦٠)، بل يمكن أن يقال: إن الإسلام يفضّل البر والإحسان في التعامل مع الآخر أيًّا كان، فقد أوصى المسلم مثلًا بحسن معاملة أبويه وإن كانا مشركين، يقول ﷻ: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ١٤/٣١-١٥). وأَرْشَدَ المسلمين إلى أعلى درجاتِ اللين عند مجادلة أهل الكتاب وبيان الحق والحقيقة لهم، يقول ﷻ: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ (سُورَةُ العَنْكَبوتِ: ٤٦/٢٩).

لذلك عامل نبينا ﷺ جميع من لاذوا بالإسلام بالحسنى وأحسن إليهم، ومَن قبِل ذمتنا منهم عدَّهم والمسلمين سواء في الحقوق، وبكل وسيلة أشعرهم بأنه أُرسلَ رحمة للعالمين؛ فإن دعَوه أجاب دعوتهم وأجلّ جنازتهم وعاد مريضهم، بل استدان عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب ورهنهم درعه، وباع واشترى منهم، وجعل كل من كان في ذمة المسلمين في عزة الورود، وأعطى لحقوق أهل الذمة كرامةً لا سبيل للوصول

إلى قدرها ومكانتها عندما قال ﷺ: "**مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٥٠)؛ وبيّن للمسلمين حرمة قتل المعاهد أو الذميّ، وحذّرهم بأن ذلك قد يحرمهم من دخول الجنة: "**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**"(٥١)، فأشار بذلك إلى أعلى ذرى القيم الإنسانية، التي لم ولن يستطيع أي نظام قانوني أو فكر فلسفي إنساني قديمًا أو حديثًا أن يبلغها.

ومثلما كان كل شيء في عهد النبي ﷺ يجري على نحو يفوق الوصف كذلك نرى خلفاء المسلمين -عدا ما كان في بعض العهود القاتمة القليلة- قد أظهروا مثل تلك العناية الفائقة في حفظ أمانة الإسلام التي ورثوها عنه ﷺ، ورضي الله عنهم ورضوا عنه.

(٥٠) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٣٤٢/٩.

(٥١) البخاري: الجزية، ٥.

قدرة الإسلام على حل جميع المشكلات

سؤال: هل لدى الإسلام حلّ لكلّ قضية؟

الجواب: أجل، إنه كافٍ وافٍ، وما قلناه بالأمس أصبح الناس جميعًا يعترفون به اليوم، وإقبال الكثيرين في الغرب على اعتناق الإسلام خير دليل على ما نقول.

هب أن لمصنعٍ ما نظامًا يعمل به، فمن أعرف به من مؤسِّسه وواضعه؟ ها أنتم ترجعون في تشغيل أسهل آلة إلكترونيّة إلى من يعرف نظام تشغيلها؛ والله هو خالق الإنسان، فهو أعلم بنظام حياة الإنسان الاجتماعية والفردية، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سُورَةُ الْمُلْكِ: ١٤/٦٧)، فالوسيلة الوحيدة الكفيلة بسعادة البشر في الدنيا والآخرة هي دِينُ الله.

واليوم يسلّم الناس جميعًا بهذه الحقيقة؛ فالأنظمة التي وضعها البشر أَفْلست برمتها، ونجاحها كان مؤقتًا، ومنها نظام الإقطاع والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، فرغم أنها كانت من أشهر النظم على مر التاريخ إلا أنها انهارت واندثرت تِباعًا، وخلفت وراءها صراخًا وعويلًا لا ينقطع، بينما لم يفقد الإسلام من جوهره شيئًا قط منذ ظهوره حتى اليوم.

والغرب على وعي بهذا، فالدُّعاة الذين لهم عُرًى وثيقة مع الله يَلْقَون استحسانًا وقبولًا حسنًا في العديد من الدول الغربية، وقاعات الكنائس اليوم غدت تتنفس عبق محبة الإسلام.

واليـوم تتجـه الإنسـانية التـي أثقلتها مشـكلات العصر إلى الإسـلام مـن جديد، وقد اتسـعت كثيـرًا دائرةُ قناعـاتٍ ترى أنَّ الإسـلام هو الحلُّ لمعضلاتٍ مستعصيةٍ طالَ أنين البشرية تحت وطأتها.

واليـوم يعتـرف النـاسُ بهـذه الحقيقة جميعًـا حتى بعض مـن يعادي الإسـلام، وهـذا لا يخفـى فـي أحاديثهـم وشـهاداتهم، والحـق ما شـهد به الأعداء.

وما أكثر مَن أسـلم في أوربا الآن لكنهم يخشـون مَن حولهم فيُخفون إسلامهم.

وإذا أردنـا أن نمثِّـل لهـذا فـلا بـد مـن إحصـاء القضايا كلهـا واحدة واحـدة، لنبيـن كيـف حـلّ الإسـلام كلًّا منها علـى حدة، وهذا لا تتسـع له عدة مجلدات، ويتعذر سبر أغوار موضوع كهذا في جواب سؤال.

وعـلاوة علـى ذلـك، فعلـى هـؤلاء أن يبيّنـوا لنـا أي معضلـة تعـذّر على الإسـلام حلُّها لنرُدّ ونبيّن، لكنهم لما سـألوا سؤالًا نظريًّا كان جوابنا مثلَه، ناهيك عن أن كثرة الكلام في المسلَّمات عبث، وهو ما لا يستحسنه الإسلام ألبتة.

منطقية الإسلام والتعبدية

سؤال: يقال إن الاسلام دين يلائم العقل والمنطق، ولكنه يستند إلى النصوص وهذا يستوجب التسليم والإذعان، فكيف الجمع بينهما؟

الجواب: أجل، هو كذلك، فالإسلام موافق للعقل والمنطق وهو يستدعي الإذعان والتسليم كذلك. ذلك لأن العقل والمنطق لا يضادّان الإذعان والتسليم. فقد يكون شيء ما منطقيًّا، ويستلزم التسليم به. كذلك لا يستطيع أحد الادعاء بأن شيئًا ما إن اقتضى التسليم فهو لا بد غير منطقي، فالمنطق لا يقبل مثل هذا الادعاء. والآن لنشرح هذا الموضوع في نطاق العقل والمنطق.

لقد تناول الإسلام المسائل التي يجب الإيمان بها بكتابه الذي يقرأ الكون ويشرَحه لنا بشكل عقليّ ومنطقيّ. وبعد القيام بإثبات ألوهيته وربوبيته تعالى بهذا الشكل، تناول النبوة المتلازمة مع هذه الألوهية وهذه الربوبية -وهي نتيجة ضرورية لها- بأدلة مقنعة جدًّا، إذ لا بدّ من أنبياء يقومون بالإرشاد وإعلان وبيان الألوهية والربوبية، ثم شرَح هذا بأدلة عقلية ومنطقية قوية. وتناول أيضًا البعث بعد الموت. أجل، يقتضي العقل والمنطق بعث الناس ليحيَوا حياةً أبديةً، وإلا كانت غريزة حب الخلود المعطاة لهم عبثًا ودون معنى، وبما أن الله تعالى منزه عن العبَث، فلا بد من إهداء مثل هذه الحياة الأبدية للإنسان، والذي خلق الوجود أول مرة هو الذي يُنشئ النشأةَ الآخرة.

القـرآن كلام الله، ولـو اجتمـع الإنس والجن على أن يأتوا بآية واحدة مشابهة لآياته لَما استطاعوا ذلك. وما دام هو كلام الله تعالى، إذًا فالكُتب والصُّحف السماوية الأخرى التي صدّقها القرآنُ من كلام الله تعالى أيضًا.

لـن ندخل في شـرح مفصّل لهـذه المواضيـع التي سـبق أن تناولناها في مواضـع أخرى بشـكل مفصّل، ولكننا أشَـرنا إليها لإعطاء فكرة عنها. وبعـد القيـام بالإثبات والبرهنة على جميـع مسـائل العقيدة بشـكل عقلي ومنطقـي نصل إلـى موضـع لا يمكن السـير فيه بأرجل المنطـق وأدواته، لأن معاني الحقيقة التي يحسـها الإنسـان في وجدانه وقلبه فهي من القوة حتى إن جميـع الأدلة تغدو ضعيفةً باهتةً بجانبها.

إن جميـع أفعال الله تعالى وتصرفاته مستندة إلى العقل وإلى المنطق، كيف لا وهو العليم الحكيم، لا يصدر منه أي عبث. وقد رأينا أن الإنسان عندما يعمل في ساحات علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والفيزياء الفلكية يصل بفضل قوانين هذه العلوم إلى مبادئ ثابتة. ونحن نشاهد أن ما يفعله ومـا ينجـزه أمهر شـخص وأعلمه يبقى شـيئًا باهتًا بالنسـبة إلى صنـع الله. إذًا فللّهِ تعالى حكمة في كل فعل، وهذه الحكمة عقلية ومنطقية.

وهكـذا فـإن آيـات الله فـي الآفاق وفـي أنفسـنا تربطنا وتسـوقنا إلى الإيمـان بالله تعالى. ففي البداية نجـد العقل والمنطق وفي النهاية الإذعانَ والتسـليمَ. وما دمنا قد أذعنا له فيجب علينا اتباع أقواله، وهنا تظهر أمامنا طبعًـا المسـائل المتعلقة بالعبادات كالصلاة والصـوم والزكاة والحج، أي الخصائص المتعلقة بالعبودية.

إن القيـام بهـذه العبـادات مظهر من مظاهر الإذعان والتسـليم. ولكن نستطيـع هنا تقييم كل هذه المسائل تقييمًا عقليًّا ومنطقيًّا وملاحظة الحِكَم الموجودة فيها. لا شـك أن هناك حِكمًـا عديدةً في الأوقات التي فرضت

فيها الصلاة. ولا شك أن حركات الصلاة بهذا الشكل ليست عشوائيةً بل هي مقصودة، كما أن الأمر بغسل أعضاء معينة في الوضوء لا بد أنه مستند إلى فائدة وحكمة، وكما أن الصلاة جماعةً لها دور مهم في تأسيس الحياة الاجتماعية، وفرض الزكاة له دور إيجابي وحِكم عديدة في تأسيس التوازن بين الأغنياء والفقراء. أما الفوائد الصحية للصوم فهي أكثر من أن تعد، وفي أحكام العقوبات في الإسلام دروس مذهلة وحِكم عديدة، ولو دققنا النظر فيها من ناحية العقل والمنطق لَوصلنا إلى النقطة نفسها، وهي الإذعان والتسليم.

لنأخذ الحج مثلًا، لنقل إننا قبلنا الحج فريضةً من البداية لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٩٧)، أي أصبح الحج فريضةً على من استطاع إليه سبيلًا من الرجال والنساء. هذه النظرة تبدأ من نقطة الإذعان والتسليم، فنحن نقول "لبَّيك اللّهم لبَّيك" ونذهب إلى الحج ثم ننظر وندقق ماذا يعطينا الحج في نطاق العالم الإسلامي فنرى أنه مؤتمر إسلامي عالمي على المستويات كافة، وهو يؤسس أرضية خصبة مضمونة لتحويل المسلمين إلى جسد واحد من أقصر طريق. وإن نظرنا إلى القضية من ناحية العدالة الاجتماعية نرى أن اجتماع كل الناس -الفقراء منهم والأغنياء، العلماء منهم والعوام- على صعيد واحد وفي الشروط والظروف نفسها من أجل غاية واحدة، وهي إظهار العبودية لله تعالى، يقوّي يَقيننا بأن الإسلام نظام عالمي ويزيد من ثقتنا به.

إذًا فسواء أكانت نقطة انطلاقنا من العقل والمنطق فسنصل إلى الإذعان والتسليم، أو كانت نقطة انطلاقنا من الإذعان والتسليم فسنصل إلى العقل والمنطق، فالنتيجة واحدة، ومن ثم فالإسلام عقلي

ومنطقي من جهة، وإذعان وتسليم من جهة أخرى. ففي أمر معين يتم الانطلاق من العقل والمنطق ليتم الوصول إلى الإذعان والتسليم، وفي أمر آخر يتم الانطلاق من الإذعان والتسليم ليتم الوصول إلى العقل والمنطق. وما كان هذا النظام الإلهي الذي وَضع أمامنا الكون كتابًا مفتوحًا إلا أن يكون بهذه الخصائص.

الإسلام والرقّ

سؤال: **كيف يُبيحُ الرِّقَّ دِينٌ نزل من عند الله على خير البشرية؟**

الجواب: لهذا الموضوع جوانب تاريخية واجتماعية ونفسية، ولو أنّا صبرنا قليلًا لجاءنا الجواب عليه وعلى غيره مما يثور في أذهاننا.

١- أوَّلًا من المفيد ذكر أسباب قديمة وحديثة تبغِّضنا في الرق وتنفِّرنا منه؛ فالتاريخ والحياة من منظور ماديّ قد ظهرت على مسرحهما ثنائيّات في العلاقات، فمثلًا: العامل وربّ العمل، والفقير والغني، والظالم والمظلوم، ومفاهيم أخرى مثل الطبيعة والفطرة في التكامل الاجتماعي، والرق والأسر، وأجور العمال الجائرة وغيرها من قضايا استُغِلّت وهتف لها الناس جميعًا ولم يبق أحد يسعه أن يفكِّر بخلاف ذلك، هذا وتقتضي الحيطة فتح الباب أمام الآراء كلّها، إلا أن وجهة نظر واحدة قد سادت فجاء الحكم من طرف واحد.

٢- إن ما حلّ بالعبيد من ظلم ووحشيةٍ في التاريخ القديم لا سيما تاريخ روما ومصر تشتعل له قلوبنا ألمًا ويبعث على الاشمئزاز، فرغم مرور قرون ما زلنا نتذكر كم قاسى العبيد في بناء الأهرام، وكيف اختفى بعضهم تحت الصخور وكأنه قَشة، ونتذكر عبيدًا يرغمهم الحُكَّام الظلمة على مصارعة الأسود للتسلية، وفي أعناقهم سلاسل فمَقَتْنَا الاستعباد والمستعبِدين.

٣- واليوم يرقب هذا الجيل معاملة الأسرى الوحشيّة الجائرة في العصر الحديث وفي أيامنا هذه، ويتألم ككل ذي وجدان ويغضب ويستنكر.

لهـذا كلّـه مقت هذا الجيلُ الرِّقَ ونفر منه وعادَى كلَّ نظام دافـع عنه، وهو محِقّ في هذا بلا ريب، أمَّا هجومه على الإسـلام ونقده له فما أبعدَه عن الإنصاف! فنشأة الرِّق لا تعود إلى الإسلام، ولم تستمد منه ماء حياتها وروح بقائها، بل استمدت وجودها وبقاءها وحافظت عليهما من قبل ومن بعدُ من أمم أخرى؛ لذا سنبدأ أوَّلًا بالأسباب والعوامل التي أوجدتها:

الرّق من آثار الحروب، واسـتمراره رهنٌ برغبة الأُمم؛ فـ"رُوما" مثلًا -بشـهادة تاريخهـا- دولـة لَهْو ونـزوات، همُّها الملابس الفاخـرة وموائد الطعـام المتخمـة بألـوان الأطعمـة والأشـربة، وحياتهـا بهيميـة مُخزيـة؛ ومـن أجـل دوام حياة الإسـراف والبذخ هذه كان من الضروري اسـتمرار ورود الثـروات والغنائم والعبيد والأسـرى إليهـا، فاحتلَّت البلاد وأقامت المستعمرات لتستمرَّ سيطرتها على العالم.

ولما فتح المسـلمون مصر رأوا هذا الجو نفسـه بكل قبحه وشـناعته، فهذه سـوق أمتعة وبجوارها سوق نخاسة، فيها عبيد يُباعون والأغلال في أعناقهـم، وهم في حالة إنسـانية مزرية، وبعض الإماء يُعرَضن شـبه عرايا أمام الزبائن؛ وإذا حلّ المساء نام العبيد في أماكن قذرة مكتظة بالحشرات تفـوح منهـا رائحـة كريهة؛ وأحيانًا لا يجدونها، فيُحشَـر خمسـون أو مائة منهـم فـي مكانٍ ضيّق، بعضهم فوق بعض... مشـاهد وصور لم يشـهدها المسـلمون ولم يألفوها، فأحزنهم ذلك حزنًا كبيرًا، وراحوا يضمِّدون هذا الجـرح بمبادئ الإسـلام حيثما حلّـوا، أمَّا الغرب فاستنسـخ تلك الصور مـن رومـا ومصر القديمـة بلا رَتْـقٍ ولا إصلاح، فكان علـى العبيد خدمة الإقطاعيّين وتسليتهم بالمصارعة ليَقتلوا أو يُقتَلوا، مثلما كان المصارعون في روما القديمة السفيهة يفعلون.

نظر الإسلام إلى الرّق أولًا على أنه ظاهرة قائمة، ثم ذكّر الناس جميعًا أنّ العبيد ليسوا متاعًا ولا مَسْلاةً، وأنّهم وغيرهم في الإنسانية سواء. قال الله تعالى: ﴿**بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٢٥)، وقال النبيّ ﷺ: "**مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ، ومَنْ خَصَى عَبْدَهُ خَصَيْنَاهُ**"(٥٢)، "**النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**"(٥٣)، "**لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى**"(٥٤)، فبمثل هذه المبادئ وضَّح الإسلامُ الطريقَ الصحيحَ والفهمَ القويم وسدّ باب الانحراف، فالفضل والمزية يرتبطان بمنزلة الإنسان عند الله وتصحيحِ الإنسان لسلوكياته بما يتواءم مع تلك المنزلة.

وكم من أشعث أغبر -كما جاء في الحديث الشريف- حظيَ بفضل هذه المبادئ السمحة بتقدير وتبجيل لدى الأشراف ووجهاء الدولة، فهذا عمر ﷺ يقول: "أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا (يَعْنِي بِلَالًا)"(٥٥)، وهذا منه تعظيمٌ لذاك المبدأ الإسلاميّ.

الإسلام ينظر للعبد من منظور الأخوة الإسلامية، "**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**"(٥٦)، "**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، اِسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلَايَ؛ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**"(٥٧).

(٥٢) أبو داود: الديات، ٧؛ الترمذي، الديات، ١٦؛ المستدرك للحاكم: ٤/٤٠٨.

(٥٣) الترمذي: تفسير القرآن، سورة الحجرات؛ أبو داود: الأدب، ١٢٠.

(٥٤) مسند الإمام أحمد: ٥/٤١١؛ شعب الإيمان للبيهقي: ٧/١٣٢؛ المعجم الكبير للطبراني: ١٨/١٢.

(٥٥) البخاري: فضائل أصحاب النبي، ٢٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦/٣٥٣.

(٥٦) البخاري: الإيمان، ٢٢؛ مسلم: الأيمان، ٤٠.

(٥٧) البخاري: العتق، ١٧؛ مسلم: ألفاظ، ١٤؛ مسند الإمام أحمد: ٢/٤٤٤.

وهـذا ما جعل عمر وخادمه يتناوبـان الركوب يوم أنْ توجَّه عمر تلقاء القدس ليتسـلّم مفاتيح المسـجد الأقصـى؛ وجعل عثمـانَ الخليفةَ يقتصُّ لخادمه من نفسه على الملأ وكان قد أمسك بأذن غلامه يجرُّها إليه؛ وَحَدَا بالصحابيّ الجليل أبي ذر ﷺ إلى أن يقسم ملابسه بينه وبين غلامه نصفين...

لقد تقرَّر بهذا كله: أن العبد إنسان مثله مثل غيره من الناس لا يفضله أحدٌ بشـيء، فهـذه المرحلة هي الأولى، وقد أُرسـيَت تلـك القاعدة قويَّةً قويمـةً. ولا بُـدّ أن نذكِّـر ونكـرِّر بأنّ هذا يُعَـدّ انقلابًا كبيرًا فـي بلد قصيّ معزولٍ عن العالَم، في مجتمـع بِكْر في العواطف والمشاعر.

وضـع الإسـلام للرقيق مبـدأً فيه كثير من الإيجابية والسـعة والعمق، في حين أن سـائر الأمم والدُّوَل لا تُقِرّ لهم حتى بالإنسـانية، ولا تعبأ بها بل يسخرون بها ويستهزئون، فكان يُزَجّ بهم في حلبات مصارعة الوحوش، ويُسامون سوء العذاب.

وتركَـتْ هـذه المعاملـة الإيجابيّةُ الحسـنةُ أثرَهـا الطيّبَ فـي الرقيق، فيَوْمَ أن أُقرّ لهم بالإنسـانية وتَسَـاوَى العبدُ مـع سـيده، كان فيهم من أعتقه سـيِّده فأبـى فراقَـه، مثل زيد بـن حارثة وآخريـن من بعـده، فعندما أعتقه الرسـول ﷺ خيّـره بين المكث عنـده والرجوع إلى أهلـه، فاختار المكث عنده ﷺ، وفعل بعده كثيرون مثلما فعل. فمعاملة السيد للرقيق كانت بالغةَ الحسـن والرّقَّة حتى كان بعض الرقيق يَعُدّ نفسـه من أفراد أسـرة سـيده، وكان سيده أيضًا يراه على هذه الصورة ويرعى حقوقه أيما رعاية ويساويه بنفسه في الإنسانية. وليس بوسـع السيد أن يفعل سوى ذلك، فهو وإن بدا اليـوم مالكًا فمن يدري فلعله يغدو مملوكًا غدًا، وكانت للمبادئ صلابتها وقوتها رسـخَتْ بهما هذه المفاهيمُ الإنسـانية أيّما رسـوخ: "**مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ**

قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ"[٥٨]. فلا يسَعُ السيِّدَ أمام مثلِ هذه الأحكام إلا أن يتصرَّف بكلِّ حيطة وحذر، أمَّا العبدُ فيطمئنّ بها اطمئنانًا كبيرًا؛ تلك هي المرحلة الأولى لما جاء به الإسلام، وإنّها لَخطوات لم يسبق إليها أحد في التاريخ.

أما المرحلة الثانية فالعتق والتحرير، فحريّة الإنسان هي الأصل، واسترقاق الحرّ من الكبائر، وبيعه وأكل ثمنه حرامٌ قطعًا، وكلّ ما من شأنه تقييد الحرية مذموم مرذول، وكلّ ما من شأنه التحرير وفكّ الرّقاب محمودٌ موقَّر في الإسلام: "**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنْ النَّارِ**"[٥٩]، ومن أعتق نصفها أعتق الله نصفه، فتحرير الرقيق من الأمور المهمة التي عمِل الإسلام على تحقيقها، فتجده مرّة يعدّه وظيفةً يجب أداؤها، ومرة يحثّ عليه ويعدّه فضيلةً، ثم تجده يفتح للرقيق طريق الحرية الكاملة بالعقود والمكاتبات.

ما ظهر تحرير الرقيق بأحسن صورته واستمرّ إلا بمجيء الإسلام، وكلنا يعرف ما أنفقه الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ في شراء الرقيق وتحريرهم، فكم وكم أنفقا في هذا السبيل.

بادئ الأمر بادَرَ أفرادٌ، فأنفقوا أموالَهم في شراء الرقيق وتحريرِهم، ثم تولَّت الدولة الأمرَ وعدَّته إحدى مهامّها، فأعتق الرسول ﷺ مِن أسرى بدر مَن يعلِّم عشرةً القراءةَ والكتابة، فعل هذا وكانت الدولة في ضيق اقتصاديّ خانق، واستمرّ الأمر هكذا بعده ﷺ، لا سيما في عهد عمر بن عبد العزيز حيث جعل تحريرَ الرقيق من أهم مصارف الزكاة، فيُعتَق من بيت المال كثير من الأسرى جيء بهم من هنا وهناك ويؤوبون أحرارًا، ثم شُرعت

(٥٨) أبو داود: الديات، ٧؛ الترمذي: الديات، ١٧.

(٥٩) البخاري: كفارة الأيمان، ٦؛ مسلم: العتق، ٢٢.

كفارات لذنوب وزلّات تقع في العبادات أو لتقويم سلوكٍ ما تستلزم عتق الرقاب، فأمر الشرع بالعتق في كفارة قتل الخطأ واليمين والظهار:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٩٢).

﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٨٩).

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ: ٥٨/٣).

يترتب على جناية القتل حقّ عامّ للمجتمع وحقّ خاصّ لأولياء القتيل، فالدية عزاء لأهل القتيل وسلوان، وتحرير الرقبة حقٌّ للمجتمع فهي تزيده فردًا حرًّا، أي إنها تحيي فردًا تعويضًا عن خسارة المجتمع لآخر.

زد على هذا طرقَ التحرير الأخرى كالمكاتبة والتدبير، أمَّا المكاتبة فهي عقد عتق بعوض يتَّفِقُ عليه العبد مع سيّده، وبها تتفتح له طريق الحرية، ونستنبط من صريح بيان القرآن في هذا[٦٠] أنّه عندما يتفقان على العوض لا يبقى سوى الوفاء بالعوض.

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٣٣).

أما التدبير فهو أن يعلّق الرجلُ عتقَ عَبْدِهِ بِمَوْته أي موت السيد، فإذا قال: ''أَنْتَ حُرٌّ بَعْدَ مَوْتِي''، غدا العبد ''مُدَبَّرًا''. وأمّا العتق المعلَّق فهو تعليق عتق العبد بأمرٍ أو حادثةٍ.

أما دائرةُ العتق لنيل الثواب فواسعة جدًّا، فرغَّبنا الإسلام في العتق وعظَّم ثوابه تعظيمًا يجلُّ عن الوصف، فكانوا في عهود مضت يحرّرون المئات دفعةً واحدةً لوجه الله تعالى، وفي عهود أخرى كانوا يشترون العبيد في الأشهر والأيام المباركة ليعتقوهم لوجه الله تعالى.

قد يقال: مهما بلغت رعاية الرقيق ومعاملتهم الإنسانية، ومهما ساغَ العتق وتحقَّق بل لو أُطلق سراح الأرقّاء جميعًا وتحرروا، فأَنْ تشتمل كتب الفقه على أحكام الرِّق معناه قبولُ الرِّق لا شكَّ ولا ريب؛ ولا أحدَ يشكُّ أنَّ الإسلام -وقد سبق له تحريم واستئصال قبائح متجذرة في النفوس- لا يُعجزه تحريم الرق، أفلا يعد هذا تحقيرًا لشأن الرقيق فهو قادر على تحريم الرق إلا أنَّه لم يفعل؟

ألا فلنعلم بدايةً أن الإسلام ليس هو بواضع نظام الرق ولا هو سبب استمراره ولا هو عليه بحفيظ، بل كان الرق نظامًا قائمًا أفرزته الأمم والدول من خلال الحروب، وما دامت الحروب قائمةً -وهي ستستمر إلى يوم القيامة طالما أن الإنسان لا يغيّر من طبيعته- فالحيلولة دون وقوع الأسر والرق لن يكون بمقدور أمة وحدها أيًّا كانت.

والآن تعالوا نفكر:

افرض أننا خُضْنا حربًا ضد دولة ما، وأسرنا منهم، وأسروا منّا، ففي معاملة هؤلاء الأسرى عدَّة احتمالات:

١- قتلهم جميعًا كما تفعل الأنظمة الظالمة.
٢- الإبقاء عليهم في معسكرات الأسرى.

٣- إطلاق سراحهم ليعودوا إلى أهليهم.

٤- أن يُلحَقوا بالغنائم ويُقسموا بين المسلمين.

والآن تعالوا ندقق في هذه الاحتمالات بالتسلسل:

١- أي ضمير أو وجدان يرضى بقتل جميعهم دون تمييز بين رجال ونساء، وبين شيوخ وأطفال بلا رحمة؟ فرغم مرور عصور وعصور لا تزال مظالم روما للقرطاجيين وصمةَ عارٍ على جبين أهل روما، وما زالت وحشية بختنصر والفراعنة وغدرهم لوحات ظلم محفوظة محفورة في ذاكرة الإنسانية، ولماذا نذهب بعيدًا، فقد رأينا في عصرنا الويلَ والهول في البلقان، وذُبح في روسيا في عهد قريب ثلاثون مليونًا، ومئات الآلاف في ألمانيا النازية، أروني إنسانًا يرتضي شيئًا من هذا.

٢- وحشيةُ معسكرات الأسرى ليست بأقلّ من هذا، وإنها لَتثير الاشمئزاز. فقد شهد القرن العشرون أشنع صور الأسر في تلك المعسكرات وأكثرها ظلمًا ووحشيّة؛ كانت معسكرات بلدان البلقان كافّةً لا سيما معسكر (سَرَايْ إِيجِي) في أدرنه مثالًا للوحشية والشناعة. يشكو الأمريكيون ما عانوا من معسكرات الأسرى اليابانية، ولو رأوا ما جرى في ''سراي إيجي'' من قطع لأثداء النساء واعتداء على الأعراض، وقتل الرجال صبرًا أي بالجوع حتى الموت حتى اضطروا إلى أكل لحاء الشجر، ولو رأوا أصناف العذاب التي تعرض لها أناس في أذربيجان وروسيا الشيوعية لعرفوا أن ما قاسوه من اليابانيين وما قاساه منهم اليابانيون ليس بشيء؛ فقد شاهدت ومرّت أوروبا وآسيا بأفظع أشكال معسكرات الأسرى في الحرب العالمية الثانية، فانتهاج هذا الأسلوب ليس من الإنصاف ولا الإنسانية في شيء، بل هو وحشية فظيعة.

٣- ربما نحبّذ ردّ الأسرى إلى أوطانهم، فهذا عمل إنساني نبيل؛ ولكن إن كان الآخَر أي العدوّ يقتل أسرانا ولا يردّهم ألا يكون هذا خيانة لمواطنينا؟ وثمة احتمال أن يفشي من أطلقْنا سراحَهم بمعلومات قد تضرُّ بنا وتمهّد الطريق لخِطّة عدوانيّة جديدة ضدّنا؛ وتنهار بها معنويات قواتنا المسلَّحة وتقوّي صفوف العدو وتشجّعه وتساعده على شنّ هجوم أكثرَ عنفًا وضراوة. ويمكن أن نتبادل الأسرى بمعاهدات دوليّة، وكثيرًا ما استعانت الدول قديمًا وحديثًا بهذا الحلّ، وربما مستقبلًا أيضًا، وهو يقضي على قسم من الرّق.

٤- وليس بعد هذه الخيارات سوى توزيع الأسرى على المجاهدين، وهو حلّ مؤقت لمشكلة الأسر، وفضّله الإسلام؛ ولم يَختر القتلَ والإبادة الجماعية للأسرى ولا العنف في معسكرات الاعتقال، ولا تصرّفًا يطمّع الأعداء فينا. بل اختار منهجًا أوفق للطبيعة البشرية.

ففي بيت كلِّ مؤمن فرصةٌ للأسير ليعرف عن كَثَب حقيقةَ الإسلام وجمالَه، فينشرح صدره للإسلام بالمعاملة الإنسانية الطيّبة -حدث هذا في التاريخ آلاف المرات- فإذا أُعتِقَ كان له ما للمسلمين من حقوق، وقد نشأ على هذا النمط آلاف الكاملين الذين عُرِفوا بـ"الموالي"، بدءًا من الإمام نافع شيخ الإمام مالك إلى طاووس بن كيسان ومسروق وغيرهم من أئمة التابعين.

ومع هذا قلنا: إنه حلٌّ مؤقت؛ فهو وإن تكرَّر اللجوء إليه، إلا أنّ الأصل في الإسلام الحرية، لذا فتح نوافذ عدّة تفيد في إنهاء الأَسْر، ولَطالما حضّ على العتق، فالإسلام يعدّ العبوديّة أمرًا عارضًا مؤقتًا. ولكن ما لم تتفق دول العالم على حلّ موحد فالرِّق سيبقى في بلاد أخرى، وما شرعه الإسلام وحده في هذا الصدد سيظلّ مقصورًا على تابعيه،

فقد شرع أحكامه في هذا، وعلى دعاة السلام العالمي القائمين على إرسائه أن يستجيبوا لها فيفتحوا الطريق لتطبيقها؛ فالرِّق من الأمور التي عدّل الإسلام مسارها وقوَّمها، فانتقل به من الحيوانيّة والوحشيّة إلى طريق العدل والخير، وترك ما لا يمكن تحقيقه من طرف واحد إلى تعاون الدول في المستقبل.

شيء آخر هنا، قسمٌ منّا لم ينضجوا دينيًّا بعد، فسقيم القلب قد يبدر منه قصور وإهمال في مسائل فرعية، فربّما وقف هو وأمثاله في صفّ دولٍ تؤيّد بقاء الرق؛ نعم فالدِّين لن يسمو بالناس جميعًا لِزامًا إلى مرتبة الملائكة، فتجد أولئك بيننا، وتجد من يستمسك بمبادئه القدسية ويستعصم بها ليسمو إلى مرتبة الملائكة.

مسألة أخرى: كان من المؤمنين من يملك أرقَّاء أمدًا مديدًا، وكان طريق تحريرهم مفتوحًا على مصراعيه، ربما يبدو هذا تناقضًا بين المأمول والمعمول؟

أجل، فهذا كان منذ العصر الأول، ولكن لهذا سببان مهمّان؛ أحدهما ذو صلة بالسادة، والآخر بالرقيق.

أمَّا الأول فالإسلام كما سبق يَعدّ سمو الإنسان وكماله في الحياة العمليّة رهنًا بحريته وإرادته؛ ومَن فيه نقصٌ يمنعه نقصُه أن يقوم بما يقوم به كاملٌ لا نقص فيه، ومن الطبيعيّ عدم تطبيق هذا الأمر تمامًا حتى ينضج هذا الصنف من الناس بالتربية المحمديّة، وليس من العدل والإنصاف تشويه صورة الإسلام بحُثالة آثروا إشباع غرائزهم البهيمية.

وأمَّا السبب الثاني فمتعلق بالعبيد. إن تطبيق الإسلام المبدع يراعي الطبيعة البشرية، فالمسلمون الأوائل سلكوا أولًا نهج إقناع العبيد بإنسانيتهم، وتأليفِ الحرية إليهم، ثم تحفيزِهم على بناء الأسرة وإلِف حياة الأحرار.

الإلف والتعوّد يشكّلان في الإنسان طبيعةً أخرى، ولَضرْبُ السيوف أيسر من ترك المألوف والعودة إلى حالة أصيلة سابقة. نعم، إنّ الرق يغيّر الفطرة الإنسانية، وتستغرق إعادتها إلى حالتها الأولى وقتًا طويلًا، وهذا ما قام به المؤمنون.

فالمؤمن ينادي غلامه "يا أخي"، ويحسن معاملته ويعلّمه العمل الحر والكسب الحرّ، ويشجّعه على تكوين أسرة ورعايتها، ويعوّده القيام بهذه المهامّ، ثم يعتقه ويحرره إذا لم يلحقه ضرر من العتق، أو كان يأمل من عتقه خيرًا.

إن الرقيق الذين ضمرت قابلياتهم الإنسانية فأصبحوا كسمك الزينة في الأحواض أو طيور الزينة في الأقفاص لو انخرطوا في المجتمع قبل أن يمرّوا بهذه المراحل وعارُ الرِّق على جبينهم، لتَحيَّروا أمام القضايا الاجتماعية المتشابكة وتمنَّوا آنذاك أن لو عادوا رقيقًا. لهذا سلك هذا المسلك كثير ممن لم يمارسوا الحياة الحرة في المجتمع ولم يحيطوا علمًا بقوانينها. ولما أمر الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن بتحرير الأرقّاء جميعًا دفعةً واحدةً رغِب معظمهم بالعودة إلى أسيادهم. ولا مفرّ من هذه العاقبة، فمن أمضى عمره أو معظمه عبدًا تعوّد على تلقي الأوامر، بل إنه إن أحسن في بعض الأمور فليس هو بأزيد من آلة وراءها مَن يحرّكها، فهو -وإن بلغ الخمسين- كالطفل يفتقر إلى من يعلّمه شؤون الحياة وقوانينها. ولا ينحصر هذا الدّاء أو العلة بالرقيق، بل نلحظه في شعوب رزحت تحت وطأة الاحتلال سنين طويلة. أجل، فمثل هذه الشعوب إن لم تستردّ شخصيتها ولم تنل ما يلزمها من تدريب وتربية، فلن تستطيع أن تتحرر من ربقة تبعيتها في علاقتها بالدولة المحتلّة وتصفيقها لها في كلّ ما تفعله، بل إن استرداد الشخصية المستقلة لهذه الشعوب أعسر من تعليم العبيد حقيقة إنسانيتهم.

وهكذا بدأ الإسلام العملَ، راح يبعث في أعماق العبد أوَّلًا الشعور بالإنسانية، وحقّق لروحه الممسوخة التوازنَ، وأحيا في قلبه معنى الحرية، ثم أسلمه إلى معترك الحياة. فتربية زيد بن حارثة وعتقُه ثم تزويجه بامرأة نبيلة، ثم تعيينه قائدًا في جيش فيه كثير من الأشراف ليس سوى تحقيق لهدف تقرر تحقيقه تدريجيًّا.

وما بلالٌ الحبشيُّ ﷺ وهو في طليعة الصحابة، وسالمٌ مولى أبي حذيفة ﷺ وقد بلغ مقامًا يغبطه عليه كثير من المسلمين، وسلمانُ الفارسيُّ ﷺ وقد عدَّه الرسول ﷺ من أهل بيته، إلا أمثلة حيّة على منزلة أحرزها الأرقّاء في الإسلام بين المسلمين، ولولا خشية الإطالة لعرضنا مئات الأمثلة.

باختصار: لم يَشرع الإسلام الاسترقاقَ ولم يسنّه، بل عدّله وأشار إلى طُرق استئصاله. ولولا الحروب ثم حضُّ مرضى القلوب وترويجهم للرِّق، لما كان له وجود في التاريخ الإسلامي بهذا الشكل مَثار النقد. نعم، الإسلام وجد الرقَّ في طريقه، فشرع من الأحكام ما يقضي بها عليه، ويقوِّم حالته البائسة، ويرفع عنها الظلم والغدر، ويوجهها نحو الخير والجمال المطلق.

ونختم بالتضرع والدعاء أن يرفع الله عن الشعوب والدول ذلّ العبودية كما رُفِع عن الأفراد بفضل هذا الدِّين.

حديث القرآن عمّا كان وما سيكون

سؤال: يقولون: "إن القرآن الكريم قد أخبر عن كل ما جرى وما سيجري". فهل هذا صحيح؟ فإن كان هذا صحيحًا فهل لنا أن نعد العلوم الطبيعية والتقنيات الحديثة من جملة ما أخبر عنه القرآن؟

الجواب: نعم، يتحدَّث القرآنُ إجمالًا عن كلِّ ما أذِن الله تعالى للإنسان بمعرفته، وكلّ ما يصل به إلى الرقيّ الماديّ والمعنويّ. أما الحديثُ عمَّا لم يأذن الله بمعرفته، ولا يجرُّ نفعًا على الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية فلا يدخل في نطاق البحث ألبتة، خصوصًا التفصيلُ فيها. إذ إنّ قبول أمرٍ كهذا يعني نسبة العبث واللهو إلى كتاب كلُّه علمٌ وحكمةٌ، وهذا الكتابُ أسمى من أن يقع فيه العبث أو يوصف بعدم الجدوى والمنفعة.

إن للقرآن منهجًا يتَّبعه في تناول المسائل وتفسيرها، إن جهِل المفسِّر هذا المنهجَ مُنِي بخيبة الأمل، ولا يستطيع أن يجد بغيته فيه.

هدفُ القرآن أوّلًا أن يعرِّف صاحبَ كتاب الكون بكل كلمة من كلمات هذا الكتاب وبكل سطر من أسطره وبكل فقرة منه، وإرشادُ الناس إلى الإيمان والعبادة، وتنظيمُ الحياة الفردية والاجتماعية، والبلوغ بالإنسان إلى السعادة الدنيوية مع ضمان دوامها وديمومتها في الآخرة.

ويتناول القرآن كلَّ شيء لتحقيق هذا الهدف السامي، متخذًا كلّ ما يعرِضه وسيلةً في هذا الطريق، فيتكلم عن هذه الأشياء بقدر أهميتها؛ الإنسان على قدر منزلته، والنجوم وفق منازلها ودرجاتها، والكهرباء على حسب مكانتها.

ولـو لـم يفعـل القـرآن الكريـم هـذا وقصـر الحديث عن جـزء من عجائـب الحضارة في القرن العشـرين لضاع حـق التعريف والبيان لكثير من الحقائق، ولأغفلت بعض الحقائق الثابتة والاكتشـافات المسـتقبلية، ولأُهمل أمر الإنسـان خاصة. وهذا الأمـر يتناقض كليَّةً مـع روح القرآن الكريم ومقصده الأساسي.

للقـرآن الكريم -الذي أُنزل هدًى للنـاس وتوطيدًا لعلاقتهم بخالقهم جـل وعـلا وكفيلًا لسـعادتهم الأبديـة- أوجهٌ وألـوان تلائم عِظـمَ الأمر الـذي يهدف إليه وسَـعتَه وأهميتَـه، ولقد أُلِّفت التفاسـير وحُررت الكتب التي تزخر بها المكتبات حاليًا لتكون مرآةً عاكسةً لهذه الأوجه كلية.

ولقـد سـجل عباقرة الأدب انبهارهم بإعجاز القـرآن البيانيّ وبعباراته الأخّـاذة وببلاغتـه الفائقـة، فـي حيـن أن العلمـاء الذيـن يُجيلـون النظـرَ فـي الآفاق والأنفس وُفِّقوا لأن يروا ويدركـوا الأوجه الحقيقية للحوادث والأشياء في ظلال أنوار القرآن الكريم المنيرة.

وبينما كان علماء النفس والاجتماع يحلّون به المشكلاتِ المستعصيةَ التي أصابَتْ روحَ الإنسـان والجماعات، كان المربُّون وأسـاتذة الأخلاق قـد اتخذوه منبعًا لا ينفد ولا ينضـب، ثريًّا، مزدانًا بكافة الألوان، يرجعون إليه في تربية الأجيال على الدوام.

وإننـي هنـا أحيل عرض هذا المحتوى الثري الواسـع للقرآن الكريم إلى الشـروح السلسـة الواضحة للمتخصصين في هذا الموضوع، وأوصي القارئ بالرجوع إلى الكتب المُدبَّجة في هذا الصدد، فلا يخفى على أحد أنه لا طاقة لمقالة كهذه بعرض القرآن بكلِّ جوانبه.

للقـرآن خاصيـة كثيـرًا مـا تخطـرُ علـى بـال شـبابنا عنـد الحديـث عـن محتـوى القـرآن، وهـي علاقـة القـرآن بالتقنيـة والعلـوم الطبيعيّـة

بل قل العلوم الوضعية إن شئت، لذا سنخص هذه الخاصيّة في حديثنا، فهي المقصود من السؤال المطروح.

الواقع أن هذه الساحة ليست بكرًا، فقد حُررت مئات المؤلفات حتى الآن في هذا الموضوع تُلقِي الضوء على مئات من الحقائق القرآنية، إلا أن معظم هذه المؤلفات يوم أن كُتِبت وقعت تحت تأثير ثقافةِ وفنِّ عصرها، فتلقاها القارئ بريبة وحذر لِما حوته من تأويلات متكلفة، لا سيما تلك المحاولات التي اضطلع بها بعضهم للتوفيق بين الحقائق القرآنية ونظريات علمية لم تثبت بعد، ظنًّا منهم أن تلك النظريات باتت حقيقةً علميَّةً، فأدّى هذا إلى نوع تحريف للقرآن وتقليل من شأنه، علمًا أن ما في القرآن الكريم من بيان وتفصيلٍ لهذه المسائل قد ورد بأسلوب ميسر وواضح جدًّا يفهمه الناس جميعًا، حتَّى إنّ المَلك الذي نزل به والراعي على الجبل لا يختلفان كثيرًا في فهم المقصد الإلهي، هذا بغضّ النظر عن اختلاف تذوق اللطائف الإنسانية.

وعلى ذلك فلا بد أن يعتمد منهجنا في تفسير آيات القرآن على الموضوعية والثقة برصانة النصّ الربانيّ وصفائه، واتخاذه مرآةً عاكسةً لفهم الأحداث بدلًا من توفيق الأحداث على القرآن.

وتفسير القرآن يقتضي معرفةً دقيقةً باللغة وأسباب النزول وأسرار الكلمات، لذا نجد رُؤَى الصحابة والتابعين وأوائل المفسرين من أمثال ابن جرير الطبري ﷺ متوافقةً تمامًا مع الحقائق العلمية الثابتة، في حين أننا نصادف عند الخلف تأويلات متكلفةً لا تتوافق مع روح العلم رغم أن الخلف ظهروا وكأنهم أكثر فلسفةً وعمقًا من السلف. وهذا يوضح لنا أن المفسرين الذين فسروا القرآن دون أن يتأثروا بعصرهم كانوا أقرب لروح القرآن من غيرهم.

والآن أود أن أضرب بضعة أمثلة على الأمور التي حاولت عرضها، للإجابة على السؤال المطروح:

ينبّهنا الخالق ﷻ -وهو الذي يعلم كلَّ شيء من الأزل إلى الأبد- **بدايةً**: إلى أنَّ المستقبل بالمعنى العامّ سيغدو عصرَ العلم والعرفان ثم الإيمانِ وهو نتيجة ضرورية لسابقَيْه، يقول ربنا ﷻ: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٥٣/٤١) إن هذه الآية -وهي التي يعدُّها أرباب التصوف على مرّ العصور موئلًا يرجعون إليه على الدوام- إذا تأملت فيها بنظرة علمية صدّقت أنها معجزة.

كلُّ ما من شأنه أن يدخل في نطاق التفكير والبحث البشريّ من الذرات إلى المجرّات سيصدِّق القرآنَ بماهيته التي سيكشف عنها المستقبلُ، وسيؤكد وجودَ الله ووحدانيته، ولدى مطالعة مئات الكتب المعروضة في المكتبات عن هذا الموضوع نرى أن ما ذكره القرآن من حقائق أوشكت أن تتحقق وكأننا نسمع من الآن تسبيحات الكون بآلاف ألسنته التي يمكن أن تُفهَم في المستقبل.

والحقّ أن ما نفهمه من خلال الأحداث من قول ربنا تبارك وتعالى ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ٤٤/١٧) قدرٌ لا يستهان به. نَعَم، فلغة الذرات أفصحت لنا عن أشياء عظيمة ومثلُها ضجيجُ المجرَّات، فكم وكم من أمورٍ أدركناها من خلالها، إلا أن عدد من يسمع ويفهم هذا التسبيح المحيط بالعالم ما زال قليلًا، وما زال من يبلّغ هذا التسبيح للعالم من أهل القرآن قلّة قليلة جدًّا.

٢- إن حديث القرآن عن تخلّق الجنين ومراحل نموه في بطن أمه لهو أمر جدّ عجيب، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ**

﴿مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٥/٢٢) وفي آية أخرى يشير القرآن الكريم إلى مراحل تكوّن الجنين في بطن الأم مرحلة بعد مرحلة، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١٤/٢٣).

وفي آيةٍ أخرى يسلط الضوء على عملية مختلفة تجري في بطن الأمّ أيضًا، يقول تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦/٣٩).

ومعلوم أنّ الرحم يتشكل من ثلاثة أنسجة من الخارج إلى الداخل، هي: غشاء الرحم (*perimetrium*)، عضل الرحم (*myometrium*)،بطانة الرحم (*endometrium*)، وهي أنسجة تحيط بها أغشية لا تسمح بنفوذ الماء والحرارة والضوء، ويطلق القرآن الكريم على هذه الأغشية ''ظلمات''، وينبهنا إلى أنَّ الإنسان قد خُلِق داخل هذه الظلمات الثلاث.

والآن لنُخَلّ بين أطبائنا وبين تلك الإشارات الوجيزة التي وردت في هذه الآيات وكانت نبراسًا وهدى لعلم التشريح في أيامنا، ولننتقل إلى مثالٍ آخر:

٣- يتحدث القرآن عن كيفية تكوّن اللبن واضحًا جليًّا مثل وضوح اللبن وصفائه، فيقول: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ٦٦/١٦)، فهنا يبين لنا القرآن الكريم كلمة كلمة مراحلَ تكوّن اللبن وكيف أن المادة الغذائية التي يتم تناولها تُهضم أولًا نصف هضم، ثم تخضع لعملية أخرى من التصفية والتنقية في الغدد اللبنية.

٤- وفي القرآن آية باهرة أخرى تشير إلى أنّ كل شيء خُلق زوجين ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٦)، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٤٩/٥١)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٣/١٣).

كانت الذكورة والأنوثة تُعرف عند المخلوقات منذ زمن بعيد، إلا أن تعميم القرآن للزوجية بقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ وقوله ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ جعلها شاملة لكلِّ شيء؛ من أعشاب وأشجار، حتى السلب والإيجاب في السحب والذرات، وهذا أمرٌ يبعث كثيرًا على الحيرة والإعجاب.

٥- يعرض القرآن مسألة خلق الكون بأسلوب تفرّد به، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٣٠/٢١).

ما أجلى هذا البيانَ وما أبينَه! لذا ينبغي ألا يُكدَّر مطلقًا بفرضيات كانط ولابلاس في الماضي، وفلسفات أسيمو في عصرنا.

ويبين القرآن أنَّ الكون إن هو إلا أجزاء من كلٍّ، وأوراقٌ لحقيقة واحدة متماثلة، سواء تكونت من الأثير مادة الخلق الأولى أم من سحابٍ هائل، أم كان الماء الذي هو أساس الحياة قد كفل المناخ المناسب للأحياء بأن تكوَّن من غازات وأبخرة تنبعث من الأرض ثم تعود إليها مطرًا تتشكل منه البحار، ويؤكد القرآن أهمية الماء للأحياء، بدءًا من أشجار الدلب حتى الإنسان.

٦- وللشمس أهمية خاصَّة في الكون جميعه، ويبين القرآن الكريم جانبًا من أهمّ جوانبها بأربع كلمات فقط، فيقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٨).

كما توضّح الآية أن الشمس تجري في مدارٍ خاصٍّ بها، تبين كذلك أنها تنزلق إلى مركزِ ثِقَلٍ آخر، وعندما تنتهي من مهمتها تقف وتستقرُّ في مكانٍ ما.

٧- يتميز القرآن الكريم بثراء معاني كلماته حتى إنه ليذكر عددًا كبيرًا من الحقائق، ويجلي كثيرًا من المسائل المستعصية على الفهم بمثل هذه ببضع كلمات. ومن العبارات القرآنية الأخّاذة البليغة هذه الآية التي تتعلق بمسألة توسُّع الكون:

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٧)، فهذه الكلمات الوجيزة تنبهنا إلى مسألة تعمّ العالم بأسره، وسواء أشرحوا هذه المسألة بـ"ثابتة هابل" أو بطريق آخر، فهذه الآية تثبت التزايد المستمر في المسافة بين الأجرام السماوية، وهي جلية بتركيبها وكلماتها وواضح معناها.

٨- وفي آية أخرى ينبه القرآن الكريم إلى القانون في تقارب الأجرام السماوية وتباعدها ودورانها الدؤوب وتوقفها، فيقول عزَّ مِن قائل: ﴿اَللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ١٣/٢)، فهذه الأنظمة والنجوم والأقمار تتحرك بنظام ما، وفوق عمد لا قبل لنا أن نراه، وهذا هو قانون الطرد المركزي بين الأجرام السماوية، وفي سورة الحج يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٦٥). ففي هذه الآية يشير القرآن الكريم إلى أن الأجرام

السماوية كان من الممكن أن تقع على الأرض لولا أن الله تعالى لم يأذن لها، وهذا هو قانون الجذب المركزي بين الأجرام.

وهذا المعنى الذي أوردته الآية واضح جلي للعِيان؛ سواء تناولنا هذه المسألة من حيث قانون "الجاذبية العامة" عند نيوتن أو "نظرية الحيز" التي ابتكرها عصر الفلك الحديث.

٩- أظنّ أن مسألة الصعود إلى القمر -التي تشغل مساحة مهمة بين القضايا الراهنة- لها أيضًا نصيب من بيانات القرآن ولو بالإشارة، يقول الله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ**﴾ (سُورَةُ الانْشِقَاقِ: ١٩/٨٤)، قد فسرها المفسرون من قبلُ تفسيرات مناسبة، لكنني على قناعة بأن المعنى الذي أشرتُ إليه آنفًا هو الأقرب للصواب من حيث السياق، لأن الآية تأتي بعد قوله تعالى: ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ**﴾ (سُورَةُ الانْشِقَاقِ: ١٨/٨٤).

١٠- وهناك آية رائعة البيان تتعلق بتغير شكل الكرة الأرضية، يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ٤١/١٣).

وهناك احتمال قويّ بأن معنى قوله ﴿**نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ هو تفلطُح الأرض عند المناطق القطبية، وليس تآكل الجبال بفعل المطر والسيل والريح.

١١- وأخيرًا لنضرب مثالًا على التشابه بين الشمس والقمر بهذه الآية: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٢/١٧).

يقول ابن عباس ﷺ في هذه الآية: "القمر آية الليل، والشمس آية النهار"، فيُفهم من هذا أن المقصود من قوله ﴿**فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ**﴾

هو أن القمر قديمًا كان كوكبًا يشع بنوره كالشمس وتكمن فيه الحرارة، ثم أطفأ الله ﷻ نوره وحرارته، وبينما يتحدث القرآن الكريم عن ماضي القمر تارة نجده يشير تارة أخرى إلى مصير الكواكب الأخرى وعاقبتها.

وهناك كثير من الآيات القرآنية كالنماذج العديدة التي أشرنا إليها سالفًا، وكلها توضح أنّ كل مسألة يُعنَى بها الإنسان أقل ما في الأمر أنها وردت إجمالًا في القرآن الكريم؛ وتظهر الوجه الإعجازي للقرآن الكريم بشكل يفهمه الناس جميعًا، وأنه لا سبيل لأحد إلى أن يأتي بمثل ما أتى به.

ولا أريد أن أثقل عليكم، مؤملًا أن يأتي في المستقبل من يقدر على تفسير أمثال تلك الآيات في ضوء الضوابط التي ذكرناها؛ والله تعالى أعلى وأعلم.

عدم إمكانية نسبة القرآن إلى غير اللَّه

سؤال: ألا يمكن أن يكون القرآن من كلام رسول الله ﷺ ؟ إن لم يكن كذلك فكيف يمكن البرهنة على هذا؟

الجواب: لقد كُتب وقيل الكثير في هذا الموضوع، وقُدمت أدلة عديدة أزالت كل تردد في هذه المسألة، ولا نستطيع في الركن الصغير هذا المخصص للأسئلة والأجوبة سوى عرض رؤوس أقلام بإيجاز.

إن الادعاء بأن القرآن وضع من قِبل سيدنا محمد ﷺ أو من قِبل آخرين ادعاء انحصر في بعض رجال العهد الجاهلي قديمًا وعند بعض المستشرقين من أعداء القرآن الذين كثيرًا ما ادعوا هذا، وأرادوا منه تعكير الأذهان. ونحن نرى بأن مشركي الأمس واليوم ليسوا حياديين في تفكيرهم، بل تصرفوا بحقد وعداء. ذلك لأن من يتأمل القرآن بإنصاف وبفكر محايد يتبين أن مصدره إلهي، لأنه في مرتبة عالية بحيث يتجاوز القدرة البشرية.

ونحن نحيل من يريد التحليل الدقيق والعميق لهذا الموضوع المهم إلى الكتب القيمة التي كتبها عمالقة الفكر، ونكتفي هنا بالتذكير ببعض النقاط الرئيسة في هذا المجال:

١- هناك فرق كبير جدًّا بين أسلوب القرآن وبين أسلوب الحديث النبوي بحيث إن العرب بينما كانوا يرون في أحاديث الرسول ﷺ خارج القرآن أسلوبًا مثل أسلوبهم في الحوار، فإنهم لم يملكوا أنفسهم من الحيرة بل الذهول من الأسلوب المعجز للقرآن.

٢- عندما تقرأ الأحاديث تحدس وراءها شخصًا يفكر ويتحدث قد ملأته خشية الله تعالى؛ بينما تجد في القرآن مهابةً وجلالًا وأسلوبًا قاهرًا. لذا فمن المستحيل أن يجتمع في أسلوب شخص وفي بيانه مثل هذا الفرق الكبير والبون الشاسع... هذا غير معقول وغير ممكن.

٣- إن من المستحيل قيام شخص أمّيّ -فديتُه بأبي وأمي- لم ير مدرسةً ولم يقرأ كتابًا بوضع نظام كامل لا نقص فيه ولا قصور... نظام يتناول الفرد والعائلة والمجتمع والاقتصاد والقانون. مثل هذا الافتراض يصادم العقل والفكر والبداهة، ولا سيما إن كان هذا النظام صالحًا للتطبيق طوال عصور عديدة وعند أمم مختلفة وشعوب متفرقة، ولا يزال محتفظًا بنضارته وقوته وقابليته على التطبيق حتى هذا اليوم.

٤- الحياة والوجود في القرآن وما يتعلق بهما من مواضيع العبادات والمعاملات تراها متوازنةً بعضها مع البعض توازنًا مدهشًا بحيث إن قمت بتناسي هذا وإهماله وقمت بنسب هذا الكلام إلى إنسان فإنك تكون قد رفعته فوق مستوى الإنسان. ذلك لأن مسألةً واحدةً فقط من المسائل المذكورة آنفًا تتجاوز الزمن وتتجاوز قدرة أكبر العباقرة. أي إن إسناد هذا الكتاب الذي يحتوي على مئات الأمور والمسائل التي يعجز عن إتيان واحدة منها كبار العباقرة إلى شخص أمي لم ير مدرسةً ولا كتابًا ليس إلا زعمًا باطلًا لا أساس له.

٥- يُعدّ القرآن كلامًا معجزًا بما يحتويه من أخبار الغيب للماضي وللمستقبل، لذا لا يمكن أن يُعد من كلام البشر. فنتيجة للبحوث الجديدة في هذه الأيام ظهر صدق ما أخبر القرآن قبل عصور عن الأقوام الماضية البادية وعن طراز حياتهم ومعيشتهم وعن عاقبتهم سيئةً كانت أم حسنةً. فهاكم مثلًا النبي صالحًا ولوطًا وموسى عليهم السلام وأقوامهم، وهاكم مساكنهم التي أصبحت عبرةً لمن اعتبر.

ومع إعجاز القرآن في إخباره عن أنباء الأمم الماضية، هناك إعجاز قرآني في أخباره المستقبلية. فمثلًا أخبر عن فتح مكة وأن المسلمين سيدخلونها آمنين قبل مدة من فتحها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/٢٧).

وأخبر بأن الإسلام سينتصر على جميع الأنظمة الباطلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/٢٨).

كما أخبر القرآن بأن الساسانيين الذين تغلبوا على الروم سوف يُهزمون في بضع سنين، وأن المسلمين سوف يفرحون يوم انتصار الروم بنصر آخر، وهو انتصارهم في بدر الذي توافق مع انتصار الروم على قول البعض من المفسرين: ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (سُورَةُ الرُّومِ: ٣٠/١-٥). وعندما حان الوقت الموعود تحقق ما أخبر به القرآن.

وشبيه بهذا الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٦٧). فعلى الرغم من كون الرسول ﷺ محاطًا بالأعداء اعتبارًا من عمّه إلى قومه إلى الدول المحيطة به، أعلمه الله تعالى بأنه سيعصمه من الناس، وحقق له ما وعده.

والآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٤١/٥٣).

هـذه الآيـة تقول بأن العلوم سـوف تتقدم، أي العلـوم المكانية (الوضعية) والعلـوم النفسـية، وإن هذا التقدم سـوف يسـوق الإنسـان إلـى الإيمان. وفي أيامنا الحالية تسرع العلوم لبلوغ هذا الهدف وتقترب منه كثيرًا.

ثـم إن القـرآن تحدّى الإنس والجن جميعًا: ﴿**قُـلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِـنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُـوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُـونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٨٨). هذا التحدّي القرآنيّ وقع منذ نزوله في مكة ولا يـزال قائمًـا إلى يومنا هذا. فإذا اسـتثنينا محاولةً أو محاولتين اتسـمتا بالهذَيـان، لـم يتجرأ أحـد للتصدي لهـذا التحدي أو القيام بوضـع شـيء يشابهه. فكان هذا أسطـع دليل على صدقه وإعجازه.

كان المسـلمون فـي السـنوات الأولـى لنـزول القـرآن ضعفـاءَ ومسـتضعفين فـي الأرض لا يملكـون حـولًا ولا قوةً ولا يملكـون فكرةً واضحـةً عـن مسـتقبلهم. فلم تكـن لديهم أدنى فكرة عـن الدولة ولا عن حكـم الدنيـا ولا عـن منابـع القـوة لدينهم الجديد الذي سـيقلب الأنظمة الدولية آنذاك، بينما كان القرآن يقول: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُـمُ الَّذِي ارْتَـضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِـنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًـا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَـيْئًا وَمَـنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ**﴾ (سُـورَةُ النُّـورِ: ٢٤/٥٥). كان القرآن يخاطبهم هكذا ويبين لهم هذه الأهداف السامية ويبشرهم بأنهم سـيحكمون العالم. هناك آيات أخرى عديدة لا نسـتطيع سـردها جميعًا هنـا وهـي تذكر مسـتقبل الإسـلام والمسـلمين وانتصاراتهـم وهزائمهم، وتقدمهم وتأخرهم.

معظـم أخبـار القرآن الكريم حول المسـتقبل ترسـم الحـدود النهائية التي ستصل إليها مختلف العلوم. فما أخبر به القرآن بشكل رؤوس أقلام

مختصراً ومركّزاً حول بعض الحقائق العلمية يذهل العقول ولا يمكن تجاهلها كما لا يمكن إسنادها إلى قول بشر. ولما كانت هناك كتب عديدة تناولت مئات الآيات التي تناولت كثيرًا من الحقائق العلمية بشكل صريح واضح أو عن طريق الإشارة والإيماء فإننا نحيل من يرغب في معرفة تفاصيل هذا الموضوع إلى هذه الكتب القيمة ونكتفي نحن هنا بالإشارة إلى بعض الأمثلة فقط:

١- خلق الكون

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٣٠). هذه الآية متعلقة بخلق الكون، ومع أن هناك خلافًا في تفسير بعض تفاصيلها، إلا أن المعنى العام لها يشير إلى مبدأ خلق الكون. فسواء أكان المعنى للرتق والفتق هو تكوّن المجرات والنجوم من الغازات والسدم، أو تشكل وظهور مجموعات كالمجموعة الشمسية، أو انقسام سحب أو سدم وتجزؤها إلى أشكال ومنظومات معينة متناسقة... فإن المعنى العام لا يتغير في النتيجة. فالآية بالكلمات التي استعملتها وبالأسلوب الذي صاغته احتفظت بجدتها ونضارتها حتى اليوم، وستبقى جديدة في المستقبل أيضًا رغم تساقط جميع النظريات ووضعها على الرف.

٢- علم الفلك

هناك آيات عدة في القرآن الكريم حول علم الفلَك. وكم يتمنى المرء الآن لو جمعت هذه الآيات وتم تحليلها واحدة واحدة، وهذا قد يستوعب مجلدات. سنكتفي هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين فقط:

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (سُورَةُ الرَّعْدِ: ١٣/٢). تذكر الآية رفع السماوات وتوسيعها

ثم تشير إلى النظام الدقيق الموجود في الكون وأن كل شيء يسير في نظام ودقة، وتعطي حوله مثالًا نستطيع مشاهدته ومعرفته. صحيح ليس هناك عمد في الظاهر يمكن مشاهدتها تقوم بالحيلولة دون تشتت قبة السماء، ومع ذلك لا نستطيع القول إن مثل هذه العمد غير موجودة تمامًا. فهناك عمد موجودة ضمن القوانين والمبادئ السارية في الكون، وهي تقوم بمهمّة حفظ الكون من التشتت والانهيار، أي إن وجود مثل هذه العمد ضروري.

عندما نقرأ هذا التعبير القرآني تتداعى إلى أذهاننا قوة الجذب المركزي وقوة الطرد المركزي. وسواء أكان هذا يتوافق مع قانون "نيوتن" في الجاذبية أو مع نظرية "المجال" لـ"أينشتاين" فإنهما سيَّان إزاء الإشارة القرآنية.

والحقيقة أن إشارة القرآن إلى "أن الشمس والقمر يجريان" إشارة مهمة. وقد ورد في سورة الرحمن أن حركة الشمس والقمر تجري بحساب دقيق: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٥/٥٥). وجاء في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٣٣/٢١). وفي سورة يس بعد أن يذكر جريان الشمس تقول الآية: ﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٤٠/٣٦)، أي أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى خلقت تحت نظام معيَّن وأن حركة الجميع في اتساق ونظام رياضيّ دقيق.

تقول آية في قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٥/٣٩). هنا جاء ذكر تكوير الليل

على النهار، والنهار على الليل عند الحديث عن تعاقب الليل والنهار، أي شبه تعاقب الضوء والظلام في الدنيا بلف عمامة على هامة كرتنا الأرضية.

وتذكر آية أخرى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٣٠/٧٩)، أي بشكل "قطع ناقص"، أي إن الأرض بيضوية الشكل، وهكذا يعرض أمام المشاهدين النقطة الأخيرة من العلوم، تلك النقطة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بالوحي السماوي.

وبالنسبة لتوسع المكان تقول الآية: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٤٧/٥١). وسواء أكان هذا التوسّع كما فهمه "أينشتاين" أو كما فهمه "أدوين هوبل" من تباعد السدم بعضها عن البعض الآخر، ولكن المهم هو إشارة القرآن إلى صلب هذا الموضوع وتقدمه وسبقه للعلوم التجريبية في هذا الأمر.

٣- علم الأرصاد الجوية (*Meteorology*)

في معرض تعداد نعم الله تعالى وتذكير الإنسان بها وكذلك في معرض الوعيد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم حول سوق الرياح وتكاثف الغيوم وتكهرب الهواء وتولد البرق والرعد. فمثلًا تقول الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٤٣/٢٤).

وهكذا يقوم القرآن بشرح حادثة المطر، ويبين وجود نعم إلهية وراء أصوات الرعد المخيفة ووراء سنا البرق الذي يذهب بالأبصار، فيدعو أصحاب القلوب الواعية إلى اليقظة الدائمة، ثم يشرح كيفية نزول الأمطار والبرد بشكل غريب بحيث لا يتناقض ولا يتصادم

مع ما هو معروف الآن علميًّا، فلا يملك الإنسان إلَّا الإعجاب ببيانه. ولكن القرآن هنا لا يركز على التفاصيل الدقيقة لحادثة المطر من ناحية وجود شحنتين كهربائيتين مختلفتين، ووجود قوة تجاذب بين الشحنتين المختلفتين وقوة تنافر بين نفس الشحنتين ودخول الرياح في هذه العملية وقيامها بالتأليف بين السحب التي تحمل هذه الشحنات المتنافرة، واتحاد الشحنات الموجبة المرتفعة من الأرض مع الشحنات الموجودة في الفضاء وتولد البرق ونزول الماء على شكل قطرات إلى الأرض.. مثل هذه التفاصيل لا يركز عليها القرآن، بل يشير إلى الحادثة الأصلية ويدع التفاصيل لتقدم العلوم بتقدم العصور.

أما في قوله تعالى ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ٢٢/١٥) فإنها تضيف شيئًا جديدًا لهذا الموضوع فتلفت الأنظار إلى دور الرياح في عملية تلقيح الأشجار والأزهار، إضافة إلى دورها في تلقيح السحب والغيوم. علمًا بأنه لم يكن معروفًا في العصر الذي نزل فيه القرآن حاجة الأشجار والنباتات والأزهار والسحب إلى التلقيح، ولم يكن أحد يعرف أي وظيفة للرياح آنذاك.

٤- الفيزياء

من المواضيع التي يتناولها القرآن موضوع أن المادة التي يتألف منها هذا الوجود مخلوقة بشكل مزدوج. ففي قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٤٩/٥١). فهنا يذكر القرآن أن كل شيء خلق زوجين وأن هذا مبدأ أساسي في الوجود. وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٧/٢٦). فيوجه الأنظار إلى مئات الآلاف

من الأزواج من النباتات والحيوانات التي تزخر بها الأرض ويتم التذكير بالنعم الإلهية التي لا تعد ولا تحصى.

أما الآية في سورة يس فهي أكثر تفصيلًا وشمولًا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٦). تشير هذه الآية إلى الأزواج التي نعرفها من المخلوقات وتقول إن هناك أزواجًا أخرى لا نعرفها وتدعونا إلى التأمل والتفكر.

هناك آيات عديدة أخرى في هذا المجال عدا الآيات التي ذكرناها أمثلة فقط، وكل آية منها تعد معجزةً قرآنيةً تبرهن بأوضح دليل أن القرآن الكريم كلام الله وأن محمدًا ﷺ هو رسوله إلينا.

أجل، لقد تناول القرآن مواضيع علمية عديدة بدءًا من ظهور الحياة على سطح الأرض إلى تلقيح النباتات وتكاثرها، إلى خلق أصناف الحيوانات، إلى دساتيرها الحياتية المليئة بالأسرار، إلى عوالم نحل العسل والنمل الغريبة، إلى طيران الطير، إلى طرق تكوّن الحليب في الحيوان، إلى المراحل التي يمر بها الجنين في رحم أمه...إلخ. وذلك بأسلوب خاص به وحده، أسلوب وجيز ومركّز وبليغ ومهيمن. فإذا وضعنا تفاسيرنا جانبًا فإن هذه الآيات تبقى على الدوام محافظةً على غضارتها ونضارتها وتبقى أهدافًا نهائية للعلم.

إذًا فهذا الكتاب يشير إلى هدف يتجاوز ما يستطيعه الآلاف من الناس بعد جهد عصور عديدة من الوصول إليه يتجاوزه فيلخّص الموضوع بشكل دقيق.. مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يعود لإنسان عاش قبل أربعة عشر قرنًا، لأنه لو حاول مئات من المتخصصين وآلاف من العباقرة اليوم لما استطاعوا الإتيان بمثله.. أي بمثل هذا القرآن الغنيّ جدًّا بمحتوياته وبيانه وأسلوبه الإلهي الجذاب المعجز.

والآن لنسأل مخاطبنا: ممن تعلّم هذا الأمي -الذي كانت أمّيّته معجزةً عليه أكمل التحايا- كيفية تكوّن الحليب لدى الأحياء في عهد لم تكن المدرسة معروفةً فيه ولا الكتاب؟ وكيف استطاع معرفة أن الرياح تقوم بتلقيح الغيوم والنباتات؟ وكيف عرف كيفية تشكل الأمطار والبرد؟ ومن أي مرصد ومن أي تلسكوب عملاق رصد توسع المكان والكون؟ ومَن علّمه أنّ شكل الكرة الأرضية شكل بيضوي؟ وفي أي مختبر تعلم مكونات الجو، وأن الأوكسجين يقل في الطبقات العليا منه؟ وكيف شاهد -وبأي جهاز أشعة أكس- مراحل الجنين في رحم أمه؟ ثم كيف استطاع أن ينقل كل هذه المعلومات إلى مخاطبيه بكل ثقة واطمئنان ودون أي تردد وكأنه خبير متخصص في هذه العلوم؟

٥- مثلما قام القرآن الكريم بتعليم الرسول ﷺ وظائفه ومهامه ومسؤولياته وصلاحياته وأبان له هذه السبل قام أحيانًا بتوجيهه وتنبيهه ومعاتبته أيضًا. فمثلًا نبهه عندما أذن لبعض المنافقين بينما كان من المفروض ألا يأذن لهم فقال: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٤٣/٩). كما لم يوافقه القرآن في موضوع أسرى بدر فقال: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٦٧/٨)، ثم قال: ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٦٨/٨).

وعندما سألته قريش عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين قال لهم رسول الله ﷺ: "**أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا**"، ولم يستثنِ أي لم يقل "إن شاء الله"، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا ينزل الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه

جبريل عليه السلام... حتى أحزن رسول الله ﷺ تأخر الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح[٦١]، وفيها أيضًا تنبيهه ﷺ: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۞ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٨/٢٣-٢٤).

وفي مرة أخرى نزل ما يشم منه عتاب رقيق حول وجوب أن تكون الخشية من الله تعالى فقط: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٣٧).

وعندما حلف ألا يشرب شربة العسل إرضاءً لزوجاته لم يوافقه القرآن في هذا بل عاتبه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سُورَةُ التَّحْرِيمِ: ٦٦/١)[٦٢].

فبمثل هذه الآيات تُشرح مسؤوليات الرسول ووظيفته وحدود صلاحياته من جانب، ومن جانب آخر يُنبَّه ويعاتَب عندما يخرج ولو قيْد أنملة خارج هذه الحدود، أي حدود "المقرَّبين". فهل يُعقل أن يقوم شخص بتأليف كتاب ثم يذكر في ثنايا صفحاته عتابًا وتحذيرًا وتنبيهًا لنفسه؟ حاشا لله.. فالكتاب كتاب الله سبحانه، أما هو ﷺ فرسول رفيع المنزلة ومبلّغ عن الله تعالى.

٦- إن القرآن ذروة في البلاغة، ولا ند أو مثيل له في هذا الخصوص، لذا لا يمكن عزوه إلى إنسان. عندما أعلن الرسول ﷺ نبوته كان هناك

(٦١) سيرة ابن هشام: ١/٣٢٢-٣٢٣؛ تفسير الطبري: ١٧/٥٩٣.

(٦٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ: أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ، فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: "لاَ، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ" فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ (البخاري: الطلاق، ٨؛ مسلم: الطلاق، ٢٠).

العديد من الشعراء وعباقرة البلاغة والبيان ممن كانوا محل إعجاب وتقدير الكثيرين، وكان أكثر هؤلاء في الصف المعارض له. وكم تشاور هؤلاء حول كيفية التغلب على القرآن، حتى إنهم أحيانًا راجعوا رهبان النصارى وأحبار اليهود لأخذ وجهات نظرهم، لأنهم كانوا قد عزموا على إيقاف سيل القرآن وتجفيف نبعه الفيّاض، وكانوا مستعدين لعمل أي شيء في هذا السبيل. وعلى الرغم من جميع هذه العوائق استمر الرسول ﷺ في سبيله يكافح الكفار والملحدين، وسلاحه الوحيد هو القرآن حتى وصل إلى النصر المؤزر رغم أنف كل هؤلاء الأعداء.

وبينما كان بلغاء العرب في جبهة واحدة مع علماء المسيحية واليهودية يقيمون الدنيا ويقعدونها، كان الأسلوب البليغ للقرآن وبيانه الساحر وروحانيته الأخاذة تفتح القلوب وتغزوها... لقد وقف في الميدان وقفةَ مبارزٍ يتحدى خصومه أن يأتوا بمثله، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله، فإن لم يستطيعوا فبآية واحدة، وإلا فنَكِّسوا رؤوسكم وانصرِفوا ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ٨٨/١٧)، ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١٣/١١)، ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سُورَةُ يُونُسَ: ٣٨/١٠)، ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٣/٢).

وهكذا تعاقبت التحديات ولكن لم يستجب أحد لهذه التحديات أو يتجاسر على قبولها، إن استثنينا محاولةً أو محاولتين كان الهذيان طابعهما. وهذا يُبَرْهِن أن منبع القرآن ومصدره ليس بَشَريًّا. ذلك لأن

التاريخ يشهد أن خصوم الرسول ﷺ وأعداءه لم يتورعوا عن أي شكل من أشكال العِداء والإيذاء والمحاربة، ولكنهم لم يفكروا في تقليد القرآن. ولو استطاعوا ذلك، أي لو كان ذلك في وسعهم لما تأخروا عنه قط، ولَمَا كانت هناك حاجة للدخول في الحروب.

أجل، إن اختيار هؤلاء البلغاء والفصحاء طريق الحروب التي تتعرض فيها الأنفس والكرامة بل حتى الأعراض إلى الخطر، يبرهن على عجزهم عن تحدي القرآن. ولو كان باستطاعتهم تقليد القرآن أو الإتيان بمثله لَمَا تأخروا عن ذلك ولما اختاروا طريق الخطر وهو طريق الحرب.

وبعد ثبوت عجز بلغاء العرب عن الإتيان بمثيل للقرآن، فإن البحث عن منبع القرآن ومصدره في علماء أهل الكتاب من يهود أو نصارى بحث عقيم ودليل على العجز. ولو كان في مقدور اليهود والنصارى الإتيان بكتاب غني بمحتواه مثل القرآن لم ينسبوه إلى شخص آخر، بل كانوا يفاخرون الناس بمثل هذا الكتاب الذي وضعوه.

ثم إننا إن صرفنا النظر عن بعض المستشرقين والكفار فإننا نرى آلافًا من المفكرين والباحثين ورجال العلم الذين أبدوا إعجابهم وتقديرهم لما في القرآن وبلاغة أسلوبه من معنًى ومبنًى ثريّ:

• ''جارلس ميلر'': إن القرآن ببلاغة أسلوبه وغِنَى محتوياته في مستوًى يصعب ترجمته.

• ''فيكتور أمبروس'': إن القرآن غَنيّ المحتوى إلى درجة يصلح معه لأن يكون منبعًا لجميع القوانين.

• ''أرنست رينان'': إن القرآن أحدث ثورة أدبية كذلك بجانب الثورة الدينية.

• ''كوستاف لوبون'': إن الدين الإسلامي الذي أتى به القرآن يحمل أصفى عقيدة توحيدية وأنقاها.

• ''ك.أ. هيوارت'': إنه يؤمن بأن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ.

• ''هـ. هولمان'': إن محمدًا ﷺ هو آخر نبي أرسله الله تعالى للناس، وإن الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية.

• ''أميل درمنهيم'': إن القرآن هو المعجزة الأولى للرسول ﷺ وإنه بجماله الأبدي سيبقى لغزًا لا يمكن الوصول إليه.

• ''آرثر بللغزي'': إن القرآن الذي قام محمد ﷺ بتبليغه هو من عند الله.

''جين بول روكس'': إن أكبر معجزة لرسول الإسلام هو القرآن الذي أنزل وحيًا عليه.

• ''رايموند جارلس'': إن القرآن هو أكثر كتب الوحي الإلهي -المبلغ إلى المؤمنين- حيويةً.

• ''موريس'': إن القرآن معجزة وفوق كل نقد، والذين يشتغلون بالأدب يجدون فيه مصدرًا أدبيًا، أما المتخصصون في علم اللغة فيجدون فيه خزينةً كبيرةً للألفاظ، وهو منبع إلهام للشعراء.

• ''مانويل كنج'': إن القرآن هو المجموع الكامل لما تلقاه النبي من الوحي طوال سنوات نبوته.

• ''رودويل'': إن الإنسان ليزداد ذهولًا كلما أمعن في قراءة القرآن، ولا يملك إلا الإعجاب به وتبجيله...

ما نقلناه أعلاه ليس إلا بعض الجمل من بعض رجال العلم والفكر، وهناك مئات غيرهم توصلوا إلى النتيجة نفسها، وذلك حسب سعة فكرهم، ولم يجدوا أمامهم سوى إبداء الإعجاب والتقدير للقرآن الكريم. وما كان لنا أن نقول شيئًا حول القرآن الكريم بجانب العديد من الأساتذة والمختصين وبجانب الكتب القيمة جدًّا في هذا الموضوع، ولكننا أردنا مشاركةً بسيطةً في هذا الأمر، وعسى أن يغفر لنا صاحب القرآن ﷻ هذه الجرأة.

الغيبيات الخمس

سؤال: **يُذكر في آخر سورة لقمان أن نزول المطر وعلم ما في الأرحام في خمس لا يعلمهنّ إلا الله، إلا أن هذين الأمرين قد خرجا عن الغيبيات اليوم، فماذا تقولون في هذا؟**

الجواب: أتذكر أنّا تحدّثنا عن هذه المسألة، وفصّلنا فيها القول، لكنّي كلما سُئلتُ عن مسألة قرآنية لم أجد بُدًّا من الإجابة عنها وإن مرارًا وتكرارًا؛ فما من مسألة قرآنية إلا وهي في عظمتها وشموخها كالجبال الرواسي، فسأطاوع مشاعري وأذكر شيئًا في المسألة.

يقول الله تعالى في آخر سورة لقمان: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣١/٣٤).

المسألة الأولى: يذكر القرآن الكريم أن الله ﴿**عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾، ويجعل من هذه الحقيقة أساسًا، ليس لأيّ شخص أن يُدلي بدلوه فيها أو يتفوه ولو بحرف اللهم إلا بعد أن يقول: "الله أعلم".

في حديث جبريل المشهور المرويّ عن سيدنا عمر بن الخطاب وأبي هريرة رضي الله عنهما يسأل جبريل عليه السلام النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان فيقول بعد كل إجابة: "صدقتَ"، وأخيرًا سأله عن الساعة فقال ﷺ: "**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**"(٦٣). أجاب سيدنا رسول الله ﷺ

(٦٣) البخاري: الإيمان، ٣٧؛ مسلم: الإيمان، ١.

على هذه المسألة الغيبية بأدب نبويّ، لأنه ﷺ وجبريل عليه السلام كانا يشتركان في علم أنه لا يعلم وقت القيامة إلا الله.

أما كيفية قيام الساعة فهناك أسباب كثيرة في دائرة الإمكان يكفي أحدها لقيامها، كاصطدام نجم مذنب بالأرض.. وانشطار الشمس أو انطفائها وَفقًا لقانون الديناميكية الحرارية.. وظهور سلسلة تفاعلات بخطأ يرتكبه الناس على الأرض، فينتج عنها تدمير النظام الشمسي وهكذا.

المسألة الثانية: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، وهي من أكثر ما يُثار حولها الجدل، يقولون تبعًا لمنطقهم: "لنا اليوم أن نعلم متى ينزل المطر، بناءً على نتائج علم الأرصاد الجوية؛ إذًا لا معنى لقولنا إنها من الغيبيات..."

إن الذين يختلقون مثل هذا السؤال يهدفون إلى تلبيد سماء القرآن الصافية بالشبهات، وحساسيتنا في الإجابة عنه تنطلق من هذا السبب.

ترى! ما العلاقة بين ما يدّعون معرفته بالتقنيّات الحديثة وبين الغيب؟

نعم، إن تنبؤهم بوقت نزول المطر -وقد لاحت في الأفق أماراته وبدأت تظهر في عالَم الشهادة علاماته- لا يمتُّ إلى معرفة الغيب بِصلة.

وهاك مثالًا يسيرًا يوضّح المسألة:

نفترض أننا عبّأنا غرفة بثاني أكسيد الكربون، ولما أجرينا تجاربنا بآلات تكشف عن وجود ثاني أكسيد الكربون كانت النتيجة: بعد ساعتين سيشعر من بالغرفة جميعًا بثقل وصداع، فإذا ما وقع هذا أفيكون علمًا بالغيب؟ كلّا، فهذا ليس غيبًا، فالغيب هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، فمثلاً معرفة وقت نزول المطر ومكانِه وقدْرِه تفصيلًا في سنة أو سنوات قادمة هذا يُعدّ غيبًا، أمَّا التنبؤ بنزول المطر غدًا في مكانٍ ما فليس من الغيب في شيء، ومع هذا إن عدم وقوع تنبؤاتهم أحيانًا يُثبِت أن معرفتهم

بالأمـر ناقصـة؛ وإن المتخصصيـن في هذا العلـم هم يسـمّونه ''تنبُّؤًا''. وفضـلًا عن السـنة القادمـة، هل لهؤلاء أن يعلموا شـيئًا عـن قدر المطر الذي سينزل غدًا؟

وإن العلـم بوقـت نـزول المطر إذا لاحـت أَماراته في عالم الشـهادة لا يعـوزه آلات ولا أدوات، فهنـاك كثيـرون مـن النـاس يتنبـؤون بذلـك بتجربتهم وخبرتهم، ومن المناسب هنا أن أكرر حادثةً ذكرتها من قبل:

زار بعـضُ العلمـاء الأمريكيين تركيا، لإجراء بحـث خاصّ، وقابلوا راعيًـا فـي قرية، وبعـد مدة سـاق الراعي المعـز نحو المربض، فسـألوه عـن ذلك، فقال: يوشـك المطر أن يهطل، فتحيروا ودهشـوا، فلا شـيء ينبـئ بذلـك مـن علامة في الجو أو إشـارة فـي مقياس الضغـط الجويّ ''البارومتـر''، ومـا مضت مـدّة حتى بدأ المطـر يهطل بغـزارة، فهرْوَلوا إلـى المربض وسـألوا الراعـي: كيف عرفت؟ فـكان جوابه مثيـرًا غريبًا: من خلال تجربتي منذ سـنوات شـاهدت ذيل المعـز ينكمش قُبيل نزول المطـر، فعرفت أن المطر سـيهطل، فألقَوا مـا بأيديهم من آلات، وقالوا: ''لَذيلُ المعز أنفـع منكِ!''

يقـول الأسـتاذ بديـع الزمـان: ''إني أشـعر أحيانًا بشـعور مرهف في أعصابي بـما سيأتي من الغيث قبل مجيئه بأربـع وعشرين ساعة''. والتنبؤ بنـزول المطر والثلج شـائع في القُرى استئناسًـا بعلامات وإشـارات ما، فليس من العلم بالغيب إذًا أنْ نعلمَ وقت نزول المطر بهذه الصورة وتلك الحسابات، فالاعتراض على حكم القرآن بإظهار التنبُّؤ بوقت نزول المطر على أنّه علم بالغيب جهلٌ محض، كيف وهناك حسـابات معيّنة وأَمارات ظاهـرة نتجـت عن عوامـل جويّة مثل وضـع السـحابة المحملـة بالمطر، والضغط الجوي، وأنظمة الرصد الجوي؟

وأودُّ أن أعـرِض للإعجـاز العلمي في السـنة النبوية في حديث أقرَّت البحـوث العلميـة الحديثة بمفاده: "**مَـا عَامٌ بِأَمْطَرَ مِـنْ عَامٍ**"(٦٤)؛ أي معدَّل المطـر لا يختلـف بين عام وآخـر، أمَّا قدْر ومكان نـزول المطر فذاك هو الغيب الذي لا يعلمُه إلا الله.

المسـألة الثالثـة: ﴿وَيَعْلَـمُ مَا فِي الأَرْحَـامِ﴾، ويجادلون في هـذه أيضًا، يقولون: إن الأشـعة السِّـينيّة تتيح لنا اليوم تشخيص حالة الجنين، ومعرفة نوعه ذكرًا كان أم أنثى.

ولمـا كان العامـل فـي الذكورة والأنوثـة هو ذكورة الحيـوان المنوي أو أنوثته فمن الممكن أيضًا تحديد جنس الجنين في هذه المرحلة.

والأصل الذي ذكرناه آنفًا يأتي هنا أيضًا، أعني ليس من الغيب معرفة شيء أصبحت مقدماته ظاهرة للعِيان.

فتحديـد الحيـوان المنـوي الذكر -فـي الرحم أو فـي الأنبوب- ليس من الغيب في شيء؛ لتقدُّم العلم بالأسباب الدالّة عليه.

يقـول ﷺ: "**إِذَا سَـبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَـرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَـبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَـتْ**"(٦٥)؛ وأخطـأ التأويـل مـن لـم يفهـم الحديـث، وتوهّـم أن الغلبة إذا كانـت للرجـل كان المولـود ذكـرًا، وإن كانـت للمـرأة كان أنثـى. ولعل الصواب في تأويله: إذا سبقَ الحيوان الذكريُّ الأنثويَّ ولقّح البويضة كان المولود ذكرًا، وإلا كان أنثى.

وهذا من الإعجاز العلميّ في السنة النبويّة، واليوم يقرّره العلماء.

فمـن عرف مسـألةً كهذه بعد ظهور مقدّماتها، وعـدَّ هذا علمًا بالغيب فقد خدع نفسه.

---

(٦٤) المستدرك للحاكم: ٤٣٧/٣، السنن الكبرى للبيهقي: ٥٠٧/٣.

(٦٥) البخاري: المناقب ،٥١؛ تفسير سورة البقرة، ٨؛ مسند الإمام أحمد: ١٠٨/٣.

وعندما ذكر القرآنُ الكريمُ المسألةَ قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، وكلمة ''ما'' في الآية من ألفاظ العموم؛ أي إنَّه سبحانه يعلم كلّ ما في الأرحام، وليس في الآية ما يخصص العموم ليقصره على الذكورة والأنوثة؛ فهو سبحانه يعلم نوع المولود كما يعلم مراحل حياته كلها؛ مستقبله، وطباعه وخصائصه وعيوبه، وشقي أم سعيد، فهو وحده سبحانه من له علم هذه المسائل كلها.

فالغيب في هذه المسألة هو كل ما يدخل في عموم لفظ ''ما''، لا الذكورة والأنوثة فحسب، فحديث القرآن عن المسألة عامّ شامل، فمعرفة ما شمله الحدُّ القرآنيّ علمٌ بالغيب، وما سِوى ذلك دعاوى هدفها الجدلُ والتضليلُ.

ولتقريب المسألة إلى الأذهان إليكم هذا المثال:

لو أنّكم أمام شجرة تفاح، جذرها وجذعها حيثُ أنتم، وفروعها وأغصانها من ناحيةٍ أخرى لا ترونها، ولما جاء الموسم قلتم: أغصان هذه الشجرة المستورة عنّا مُثقلة بالثمَر، فهل هذا الاستنتاج من العلم بالغيب أم أنّه أمر ربما يدركه الناس جميعًا وينتبهون إليه عادةً؟ لو سُئلتم فلا ريب أنكم ستختارون الجواب الثاني، وهكذا القول في معرفة حال الجنين بناءً على مقدمات سبقَت، فهو ليس من الغيب في شيء، بل هو نظير التنبؤ بثمر شجرة جذعها في عالم الشهادة وأغصانها في عالم الغيب، وإنّ نفث السموم لتلبيد سماء القرآن الصافية بالغيوم ودعوى أنّ معرفتهم تلك علمٌ بالغيب لهو عينُ الحماقة والبلاهة.

المسألة الرابعة: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، لا ينبغي تقييد هذا بالكسب الماديّ، فالعطاء ماديًّا كان أم معنويًّا كسب، وما يحظى به المرء من الطمأنينة كسب، وزيادة العلم أيضًا كسب، وهو وحده سبحانه

مَن يعلم قدْر هذا الكسب، فربّما يقرأ المرء أسفارًا ولا يرجع منها بشيء، وقد يقرأ معلومةً تعدِل كتابًا وتستثير مصادر الإلهام كلَّها لديه.

ولو فكرنا في الكسب المادي فقط، لوجدنا أيضًا أن الإنسان ولو ذا راتب مستقرّ لا يدري ماذا يكسب غدًا. فذو التجارة والحرفة لا اختلاف في عدم علمه، أما ذو الراتب فقد يكافأ أحيانًا وقد يفاجأ بعقوبة، فيتغيّر ما يتقاضاه، وقد تنزل به مصيبة تُوقِع على الوارد والمصروف ما لا يُتوقع؛ نعم، قد يُهدَى إلى الإنسان شيء قيمته باهظة مما لم يكن في الحسبان، بل لم يكن قبل خمس دقائق متوقعًا؛ والأمثلة كثيرة، فنتفادى التطويل، ونقول كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا**﴾.

والمسألة الخامسة: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾، علمها عند الله ﷻ، وإننا لَنجهل حقًّا متى سيأتينا ملك الموت أو أحد أعوانه ليقبض أرواحنا، وهذا أمر مسلَّم به.

حديث القرآن عن أشخاص كأبي لهب

سؤال: ما الحكمة من حديث القرآن عن أمثال أبي لهب؟ هل هذا يوافق فصاحة القرآن وبلاغته؟

الجواب: كان أبو لهب -واسمه عبد العزّى- رجلًا عنيدًا شقيًّا حُرِم النور النبويّ رغم نشأته بجواره، ونزلت فيه سورةٌ، يقول الحق ﷻ: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾ (سُورَةُ الْمَسَدِ: ١١١/١-٥).

أجل، لطالما وظَّف أبو لهب الإرادة التي منحها الله له في الشر، فألقى الأشواك في طريق رسول الله ﷺ، وأضرم النار في طريقه إلى الكعبة، والجزاء من جنس العمل، ﴿**سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾، وهذه إشارة لطيفة، فالقرآن الكريم يذكر هذا المكابر بلقبه ﴿**أَبِي لَهَبٍ**﴾ أي "أبي النار".

لقد وقف هذا الرجل في وجه الدعوة الإسلامية وحاول صدها عن إعلاء كلمة التوحيد ونشرها، وحاك المكايد والمؤامرات طول حياته ضد الإسلام والمسلمين، فخاب سعيه، وباءت محاولاته كلها بالفشل، ما أغنى عنه ماله الذي آل إليه من ثروة بني أمية ولا ثراء زوجته أم جميل ولا ما اكتسبه هو، وما كان لأولاده الذين يفخر بهم يدٌ في نجاته.

تخلّف عن المشركين في معركة بدر لعُذْر، ولما بلغه نبأ انتصار المسلمين انهارت أعصابه، وجاء النذير ليحدِّث أهل مكة بحدَثٍ لم يتوقّعوه، يحدثهم عن جنود بعمائم صفراء يحاربون مع المسلمين،

وكان بينهم صحابي يُدعَى أبا رافع يخفي إسلامه، فلما سمع هذا الكلام لم يتمالك نفسه وقال: ''هؤلاء والله هم الملائكة''، فجُنّ جنون أبي لهب وانقضّ عليه ليطأه بقدمه.

كان أبو رافع مملوكا للعباس بن عبد المطلب ﷺ، فهرولت إليه زوجة العباس السيدة أم الفضل، وانهالت على رأس أبي لهب بِعَصًا في يدها قائلة: ''أتضرب عبدًا غاب عنه سيده؟'' فلم يردّ أبو لهب على زوجة أخيه، واتَّجه إلى بيته ويداه ملطختان بالدماء، وما خرج منه بعدئذ، وبهذه الضربة أو بشيء آخر أصيب أبو لهب بمرضٍ عُضال يُسمَّى ''عدسة''، ويُعد هذا المرض حينئذ أخطر من مرض الطاعون، فلم ينفعه ماله ولا ولده، وظل يتلوى ويشتكي سبعة أيام، ثم هلك وليس بجواره أحد، لم يجرؤ أحد على الدخول عليه لحمل جثته ودفنها، وأخيرًا استحيوا فاستأجروا مِن أعراب الصحراء مَن يحمل جثته المتعفنة إلى حفرة، ثم أهالوا عليها التراب.

ما أشدَّ قرابته من سيدنا رسول الله ﷺ ! ومع ذلك لم يوفَّق ليستنير بنوره، بل أصبح ألدَّ أعدائه؛ فوجب له العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وها هو ذا قد نال عقابه في الدنيا، وهو على موعد مع عقاب الآخرة.

كانت أم جميل زوجة أبي لهب ثريةً نسيبةً من بني أمية، شديدة العداء لرسول الله ﷺ ، وكأن عداوتها له تروي ظمأها وتُمتِّعها، ولسوف تلقى في الآخرة جزاء ما فعلت في الدنيا.

كان أبو لهب رجلًا عنيدًا، قال عنه أبو جهل: ''إياكم أن تغضبوه، فإنه إذا مضى لأمر لا يستطيع أحدٌ ثَنْيَه عنه''، وهو محقّ في هذا. استخدم عناده لمواجهة رسول الله ﷺ، وأسرف في عداوته له، فتكاتف مع زوجته وعظّما الأصنام التي في الكعبة، ولم يجتهدا ولو مرة واحدة في التعرف على شخصية رسول الله ﷺ الذي تربَّى بينهما، وهو إنسانٌ فهرستٌ

عنده مفتاح حقائق الكون كله، بل ما شعرا بالحاجة إلى الاستفادة من تلك الشخصية العظيمة، رحمةِ الله للعالمين صلوات ربي وسلامه عليه.

كان أبو لهب عِلاوة على ذلك يسيء إلى رسول الله ﷺ، ولو طال عمره فعاش إلى يوم القيامة لما تغيرت طويّته ولفعل ما كان يفعله؛ فهو ممن ناصر أبا جهل وأمثاله في الحصار الاقتصادي على المسلمين، حصار دام نحو ثلاث سنوات، قضاها الرسول ﷺ والمسلمون في صراع مع الموت، وأَوْدَتْ بحياة كثير من الأطفال والشيوخ، كلّ ذلك ولم تتحرك ذرة من الشفقة أو الرحمة في قلب أبي لهب؛ فهو إنسان بلا قلب أو ضمير.

في الواقع شفّ الهمُّ والحزن أمَّنا خديجة ﵂ يومئذ، فلم تحتمل ما نزل بالمؤمنين من الظلم، فتوفيت حينها وكأنَّها أرادت أن تخلّد ذكرى عام الحزن، ثم توفي أبو طالب في العام نفسه، لكن وا أسفاه لم يستطع أن يدرك ركب الهداية، لكنه لحبه لرسول الله ﷺ تحمّل مثل ما نزل بالمسلمين من الأذى والظلم.

وعندما أذكر أبا طالب أشعر بألم يسري في أعماق قلبي، وتفيض عيناي في معظم الأحيان وأبكي، يا لَه من حدَثٍ مؤسف أن يرحل مَن نصر النبي ﷺ ورعاه دون أن يدرك ركب الهداية! وسيدنا أبو بكر ﵁ أيضًا بكى من أجل ذلك:

عن ابن عمر ﵄ قال: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ بِأَبِي قُحَافَة يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْخًا أَعْمَى يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ حَتَّى نَأْتِيَهُ؟**" قَالَ: "أَرَدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَأْجُرَهُ اللهُ". فَلَمَّا مَدَّ أَبُو قُحَافَة يَدَهُ يُبَايِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**مَا يُبْكِيكَ؟**" قَالَ: "لَأَنْ تَكُونَ يَدُ عَمِّكَ مَكَانَ يَدِهِ ويُسْلِمَ ويُقِرَّ اللهُ عَيْنَكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ"[٦٦].

(٦٦) المعجم الكبير للطبراني: ٤٠/٩؛ الإصابة لابن حجر: ١٩٩/٧.

ولا ينبغي أن نسيء الأدب وندّعي أننا أرحم من الرحمة الإلهية، لكنني لا أستطيع أن أتمالك قلبي، ولَكَم وددتُ أن تكون تسعة أعشار حسناتي لأبي طالب ولا يبقى لي منها إلا واحدة وينجو هو، ربما أكون قد تجاوزت حدي في هذا ولكن كما ذكرت من قبل إنني لا أتمالك قلبي؛ فهذا الرجل حمى سيدي رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه سنين عددًا، ونصره ورعاه، وتحمل الأذى والمعاناة من أجله؛ إلا أننا لا نستطيع أن نقول شيئًا أكثر من ذلك، وليس لأحد أن يقول شيئًا؛ فأبو طالب لم يعتنق الإسلام، فبات هذا مانعًا يحول دون شفاعة الرسول ﷺ له في الآخرة.

وبينما كان عمه أبو طالب يذود عنه ﷺ ويدفع عنه أذى المشركين، كان عمه الآخر أبو لهب يرى أنه ﷺ يستحق أن تنزل به -حاشا وكلا- صنوف الأذى والعنت كلها.

كان رسول الله ﷺ يتردد على القبائل واحدة تلو الأخرى يحدثهم عن الدين الحق ويدعوهم إلى الإسلام، وكان وراءه من يتعقبه كما الظل، أحمر الشعر والوجه، يكذّبه على الدوام، ومن هو هذا الرجل سوى أبي لهب.

وبينما الأباعد من القبائل والعشائر يأتونه ﷺ من أقصى الأرض ليبايعوه ويسعون لعقد قرابات وصِلات معه كان أبو لهب يفعل العكس، يبتعد عنه، وكأن الجَفاء مهمته ووظيفته، كيف كان هذا المكابر أعمى، لقد بلغ به العمى أنه لم ير الشمس ومنبع النور الذي تفجر بين عينيه وبلغ عنان السماء.

إذًا أما كان هذا الرجل المعاند حقيقًا وجديرًا بوصف القرآن له: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (سُورَةُ الْمَسَدِ: ١/١١١)، أليس ترك القرآن لبيان صفته تضييعًا لحقوق مليارات المؤمنين؟ نعم، لولا ذلك لما أمكننا أن نوفق بينه وبين الأسلوب القرآني المفعم بالحكمة والمصلحة؟

ثانيًا: أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ آيات بينات تتحدث عن كثيرين أساؤوا للإسلام والمسلمين، ومنهم الوليد بن المغيرة، قال عنه القرآن: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٧٤/١٨-١٩). والوليد هو والد سيدنا خالد بن الوليد ﷺ، وهو من ألدّ أعداء رسول الله ﷺ، كان ديدنه إلصاق التُّهَم والافتراءات برسول الله ﷺ، فوصفه بالشاعر مرّة، وبالكاهن مرة، وبالساحر مرة أخرى، ثم قرر بعد عِراك وحراك أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ووصف رسول الله بالساحر، فوبّخه القرآن على قراره هذا وأنكر عليه فعلته وقراره فقال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٧٤/١٨-١٩).

ومضى القرآن في زجره ووعيده لكُفّار آخرين، فلو ترك ذكر أبي لهب فهل يا ترى يتناسب هذا ومنهج القرآن الكريم في الإحاطة بالقضية بكل جوانبها؟ فلو كان ذلك لخرج علينا من يقول: "إن القرآن الكريم ستر أبا لهب -وهو الذي عادى رسول الله أشد العداء- وترك الحديث عنه لقرابته من رسول الله ﷺ". فلم يفسح القرآن الكريم المجال لذلك، وألحق أبا لهب بقائمة أمثاله من المشركين.

ثالثًا: نزلت هذه السورة في مكة، وهلك أبو لهب في العهد المدني بعد غزوة بدر، فهذا يعني أن هذا إخبار بالغيب أن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين، وقد وقع ما ذكره القرآن عنهما حقًّا. كما أشار النبي ﷺ لأصحابه إلى مصارع رؤساء المشركين في بدر، فتردّى كل واحد منهم في المكان الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، فقوّى هذا الخبر الغيبيّ عزيمةَ المؤمنين وشحذ طاقتهم المعنوية. وفي هذه الأخبار إنذار وتنبيه للمؤمنين، وإعلامهم بوقوع كل ما وعد به القرآن، وهذا يعني أن وعد الله للمؤمنين بالنصر سيتحقق لا محالة، ومثل هذه التأييدات أمور لا يُستهان بها في عهد كان الجميع

فيه ينابذهم العداء، بل على العكس لقد كانت ضروريةً ولازمةً بالنظر إلى النتيجة التي تمخضت عنها.

أحيانًا تكون مصيبةٌ صغيرة سببًا في تيقظ الإنسان وأَوْبَتِه إلى رشده فيفوز بأشياء في حياته المعنوية لو انكشف الحجاب عنها لتمنى الناس جميعًا من صميم قلوبهم أن تنزل بهم تلك المصيبة، وما يناله المرء بعدُ يخفّف من حدة المصيبة ويهوّن من شأنها. فلو لم يحدثنا القرآن عن عاقبة مثل هؤلاء وخسارتهم المحققة فهذا لن يؤثر في النتيجة شيئًا. وها قد حدث ما حدث، وسينال هؤلاء عاقبتهم المقدرة لهم.

نعم، تحدث القرآن الكريم عن شخصين وما ينتظرهما من عاقبة وخيمة، فهذا وإن كان يبدو للوهلة الأولى كأنه أسلوب مُهين، غير أن له بلا ريب حِكمًا أخرى تحل محل هذا الإحساس الذي يرد إلينا بدايةً، منها إثارة مشاعر ملايين من الناس للتعرُّف على ذاتيتهم، وأقلها أن يعتبر الناس ويحذروا في تصرفاتهم حتى لا يصيبهم ما أصاب المذكورين. وبهذا ندرك كم هو مهمّ أن يتحدث القرآن الكريم عن أبي لهب وأمثاله، فهذا يرجع بفائدة كبيرة على المؤمنين نفسيًّا وتربويًّا.

رابعًا: علاوةً على ما ذكرناه نقول أخيرًا: كما كان هذا التأثير النفسي سببًا في يقظة طائفة المؤمنين كان كذلك سببًا في سريان الريبة والشك إلى قلوب المشركين تجاه عقيدتهم. فهم لما تحوّل كفرهم المطلق إلى شك وريبة تيسر أمر سلوكهم طريق النور، فبتضييق الشكوك والشُّبَه وجد تصديقُهم المضمر في جوانحهم منافذَ يلج منها إلى العقل والقلب، وما مضت مدة حتى بدأت تظهر النتائج الإيجابية لهذا الأمر.

ثم خلع كثيرون عباءة الكفر ولبسوا حلة الإيمان، وانطلقوا في سبيل الدعوة والإرشاد، وهذا المكسب ليس بهيّن للإيمان والإنسانية.

وإحراز مثل هذه النتائج العظيمة بالحديث عن عواقب بعض الأشخاص أسلوب معجز لا يكون إلا للقرآن، فهو مظهر من مظاهر بيانه الحكيم، بل إنه لم يتسنّ لأي كلام آخر أن يحقق مثل هذه النتائج المبهرة.

وهذا مثال لعمقٍ وتنوعٍ منقطعِ النظير للأسلوب القرآني، فمثله كمثل آلاف الدوائر تنداح بضربٍ الماء بحجر صغير. أجل، إن هذه التموجات ما زالت تخفق لها قلوب آلاف بل ملايين من الناس حتى اليوم؛ لقد نزل القرآن الكريم بأسلوب معجز اهتدى به الملايين من خلال إخباره بموت فلان من الناس على الكفر منتهجًا تشويق الترغيب وزجر الترهيب، وهذا أيضًا موافق تمامًا لبيان القرآن وفصاحته وبلاغته، وهذا من صميم حكمته وصلاحه لحياة العباد.

العلاقة بين القدر والإرادة

سؤال: **أجل الإنسان مقدَّر وقتًا وكيفًا، فما ذنب القاتل؟**

الجواب: وقتُ الموت وكيفيتُه مثل كل شيء مقدَّر من قبل؛ أي ما يجري للكائنات كافّةً يأتي مثله في الإنسان ومحياه ومماته، فالوجود بطرقه المعلومة، واستمراره وفق أسس معينة، ثم الخروج من مسرح الحياة بعد حين، حقيقةٌ لا مفر منها، وهي مصير كلِّ موجود سوى الله تعالى؛ فكل شيء يولد وينمو -ودائرة القدر بسعتها وشمولها تحيط به- في خطّ معلوم، ثم ينمحي أخيرًا ويتلاشى، هذا سبيل لا يتبدل، وهو نظام ثابت سرمديّ.

إن العلوم الطبيعية -بمبادئها الراسخة وقواعدها العالمية- التي اكتشفت وتطورت في هذا الكون الهائل الذي يجري وفق نظام مدهش وتناغم يذهل العقول بدءًا من الذرات إلى المجرات، لَتدلُّنا على أنَّ لكلِّ شيء تقديرًا قبل حدوثه وقدَرًا مقدورًا؛ فدون وجود مثل هذا التخطيط الأولي لا يمكن إيضاح النظام والتناغم الموجودين في الكون، ولا يمكن لأي علم من العلوم الطبيعية المتعلقة بهذا النظام أن يتطور. فلم تتمكن البشرية من إجراء تجارب في مختبرات فيزيائية ومن تعلّم علم التشريح وتعليمه ومن غزو الفضاء وفق قواعد معينة ثابتة إلا بفضل حركة الكون وفق قواعد هندسية رياضية دقيقة كلَّ الدقة.

ومـا كان لنـا أن نتحدث عن أي علم طبيعي فـي كون لا تناغم فيه ولا نظـام، وفـي عالم لا تخطيط فيه ولا تنسـيق وفي طبيعة تسـودها الفوضى. فما العلم سوى عدسة لقواعد موجودة ومبادئ قائمة... يكشف عنها ويبيّنها ويسـمّيها بأسـماء معينة. وليس في هذا حطّ من قدر العلوم والاكتشـافات، بـل نـودّ أن نقدرها قدرها ثم نقول: ثمة أمـور أهمّ منها لا بد أن ننتبه إليها، وهـي أن النظـام والتناغـم كقلـب ينبـض فـي صـدر الكـون، ومـا العلوم والاكتشـافات إلا كاشـفة لهمـا؛ فما أجلَّ وأعظـمَ القدرةَ التـي أقامت هذا النظام بقدر أي بتخطيط سابق عمَّ الكونَ وغدا أساسًا له؛ واليوم نجد بعض علماء الاجتماع يحاولون تنزيل القوانين السارية في الكون على المجتمعات الإنسانية، وهذه جبريّة مُفرِطة لكنها رغم ذلك تحمل معاني مهمّة، فهي تُقِرّ بتخطيط أزلي يعتمد عليه هذا النظام والتناغم الكوني الشامل.

والحقّ أنّ كل حقيقة تتعلق بالعقيدة لَهي أسمى وأعلى من أن نحتاج لها إلى تأييد خارجي أو إلى اعتراف خارجي، ولكن بينما ندعو جيلًا بائسًا تلوثت نظرته بهذه الأمور الخارجية وأزاغت الشـبهات قلبه إلى اسـترداد مكانته الصحيحة، نرى فائدة في ذكر تناقضات الذين أضلّوه ولو بإشـارة، لـذا أطنبنـا فـي هذا وخرجنا عـن الصـدد؛ وإلا فإن حركـة الكون أجمع مـن ذراتـه إلى مجراته وفق نظام وتناسـب وتناغم كبيـر تبرهن على قدرةٍ وحاكمية وسيطرة شاملة تُقدِّر وتنظِّم، فالعوالم كلها منذ نشأتها حتى يومنا هذا تحت هذه الحاكمية المطلقة تنقاد لها وتتقلب بها من حال إلى حال.

الخلق الأول للإنسان ولمخلوقات تتمتـع بالحرية والإرادة وإن كان غير مقيّد بإرادتهم كسـائر المخلوقات، إلا أن ذوي الإرادة ليسـوا كالمخلوقات الأخـرى ألبتـة فيمـا يقـع تحـت إرادتهـم؛ وبهـذا الاختلاف يغـدو للقدر "التعييـن الأزلـي" لدى الإنسـان وأمثالـه ماهية مختلفة ومسـار مختلف.

نعـم، فمن يطرح هذا السـؤال لم يسـتطـع حدس هذا الفـرق، وقاس الأمر على أشياء لا تملك إرادة؛ ففهم هذا الفرق بين الإنسان وسائر الموجودات سيسـاعد على حلّ المسـألة وإنْ بشكلٍ جزئي، وحلُّ الباقي يأتي من اليقين بأن العلم الإلهي يحيط بكلّ شيء.

أجل، للإنسان حرية وإرادة وميل واختيار، وبهذا كلِّه يُنسب إليه الخير والشـر، والأجر والوِزر؛ وأيًّا كان قدر إرادة الإنسـان وكسبه فهي بما ينتج عنهـا سـببٌ يُثيب بـه الخالقُ العظيـم الجليل أو يُعاقب، حسـب توجيهها إلـى الشـر أو إلـى الخير. وما ينتـج عن هذا الميـل مهمـا كان ثقيلًا ينوء به كاهل الإنسـان فهو مسـؤول عن ميلـه هذا واختيـاره؛ والخالق الجليل وإن كان قد قدّر الشرّ من قبل ثم خلقه في وقته المقدّر له إلا أنه منزَّه عن أن يُنسـب شـيء من ذلك إليه. فمثلًا لو ربط الخالق العظيم مسـألة مهمة مثـل تغيـر المناخ بتنفسـنا وقال لنا: ''إن تنفسـتم أكثر من كـذا في الدقيقة غيَّـرتُ المناخ''، فإذا لم نر علاقة للسـبب والنتيجـة بعملية التنفس وتغير المناخ، وارتكبنا المحظور، فتغيَّر المناخ كما ذكر وأخبر، فنحن المسؤولون عن تغيره مهما عظمت العواقب وفاقت طاقتنا وعلينا وزر ما اقترفته أيدينا.

وهكـذا فإذا اسـتعمل كل فرد إرادتـه الجزئية واختياره بات مسـؤولًا عـن عملـه وكسـبه إن خيرًا فخير، وإن شـرًا فشـرّ، فإما مذنب فيُحاسـب وإمّا مطيـع فيكافأ؛ فمن يتسـبب في موت شـخص يُعدّ مذنبًا، فإن لم يُغفر له عند الله حُوسِب وعوقِب بلا ريب.

ونتوقف قليلًا عند الشـق الثاني من المسـألة: كيف نجمـع بين العلم المطلق للخالق المحيط بكلِّ شيء تمام الإحاطة وبين الإرادة الإنسانية؟

يدخل كل شيء في علم الله بأسبابه ونتائجه جنبًا إلى جنب، ففي تلك النقطة يغدو الماضي والمسـتقبل، والسـبب والنتيجـة، والعلة والمعلول،

والأبناء والآباء، والصيف والربيع، وجهين لعملة واحدة، ووفقا لهذا العلم أيضًا يُعرف اللاحق كما السابق، والنتيجة كما السبب، والمعلول كما العلة، ويحكم عليها كلّها سواء بسواء.

وتقدير النتائج المتولّدة من تلك الأسباب وتعيُّنها لا يغلّ إرادة الإنسان؛ إذ إنَّ كلّ ما سيعمله أي فرد وأينما سيوجّه إرادته بوصفها شرطًا وسببًا عاديًّا معلومٌ مسبقًا، فالتقدير الإلهيُّ لا يستبق حرية الإنسان وإرادته؛ بل إن الله تعالى أقرّ ميول الإنسان وقدَرها قدْرَها لأنه قضى وقدّر وفقًا لها، فلو أن رجلًا عظيمًا قال لِخَدَمه: "إن تحكمتم في سعالكم فلكم مكافآت عظيمة، ومن سعل بلا داع فسيخسر ويُعاتَب"، فمعنى هذا أنَّه قد أقرّ بإرادتهم وعزّزها. وهكذا -ولله المثل الأعلى- لو أن الخالق الجليل ﷻ قال لك: إن عزمتَ على هذا الفعل خلقتُه، وبناءً على عزمك المستقبل قد حدَّدتُه لك من الآن"، فمعنى هذا أن الله تعالى قد أقرّ بإرادتك؛ وبناءً عليه فكما لا نفي للإرادة في التقدير الأول، لا إكراه لأحد على شيء يأباه.

وإنَّ القدَرَ والتقدير الأوَّل عبارة عن برامج علمية وضعها الحق تبارك وتعالى، أي إنَّ الله تعالى يعلم من قبلُ -بالنسبة لنا- السُّبلَ التي سيميل إليها الإنسان، فوضع برنامجًا وخطةً مع ما سيخلقه هو سبحانه. وصفة العلم ليس من شأنها تعيين الأحداث والأفعال، بل الذي يعيّنها ويوجدها وفق ميول الإنسان هو قدرة الله وإرادته. وعلى ذلك فالأشياء الحادثة لا تحدث لأن علم الله سبق بأنه سيكون كذا، بل إن الله يعلمها لأنها ستكون، وهذا هو معنى القدَر والتقدير الأوَّل. ويعبر علماء الكلام عن هذا بقولهم: "العلم يتبع المعلوم"[٦٧] ويتعلق به على ما هو عليه ولا يؤثّر فيه ولا يغيّره، أي إن الحادث معلوم حاله كيف سيكون، وليس للعلم تأثير

(٦٧) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي: صفحة: ٦١؛ تفسير الرازي: ٥٧/١٩.

على وجوده هكذا، وهذا مثله مثل خططنا ومشاريعنا العلمية، فهي لا تقتضي وجود الأشياء -التي نتصورها ونخطّطها- في عالم الواقع، وهكذا القدر والتقدير الأول يمكن أن نتجوّز فنسمّيه خطة إلهية لا تستلزم وجود أيّ شيء في الواقع.

والخلاصة أن الله تعالى أحاط بكل شيء علمًا، يعلم الأسباب عِلْمَه بالنتائج، والنتائجَ علمَه بالأسباب، فهو عَلِم من يعزمون على الإحسان أو الإساءة، وقدّر ما سيخلقه هو حسب عزمهم ونيتهم، فإذا آن أوانه خلق الله ما علِمه وقدّره كما يشاء وَفقًا لعزائم المكلَّفين وميولهم؛ وعلى ذلك فتقدير كيفية الموت وموعده لا يرفع المسؤولية عن القاتل؛ فما وقع ما هو مقدّر إلا وَفق حريته وإرادته، فيُنسب الجرم إليه ويؤاخَذ عليه.

ولا بد من بحث هذه المسألة العميقة المتعلقة بالقدر بالرجوع إلى مصادرها، فما هنا لا يعدو أن يكون نقلًا للمسألة إلى العامّة في إطار مبادئ السلف الأساسية المتينة.

الهداية والضلالة

سؤال: **ورد في القرآن الكريم أن ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٧/١٨)؛ **وهناك أيضًا ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ٢٩/١٨) **أي إن الله قد منح الإنسان العقل والتفكر والإرادة، وهداه السبيلين أيما شاء سلك. كيف يمكننا أن نؤلّف بين كلا الأمرَين؟**

الجواب: هناك شقان في هذا السؤال: جريان الأمور هل هو حسب الإرادة الإلهية الكلية، أم حسب الإرادة الإنسانية الجزئية؟

في الآية الواردة **﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾** (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٧/١٨) معنى الهداية هو الرشد واتخاذ الطريق الصحيح، وهو طريق الأنبياء. أما الضلالة فهو سلوك الطريق المنحرف، والعدول عن الطريق الصحيح، والابتعاد عن الاستقامة.

إن أمْعنا النظر رأينا أن كلا منهما فِعل، فوجب إرجاعهما إلى الله تعالى لأن كل فعل -كما قلنا سابقًا- يرجع إلى الله تعالى، وليس هناك أي فعل لا يرجع إليه. أجل، فالضلالة مرجعها أنه سبحانه يضلّ من يشاء كما أن مرجع الهداية أنه يهدي من يشاء، فكلاهما منه سبحانه وتعالى.

ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد للعبد أي دخل وأي كسب، أو أنه يُدفع إلى الضلالة جبرًا، أو يساق إلى الهداية سوقًا، فيكون ضالًّا ومنحرفًا

في الحالة الأولى، ومهتديًا وراشدًا في الحالة الثانية. نستطيع أن نفهم هذا الأمر بشكل بسيط كما يلي:

إن كان الوصول إلى الهداية أو السقوط في الضلالة عملًا بوزن عشرة أطنان مثلا، فلا يملك الإنسان منه عشر المعشار، بل العمل كله لله تعالى.

لأذكر مثالًا ملموسًا: إن الله يهدي، وللهداية وسائلها مثل الذهاب إلى الجامع، والاستماع للنصائح، وتنوير العقل وتثقيفه... كلها من وسائل الهداية، والاستماع إلى القرآن الكريم وتدقيق معانيه والتعمّق فيها من وسائل الهداية أيضًا. والتتلمذ في مدرسة الرسول ﷺ، والاستماع إلى أقواله بقلب حاضر، والاسترشاد بمعلم وأخذ الدروس منه، والدخول إلى الجوّ الروحي للرسالة وللنبوة وفتح القلب لكل نسائم تجلياته طريق من طرق الهداية. نعم، يستطيع الإنسان المباشرة بالطرق المؤدية إلى الهداية. أجل، مع أن المجيء إلى الجامع مباشرةٌ بسيطة إلا أن الله تعالى يجعلها وسيلةً للهداية، أي إن الهداية من الله، ولكن للعبد "كسب" معيّن في طرق باب الهداية.

وقد يذهب الإنسان إلى الخمّارات والبارات، وبهذا يطرق بابًا كُتب عليه أنه سبحانه يُضلّ من يشاء ويطلب الضلالة لنفسه، فإن شاء الله أضله وإن شاء وضع أمامه عوائق تمنعه من الانحراف والضلالة. إذًا يتضح أن ما في يد الإنسان من شيء ضئيل لا يكفي ولا يستطيع أن يكون سببًا للهداية أو للضلالة.

لأضرب هذا المثل: قد تُصغي إلى القرآن الكريم وإلى المواعظ والنصائح وقد تَقرأ كتابًا علميًّا جيدًا فتحس وكأن الأنوار تشرق في قلبك، بينما يستمع شخص آخر إلى الأذان أو إلى المواعظ أو إلى المناجاة والأدعية الضارعة الخارجة من القلب فيحس بضيق ويقول "ما هذه الأصوات المنكرة؟" أي يشكو من أصوات الأذان.

إذًا فإن الله تعالى هو الذي يعطي الهداية أو الضلالة، ولكن إن سلك أحد طريق الضلالة بعناد فإن الله تعالى يخلق له ما يتبقى من ٩٩,٩٪ من العمل العائد له تمامًا كعملية الضغط على زر لتشغيل آلة ضخمة ثم يحاسب الإنسان لميله إلى الضلالة ويعاقبه أو يعفو عنه.

إرادة الإنسان ودورها في الأعمال

سؤال: لقد بيّن القرآن الكريم أن الإرادة الكلّيّة لله تعالى وحده، ومعلوم كذلك أن للإنسان إرادة جزئية، فإذا كان الأمر هكذا فهل يتبع حين يقترف الإثم إرادته الجزئية أم الإرادة الكلية لله تعالى؟

الجواب: نستطيع أن نعبر باختصار عن هذا الموضوع فنقول: إن هناك إرادة للإنسان سواءٌ أطلقنا عليها اسم ''الإرادة الجزئية'' أم ''المشيئة الإنسانية'' أم ''الكسب الإنساني''؛ أما خلق الأشياء فيرجع إلى الله عز وجل سواء أعاد إلى ''الإرادة الكلية'' و''القدرة على الخلق'' أم إلى ''الإرادة التكوينية'' وكلها من صفات الله تعالى. وعندما نظرنا إلى المسألة من الجانب المتعلق بالله تعالى تبدو وكأن الله تعالى يُلزِم ويجبر الحوادث أن تأخذ مجرى معيّنًا، وهكذا يدخل الجبر في المسألة؛ أما إذا تناولنا المسألة من الجانب المتعلق بالإنسان فتبدو وكأن الإنسان يعمل أعماله بنفسه، أي ''كل إنسان هو خالق لأفعاله'' وهذا مذهب المعتزلة.

الله خالق كل ما يحدث في الكون، وهذا هو معنى ''الإرادة الكلية'' الواردة في السؤال. ومعنى ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧) أي خلقكم وخلق الأعمال الصادرة منكم.

مثلًا إن قمت بصناعة سيارة أو بناء بيت فالله هو خالق هذه الأعمال،لأنك أنت وأفعالك تعودان لله تعالى. ولكن هناك ما يعود إليك في هذه الأفعال وهو ''كسبك'' و''مباشرتك''. وهذا الكسب شرط عادي

وسبب بسيط، فيشبه تمامًا قيام شبكة كهربائية ضخمة بإنارة منطقة واسعة جدًّا بمجرد قيامك بالضغط على زر واحد. فكما لا يمكن هنا القول بأنك لم تفعل شيئًا ولم يكن لك أي دخل في الموضوع، كذلك لا يمكن القول بأن هذه الإضاءة والإنارة تعود تمامًا إليك. وهكذا الأعمال تعود تمامًا إلى الله، ولكن الله تعالى عندما خلق هذه الأعمال عدّ مباشرتك الجزئيّة هذه شرطًا عاديًّا وبنى ما سيفعله على هذه المباشرة الجزئية.

ولنفرض وجود ماكنة جاهزة للعمل، فوظيفتك تنحصر فقط في الضغط على زر واحد فيها. إن تحريك هذه الماكنة يعود إلى من أنشأها وصنعها في الحقيقة، لذا نحن نطلق على المباشرة الضئيلة العائدة للإنسان صفة ''الكسب'' أو ''الإرادة الجزئية'' ونطلق على ما يعود إلى الله تعالى صفة ''الخلق''. وهكذا يظهر أمامنا تقسيم للإرادة:

١. الإرادة الكلية

٢. الإرادة الجزئية

ومعنى الإرادة هو التوجه والمشيئة، وهذه تعود إلى الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سُورَةُ الإِنْسَانِ: ٣٠/٧٦). يجب ألَّا يُساء فهم هذا، لأننا عندما نقول إن للعبد نسبةً صغيرةً من الإرادة تتمثل في ضغط أصبع نكون قد افترقنا عن الجبرية الصرفة. وعندما نقول إن الله هو خالق العمل نفترق عن فكر المعتزلة وعن أصحاب الفلسفة العقلانية (*Rationalism*). وهكذا لا نكون قد أشركنا أحدًا في ربوبية الله وألوهيته تعالى، ولا وضعنا له ندًّا تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. فكما أن الله تعالى واحد أحد في ذاته، كذلك لا يُشرك في أفعاله وتصرفاته أحدًا غيره. الله هو خالق كل شيء ولكنه من أجل التكليف والامتحان ومن أجل أسرار وحكم أخرى قَبِل عزم البشر على الفعل وكسبهم

شـرطًا عاديًـا. ولكـي أُوضـح الموضـوعَ أكثر فإنـي أُورد هنا مثـالًا ذكره الأستاذ بديـع الزمان:

''إذا أخـذتَ طفـلًا عاجـزًا ضعيفًـا علـى عاتقـك، وخيّرتـه قائـلًا: إلـى أيـن تريد الذهاب، فسـآخذك إليه. وطلب الطفـل الصعود على جبلٍ عالٍ، وأنت أخذته إلى هناك، ولكن الطفل مرض أو سـقط. فلا شك أنك سـتقول له: أنت الذي طلبت! وتعاقبه، وتزيده لطمة تأديب. وهكذا -ولله المثـل الأعلى- فهو سـبحانه أحكم الحاكمين جعـل إرادة عبده الذي هو في منتهى الضعف شرطًا عاديًا لإرادته الكلية''(٦٨).

هل في وسـعك إنكار إرادة الصبي هنا؟ لا تسـتطيع، لأنه هو صاحب الطلـب. ولكنك كنت أنت الذي ذهبت بـه إلى ذلك المكان. أما المرض فلم يكن من عمل الصبي، وإنما صدر منه الطلب فقط، فهنا يجب التمييز بين من أعطى المرض وجلب الصبي إلى هناك وبين من طلب الذهاب.

نحن ننظر بهذا المعنى وبهذا المنظار إلى القدر وإلى الإرادة الإنسانية. والله تعالى المقدر لكل شيء هو الأعلم بالصواب.

(٦٨) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي: الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، الوجه السابع.

وضعُ من وُلد في بلدة غير إسلامية

سؤال: ماذا يكون وضع من وُلد في أحد البلدان الأجنبية يوم القيامة؟

الجواب: هذا السؤال هو أحد الأسئلة التي طرحت في السابق ولا تزال تطرح الآن، وأعتقد أنه يطرح لإثارة الجدال، أي يقولون إننا سندخل الجنة لأننا نؤمن بالله وبرسوله، ولكن أيدخل الآخرون الذين ولدوا في بلدان بعيدة عن العالم الإسلامي كباريس ولندن وموسْكو، ولم تتيسر لهم الإمكانيات التي تيسرت لنا ولم يصلهم النور الذي وصل إلينا؟ أيدخل كل هؤلاء إلى جهنم؟

مثل هذا السؤال يحمل أمرين؛ الأول: إظهار رحمة أكثر من الرحمة الإلهية. والثاني: عرض نقد خفي ضد الإسلام.

نقول أولًا إنه -خلافًا للعقيدة الشائعة- لا يصح تعميم الحكم على هؤلاء بأنهم سيذهبون جميعًا إلى جهنم، ولكن القاعدة الأصلية هي كما يأتي: إن الذين سمعوا بدعوة رسولنا ﷺ وشاهدوا النور الذي جاء به، ولكنهم أبَوا وعاندوا وسدوا آذانهم دون هذه الدعوة.. مثل هؤلاء سيذهبون إلى جهنم دون شك. ومن الحماقة هنا التظاهر برحمة أكثر من الرحمة الإلهية. ولا ينطبق هذا على الذين يعيشون في البلدان الأجنبية، بل ينطبق هذا الأمر على الذين يعيشون في بلادنا، فمن لم يتبع النور الذي أتى به الرسول ﷺ بل أدار ظهره له وخالفه فإن مصيره أيضًا إلى جهنم وعاقبته هي الخسران المبين. وإننا لنرجو الرحمة الإلهية

التي وسعت كل شيء أن تجعلنا من أتباعه ﷺ ومن السائرين خلفه في هذا العصر الذي كثر فيه الجاحدون.

لقد تناول هذا الموضوع علماء الكلام الذين صرفوا جهودهم لإيضاح ما جاء في القرآن وفي السنة النبوية إيضاحًا عقليًّا ومنطقيًّا وفلسفيًّا وتأييدِه وتقويتِه عن طريق الفكر، وشرحوه مفصّلًا. أجل، فهل سيكون مصير الذين لم يجدوا فرصة الاستجابة للرسول ﷺ، مثل مصير الذين سمعوا به ورفضوه وعاندوه؟ أم أن هناك فرقًا بين هاتين الفئتين؟

ويخطر على البال أيضًا أسئلة عديدة: فهل تستحق مثل هذه الأسئلة اهتمامًا منا بجانب المسائل والمشكلات المهمة التي نعانيها الآن؟ وهل العثور على أجوبة لمثل هذه الأسئلة سيفيدنا في حياتنا الأخروية؟ وهل هناك فائدة حقيقية في حياتنا العملية؟ ولماذا صرف أئمة المذاهب جهودًا كبيرةً حول هذه المسائل وهذه الأسئلة؟

والآن لنتناول قبل كل شيء وجهات نظر علماء العقائد حول هذا الموضوع الذي يثير معه كثيرًا من الأسئلة:

يقول الأشاعرة بأن من عاش ولم يسمع شيئًا عن الله تعالى ولم يبلغه شيء عنه فإنه يُلحق بأهل ''الفترة'' أي يُعدّ من أهل النجاة أينما عاش وفي أي زمن عاش وكيفما عاش. فإن لم تبلغوا دعوة الرسول ﷺ وتحملوها إلى أقاصي الأرض المظلمة، فإن الأشاعرة يقولون: إن أهل هذه البلاد الذين يعيشون في ظلام سيكونون من أهل النجاة وإن الله تعالى سيدخلهم جنته.

أما الماتريدية فنراهم في خط موازٍ للمعتزلة حيث يقولون: إن الإنسان إن توصل بفكره وعقله إلى الله تعالى -أيًّا كان الاسم الذي أطلقه عليه- سينجو يوم القيامة. ولكن إن لم يصل بعقله إلى الله تعالى ولم يصدّق بوجوده فلن يكون من أهل النجاة.

ومع أن هاتين النظرتين ليستا متطابقتين، إلا أن الفرق بينهما قليل لأن الماتريدية يرون أن الإنسان حيثما كان سواء في الجبل أو في السهل أو في الصحراء يرى حواليه آياتٍ ودلائلَ عديدةً تشير إلى الخالق اعتبارًا من طلوع الشمس والقمر وغروبهما، ومن لَمَعان النجوم في السماء، والأرض المزينة بأنواع الزينة، والجبال وهيبتها، والسهول والوديان التي تجري فيها جداول المياه، ومنظر الأشجار والأعشاب، وبسمة الأزهار والورود... كل هذه المناظر آيات تشير وتدل على الخالق تعالى بلسان بليغ. وكل من به مسكة من عقل سيرى وراء مظاهر هذا الجمال يدًا خفيةً، لذا سيتوصل إلى أنه لا بد من وجود خالق. ومثل هذا الشخص يكون من أهل النجاة وإن لم يعرف صفات الله تعالى ورسله وأنبياءه.

لذا ليس من الصحيح أن نبادر بالقول دون تثبت حال الناس الذين يعيشون في البلاد الأخرى "إنهم لم يؤمنوا، لذا فهم من أصحاب النار". ذلك لأن وجهات نظر أئمة المذاهب لا تسمح بهذا، وهي تدعونا إلى السكوت والصمت في أقل تقدير.

أما الإمام الأشعري فينطلق في وجهة نظره من الآية: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧) وآيات أخرى مثلها. أجل، فالقرآن يقول بأن الله ﷻ لا يعذّب أمة لم ترَ رسولًا، إذًا فالذين لم يروا نبيًّا ولم يسمعوا به، لا يُعذبون(٦٩).

ويرى الإمام الماتريدي أن العقل يستطيع التمييز بين الحسن والقبيح وهو مقياس مهم في هذا الأمر. ويستطيع الإنسان أن يقول -اعتمادًا على عقله- إن هذا حسن وهذا قبيح. صحيح أن الزعم بأن العقل يستطيع الوصول إلى حدس وإدراك كل شيء زعم باطل، ولهذا أمَر الله

(٦٩) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري: ص: ١٢٧؛ أصول فخر الإسلام البزدوي: ٤/١٣٥٠-١٣٥١؛ التبصير في الدين للإسفراييني: ص: ١٧٠-١٧١.

تعالى بالخير ونَهَى عن الشر، ولم يدع هذا الأمر المهم إلى العقل الذي يحتمل سَهْوه وقصوره، بل نظم هذا الأمر بالوحي وبينه ووضحه بوساطة أنبيائه ورسله ولم يدع أي شيء مبهَمًا أو غامضًا.

إن العقل -حسب الماتريدية- يستطيع حدس قبح الزنا، لأنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب وضياعها. فمن يرث من؟ فإذا لم تحافِظ المرأة على عفّتها، وإذا كان أطفالها مجهولي النسب فمن يأخذ ميراث من؟ إذًا يستطيع العقل الوصول إلى أن الزنا قبيح. كذلك يستطيع العقل التوصل إلى أن السرقة شيء قبيح أيضًا، لأن من القبح قيام شخص بأخذ مال شخص تعب وشقي في سبيل الحصول عليه. ويستطيع العقل حدس قبح الخمر والمسكرات، لأنها تزيل العقل وتسبب نتائج ضارةً سلبيةً في النسل وتؤدي إلى أمراض وعلل مختلفة. ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة لأمور أخرى كذلك.

والأمر نفسه وارد بالنسبة للأشياء الحسنة. فالعدالة حسنة والإحسان إلى الآخرين ومساعدتهم شيء حسن وجميل، ويمكن للعقل أن يحدس هذه الأمور. والقرآن والسنة النبوية أوضحتْ هذه الأمور وأمرت بها وبينتها وأنقذتنا من الزَّلَل والخطأ في مثل هذه المواضيع.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإيمان بالله فهو شيء حسن، لأن الإنسان يصل به إلى الاطمئنان النفسي فيعيش حياته في سعادة ويذوق جزءًا من سعادة الآخرة وهو في الدنيا. كما يمكن حدس الطريق الموصل إلى الإيمان بالعقل والمنطق، لذا نرى أن بدَويًّا في الصحراء أحس بذلك، وعندما حضر إلى مجلس النبي ﷺ وسُئل كيف عرف ربَّه قال: "البعرة تدل على البعير والروث يدل على الحمير وآثار الأقدام تدل على المسير... فسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج أما يدل على العليم القدير؟!"[٧٠].

(٧٠) نفح الطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني: ٢٨٩/٥.

فحتى بدويّ بسيط وراعي إبل استطاع بعقله التوصل إلى وجود ذاتٍ يملك جميع الأشياء في قبضته ويعلم كل شيء، فلا يمكن إذًا إهمالُ دور العقل في موضوع الإيمان إهمالًا كليًّا.

وانطلاقًا من هذه النقطة قال الماتريدي: إن الإنسان يستطيع بعقله الوصول إلى ربه. والدليل على هذا هو أن الكثيرين أحسّوا بهذا في العهد الجاهلي وفي عهد "الفترة". فمِن هؤلاء "ورقة بن نَوفل" الذي كان ابن عم والدتنا خديجة الكبرى ﵂. وحينما شاهد رسول الله ﷺ جبرائيل ﵇ على صورته الحقيقية وهو يسدّ المشرق والمغرب جفل وأسرع إلى أمّنا خديجة يخبرها بما رأى، فذهبت به أمّنا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد ترك عبادة الأوثان والأصنام، لأنه أحس بأنها لا تضر ولا تنفع وتوصّل بعقله إلى الله تعالى.

ومن هؤلاء "زيد بن عمرو بن نفيل" عمّ عمر بن الخطاب ﵁. كان زيد قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم، ويروى عنه بأنه قال في عبادة الأوثان: "فَلَا العُزَّى أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا وَلَا صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أَزُورُ"[٧١]. لم يكن النبي ﷺ قد أعلن نبوته بعد، ولكن زيد بن عمرو كان يحدس قرب مجيء نبي جديد ودين جديد. عن عامر بن ربيعة قال: "سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه وأنا أُومن به وأصدّقه وأشهد أنه نبيّ... فإن طالتْ بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام"[٧٢]. وكان يؤمن بخالق لا يستطيع معرفته، وكان يقول: "اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلم"[٧٣].

(٧١) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٤٢.

(٧٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٤٠.

(٧٣) البداية والنهاية لابن كثير: ٢/٢٣٧.

فحتى بمثل هذا التفكير البسيط كان باستطاعة الجميع تقريبًا التوصل إلى وجود خالق مالك للسموات والأرض. كان زيد بن عمرو وورقة ابن نوفل قد فتحا كوة صغيرة في قلوب أقربائهما، لذا نرى أن سيد الأنبياء عندما بدأ بدعوته اختار من هؤلاء أفضل المؤيدين والمؤمنين به، وأحال العقلَ والمنطق إلى الوحي لينطلق نحو آفاق لا يحدها البصر.

والآن لنعد ونكرر السؤال من جديد: أيذهب إلى جهنم حالًا كل من ولد خارج الديار الإسلامية؟ أجل، من سمع بالقرآن وشاهد نبوة رسولنا ﷺ ولم يحس بحاجة للبحث عن صحة هذه النبوة ولم يبذل أي جهد في هذا السبيل مصيره هو النار. ولكن الذين لم تتيسر لهم حتى مثل هذه الفرصة ونشؤوا في الظلام وبقوا في الظلام طوال حياتهم، فإننا نأمل أن يستفيدوا من رحمة الله الواسعة فلا يلاموا ولا يؤاخَذوا بشيء.

واسمحوا لي بتناول جانب آخر من المسألة لكونه متعلقًا بنا. لقد قام المسلمون الأوائل الذين مثّلوا الإسلام خير تمثيل بتبليغ رسالة رسولنا ﷺ إلى جميع أنحاء الأرض وإلى أقاصي العالم، فأضاؤوا القلوب بنور الإسلام. وعندما نقرأ الآن مناقبهم نشعر بالروح العالية التي كانوا يتحلون بها وهم ينقلون رسالة النبوة إلى العالم أجمع. ولم يكن من المتوقع بقاء الإنسانية في حالة تفرج ولا مبالاة، فهؤلاء الأبطال الذين لم يكونوا يخشون أحدًا استطاعوا فتح قلوب الناس جميعًا، لقد صاحوا صيحةً مدويةً بحيث لم يبق هناك في أرجاء العالم من لم يسمع هذه الصيحة.

أجل، لقد مثلوا الإسلام أفضل تمثيل وأناروا العالم بنور الإسلام فلم تبق هناك بقعة مظلمة لم يصلها هذا النور. ثم إن الإنسان ليذهل من سرعة أدائهم لهذه المهمة، ومن سرعة حركتهم ومن مستواهم الرفيع في تمثيل الإسلام وتمثيل رسالة القرآن التي نشروها من مضيق جبل طارق إلى بحيرة آرال، ومن الأناضول إلى سد الصين.

أجـل، لقد وصل الإسـلام فـي عهد عثمان بن عفـان ﷺ إلى الصين، وفي عهد معاوية بن أبي سـفيان ﷺ اسـتطاع القائد عقبة بن نافـع الوصول حتى برج هرقل، ودخل البرابرة جميعًا تحت ظل الإسلام وإمرته. لقد تم هذا في ظرف ثلاثين سنةً تقريبًا. ففي ظرف هذه السنوات الثلاثين أضاؤوا بنـور الإسـلام أنحاء العالـم جميعًا، لأنهـم كانوا يمثلون الإسـلام أفضل تمثيل، لذا كسـبوا قلوب جميـع الشـعوب إلى درجة أن النصارى واليهود كانوا يفضلونهم على أبناء دينهم.

وعندمـا ذهـب عمـر بـن الخطـاب ﷺ إلـى مدينـة القـدس وذهـب أبـو عبيـدة بـن الجـراح ﷺ إلـى الشـام اسـتُقبلا بـكل مـودة إلـى درجة أن المسـلمين عندما اضطروا للانسـحاب من مدينة دمشـق لجأ النصارى ورهبانهـم إلـى الكنائـس داعين الله ﷻ برجوع المسـلمين إليهـم، وقالوا للمسـلمين: ''ندعو الله أن ترجعوا إلينا، نحن راضون بأداء الجزية والبقاء في حمايتكم''. وبسبب هذه المحبة التي حظي بها المسلمون بين الشعوب بدأت أفواج الناس بالإقبال على الإسـلام والدخول فيه؛ فكل مسـلم كان بمثابـة عمـر بن الخطاب ﷺ، لذا فلم يكن من الممكن ألا تقبل الجماهير علـى الإسـلام مثل هذا الإقبـال. كان هؤلاء الأبطال رهبانًا بالليل فرسـانًا بالنهار. لقد فتحوا القلوب أولًا حتى اعتقد الناس أن المسلمين سيفتحون العالم كله في مستقبل قريب.

أمـا الآن فنحـن عاجـزون عن فـرض إرادتنـا على جزيـرة صغيرة[٧٤] ولا نسـتطيـع تأميـن سـيادة الأمن فـي المناطـق التي نحكمهـا. بينما كان المسـلمون الأوائل مثال الدراية والكياسـة والأمن، وكانت مفاتيح القلاع والمدن تُسـلَّم لهم ويُدعون لكي يكونوا رؤسـاء وحُكّامًا فيها لا لاسـتلام المفاتيح الرمزية والمواطنة الرمزية.

(٧٤) المقصود هو جزيرة قبرص. (المترجم)

عندما فتح المسلمون فلسطين وسوريا الحالية طلب القادة مفاتيح بيت المقدس فرفض رئيس الأساقفة قائلًا: ''إننا نعرف أوصاف من يحق له تسلم هذه المفاتيح وشمائله ولن نعطيها لأحد سواه...'' فتوجه عمر ﷺ إلى بيت المقدس مع خادمه. لم يكن أحد يدري كيف سيأتي، ولكنه كان يأتي بالطريقة التي يعرفها ذلك الأسقف.. استعار من بيت المال بعيرًا للسفر... لم تكن آنذاك سيارة، ولكن كان من الممكن أن يأخذ الخليفة جوادًا للسفر، ولكنه لم يفعل وفضّل أن يتناوب هو وخادمه ذلك البعير طوال السفر.

عندما اقتربا من بيت المقدس كان قادة الجيش الإسلامي يتمنون أن يكون دور الركوب للخليفة بعد اجتياز نهر الأردن، لأنهم كانوا يعتقدون أن الشعب الذي تعود على مظاهر الفخامة والزينة سيعيب حتمًا منظر رئيس الدولة وهو يجر البعير الذي يركبه خادمه وقد رفع أطراف ثيابه حتى ركبتيه بعد اجتياز النهر.. ولكن العيب في نظر عمر بن الخطاب ﷺ كان في عمل شيء غير عادل، لذا كان يحاول الابتعاد عن اقتراف شيء كهذا. وقضى القدَر الإلهي بأن تكون قيادة البعير وإمساك زمامه عند اجتياز النهر كان من نصيب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ. نزل عمر عن البعير وركب الخادم وأمسك عمر بزمام البعير يقود ويجتاز النهر. كانت ملابسه قد تمزقت في مواضع عديدة نتيجة احتكاكها بظهر البعير. جلس عمر وبدأ يرتق ملابسه... كان فيها أربع عشرة رقعة... عفوًا المفروض أن نقول كان فيها أربعة عشر وسامًا. قال رئيس الأساقفة الذي شاهد وضع عمر ﷺ: ''أجل، هذا هو الرجل الذي وردت صفاته في كتبنا''، ثم قال: ''لن نعطي مفاتيحنا إلا لهذا الرجل''.

وصار تسليم مفاتيح بيت المقدس وتسليم المسجد الأقصى للمسلمين وسيلةً لإقبال الناس على الإسلام أفواجًا أفواجًا. لم تكن غايتي هي إثارة مشاعركم بعرض مناقب عملاق الإسلام عمر ﷺ بل التساؤل هل نستطيع اليوم تمثيل الإسلام بالمستوى السامي اللائق به؟ لقد فتحوا قسمًا كبيرًا من إفريقيا وطشقند وسمرقند وبخارى في ظرف ٢٥-٣٠ سنة؛ ثم تشرفت الدنيا بظهور البخاري ومسلم والترمذي وابن سينا والفارابي والبيروني وغيرهم؛ وامتد حكمهم إلى القوقاز والعراق وإيران... وترددت أصداء "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في أرجاء المعمورة، فسمع الجميع رسالة الإسلام.

أما الآن فإننا لا نستطيع الزعم بأننا نبلّغ رسالة الإسلام إلى شعوبنا دع عنك تبليغها للشعوب وللأقطار الأخرى. ونحن نحاول دعوة الآخرين من الذين يستمعون إلينا إلى الإيمان وإقناعهم، ولكنهم لا يؤمنون. فكأن كلماتنا تصطدم بجدران من الجليد، ثم ترتد وتنعكس على وجوهنا بكل برودة... نحاول أن نبلّغ ولكننا لا نستطيع النفوذ إلى أرواحهم. ولا نقول هذا إنكارًا للنعم الإلهية التي لا تُعدّ ولا تحصى.. لا نقول هذا، بل لا نستطيع قول هذا، وإنما نقول هذا للمقارنة بين الصحابة الكرام وبيننا لإيضاح هذا الفرق الشاسع.

مِن هؤلاء الذين فتحوا أقطار الأرض وكانوا كالنسور في الجو وأوصلوا رسالة الإسلام إلى كل بقاع العالم: القائد الكبير عُقْبةُ بن نافع الفهري الذي كان نصيبه التوغل في قارة إفريقيا وفتحها. وقد تلاحقت انتصاراته التي ملأت قلوب المسلمين فرَحًا، غير أنه تعرض لمكيدة فعزله أمير ذلك العهد وسجن. كان أكثر ما يحزنه في سنوات سجنه التي بلغت خمس سنوات هو أنه حيل بينه وبين تبليغ الإسلام. كان يريد أن ينشر

الإسلام من أقصى إفريقيا إلى أقصاها. وعندما تولى الحكم يزيد بن معاوية قَدِم عُقبةُ على يزيد، فرَدَّه واليًا على المغرب سنة اثنتَين وستّين، فكُتبت بذلك حسنة كبيرة في صحيفة أعماله المملوءة بالآثام والسيئات. وعاود عقبة نشاطه في الفتوحات هناك. حتى بلغ شواطئ المحيط الأطلسي ودخل بجواده الشاطئ وقال: "يا ربّ! لولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك!"[٧٥] ولو أن شخصًا حدثه عن وجود قارة مثل أمريكا هناك لتساءل عن كيفية الوصول إليها لنشر الإسلام فيها.

أجل، كان المسلمون في تلك العهود يبلغون الإسلام لجميع الناس، ويحسون بتأنيب الضمير بالنسبة للبلدان التي لم يستطيعوا تبليغ دعوة الإسلام إليها. أما نحن فلم نستطع تمثيل الإسلام في أنفسنا ولا حمل الإسلام بسرعة البرق إلى أنحاء العالم، إذ لم نستطع ترك مشاغلنا وأعمالنا الخاصة ولا عدَّ العمل للإسلام الشاغلَ الأولَ لنا، وأعمالَنا الأخرى الشاغل الثاني والثالث والرابع. صحيح أننا ذهبنا لجلب المارك والدولار والشلن والفرنك. لم نذهب من أجل الله تعالى، لذا لم نستطع أن نُسمعهم الحقيقة السامية للإسلام. فإذا كانت تلك الشعوب لا تزال تعيش في ظلام الكفر والضلال فبسبب كسَلنا وعجزنا وفشَلنا نحن. فإن وُجّه إليهم سؤالٌ يوم القيامة فسيوجه إلينا أيضًا سؤال.

بالأمس شاهدتُ شريطًا لمحاضرة أُلقيت باللغة الألمانية، ومع أنني لا أعرف الألمانية إلا أن المنظر أمامي كان يقول ليَ الكثير. وكنت قبل مدة وجيزة في مقبرة في مدينة برلين... أحسست أنّ ركبتيّ لا تحملانني، قلت متضرعًا: "رحماك يا رب! لم نستطع أن نوصل اسمك الجليل إلى هنا..." والآن عندما شاهدت شريط الفيديو هذا غمرتني مشاعر جياشة...

(٧٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٠٦/٤.

المكان كنيسة في هولندا والمحاضر شاب مسلم، والقس جالس يستمع، والنساء الهولَنديات المسلمات المحجّبات جالسات يستمعن إليه ويسألنه بشوق وهو يجيب، ونساء لم يسلمن بعد يشاركن في السؤال. والحقيقة أنني عاجز عن وصف مشاعري، غير أنه يجب ألَّا ننسى أن كل هذه الأمور ليست إلَّا فعاليات تؤدَّى من قِبل هواة وهي لا تكفي أبدًا. هذه الجهود تعد خطوة في مضمار الخدمة الإسلامية، ولكنها ليست الخدمة ذاتها.

لا نزال نتجول في أروقة هذا القصر.. قصر الخدمة الإيمانية والإسلامية، ولا نستطيع الادّعاء بأننا فعلنا الشيء الكثير. وهذا هو السبب في أن الكثيرين لا يزالون يعيشون في الضلال. صحيح أننا ذهبنا إلى تلك الأقطار في سبيل الخدمة الإسلامية أيضًا، ولكننا لم نملك أنفسنا من الدخول في نزاعات عقيمة فيما بيننا. ولم نستطع أن نمثل الإسلام كما مثله السابقون من أمثال عمر بن الخطاب ﷺ وعقبة بن نافع وأبي عبيدة وأحنف بن قيس والمغيرة بن شعبة والقعقاع. فمن يدري كيف كانت قلوب الأعداء الذين شاهدوا مروءَة هؤلاء ورجولتهم وعدالتهم وإنسانيتهم وإيمانهم وعزمهم... كيف كانت قلوبهم ترتعش، وكم مرة مالت هذه القلوب إلى الإسلام عندما شاهدت هؤلاء الأبطال.

إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من هذه الزاوية عند ذاك ننظر بنظرة متسامحة إلى الذين يعيشون في باريس ولندن ونيويورك. بل ربما ضربنا على صدورنا أسفًا لأننا لم نقم بواجب التبليغ -كما يجب- نحوهم. أريد أن أنقل هنا قصة واقعية سمعتها من الواعظ الشيخ "نجم الدين نور صَجان":

ذهب أحد مواطنينا إلى إحدى الدول الأوروبية للعمل فيها، وسكن في بيت وتعرف على صاحب البيت وعائلته. وكان كثيرًا ما يجلس ويتسامر معهم. وتوثقت بينه وبينهم الصداقة. ولم يكن صاحبنا هذا

يقصر في تمثيل الإسلام والحديث عنه والإجابة عن استفساراتهم عنه. وبعد مضيّ مدة أعلن صاحب البيت إسلامه. ولم تلبث زوجته أن أعلنت هي أيضًا إسلامها ونطقت بالشهادتين، ثم التحق الأبناء بهما، وخيمت السعادة على العائلة حتى انقلب البيت إلى دوحة من الجنة.

بعد مرور عدة أيام قال صاحب البيت لمرشده ما أدهشه: ''أحيانًا أرغب أن أضمك إلى صدري وأشبعك تقبيلًا. ولكن أحيانًا أرغب أن أشبعك ضربًا، ذلك لأنك أتيت إلينا وأصبحت نزيلًا عندنا، وبوساطتك جاءنا الرسول ﷺ وجاء القرآن الكريم وجاء الإيمان بالله تعالى، وبفضلك جاء الإيمان وأصبح بيتنا دوحة من الجنة، ولكن كان لي أبٌ طيّب طاهر الروح والنفس. وقد مات قبل أن تأتينا بمدة قصيرة، فلماذا... لماذا لم تأتنا قبل وفاته؟''.

وأنا أعتقد أن هذه الصرخة هي عقاب العالم المسيحي واليهودي للمسلمين. نحن لم نستطع أن نذهب إليهم بالإسلام، بل لم نستطع تمثيل الإسلام حتى في بلادنا، ولم نستطع أن نَحيا بالإسلام ولا قُمنا بشرحه ولا إيصاله إلى القلوب المحتاجة إليه.

واسمحوا لي بالتطرق إلى أمر آخر: فالذين أبعدونا عن الإسلام وعدونا بأنهم سيصلون بنا إلى حياة في مستوى المدنية الغربية. ولكن رغم مرور ١٥٠ عامًا على هذا الوعد لا نزال نتسول على أبواب الغرب ولم يحدث أيّ تغير ولم نتقدم خطوة واحدة، واستمر الغرب في نظره إلينا خُدّامًا عند عتَبة بابه.. خدام جاؤوا إليه من أجل دراهم معدودة. والآن أريد أن أسألكم:

''إن المسيحيين واليهود لا يسلمون ولا يُقبلون على مبادئكم السامية، فهل فكّرتم لحظة في السبب الكامن من وراء هذا الأمر؟ السبب بسيط

للغاية: لو جاءكم أحد بمبادئ وبرسالة سامية جدًّا، بل لو فتح السماء على مصراعيها وأراكم الطرق المؤدية إلى الجنة فهل تدخلون في دين هذا الشخص إن كان يعمل لدَيكم خادمًا ويقوم بأداء أحقر الأعمال في نظركم؟'' لا شك أنكم لن تكونوا تابعين لخادمكم، ولن تسيروا خلف من ترونه متسولًا عندكم.

إن العالم الإسلامي لم يلم شمله ولم يرجع إلى نفسه بعد، ولم يمثل الإسلام في حياته، ولا يزال متسولًا على أعتاب الغرب. لذا فطالما كان هذا العالم الإسلامي مغلوبًا المرة تلو الأخرى بالضربة القاضية، وطالما بقي أسيرًا ومتسولًا ومتمسحًا بأعتاب الغرب وخائفًا من الغرب ومرتجفًا منه؛ فلن يكون هناك أي احتمال لأن يعيرك الغرب سمعه أو يهتم بالرسالة التي تحملها. ولكن إن كنا في مستوى شخصية أسلافنا وعزتهم ومثّلنا الإسلام بما يليق به من رفعة وطرَقْنا أبواب الغرب بهذه الهوية فإنه سينصت إلينا وسيهتم بنا وسيَقبَلنا. لا أقول إنهم محقون في عدم الإصغاء إلى الذين يعملون عمالًا وخدمًا عندهم، ولكن قد يكونون معذورين في هذا. وأيًّا كان مسؤوليتهم في عدم القبول، فإن مسؤوليتنا نحن في عدم تمثيل الإسلام بالمستوى اللائق أكبر.

أرى أن ننظر إلى هذا الأمر من هذه الزاوية وأن نعلم أن المسؤولية مشتركة بيننا، ويجب أن تكون أحكامنا عادلة ومنصفة. ونحن بعيدون جدًّا عن عقلية الذين يصدرون أحكامًا غير متوازنة، ويرون أن جميع من يعيش في البلدان الأجنبية هم حطَب جهنم. كما نحن بعيدون جدًّا عن عقلية الذين يتوقعون أنهم ما إن يعرضوا الإسلام بشكل ناقص وغير لائق حتى يقبل عليهم الجميع من كل حدب وصوب.. فهذا خيال ووهم. ولكننا نؤمن بأنه سيكون هناك تغيّر في التوازن الدولي الحالي وأن الجيل القادم

في تركيا ومصر وبلدان تركستان وسائر البلاد الإسلامية سيعود إلى نفسه وإلى شخصيته وهويته الحقيقية، وسيعيش عقيدته ومبادئه، وسيأخذ هذا الجيلُ الطاهر والمضحِّي مكانه ضمن التوازن الدولي الجديد. عند ذاك سيُصغي الشرق والغرب إلينا.

ليس هذا مستحيلًا.. سيتحقق هذا بالتأكيد، بل لقد بدأ فعلًا بالتحقق.. فالمفكرون في الغرب الآن مذهولون من معجزة الإسلام وشبابه الدائم. ويبدو أن هذا سيكون سببًا في تغييرات كبيرة. وليس من المستبعد حدوث تغيرات اجتماعية كبيرة في المستقبل القريب. وستكون هناك تغيرات في خريطة العالم. ولكن لن يستطيع إنجاز هذا إلا الذين وجدوا أنفسهم وشخصيتهم وهويتهم الحقيقية، لا العاجزون والفاشلون الذين يؤجّلون العمل في هذا السبيل إلى أوقات فراغهم.

وكما قلت في مرة سابقة فالذين يرفعون هاماتهم من القبور ويطلون عليكم من بين أحجارها قائلين: "أجل، هؤلاء هم المنتظَرون" عند ذاك تكونون قد أدّيتم وظيفتكم في تمثيل الحق والحقيقة وتمّ الأمر وزهق الباطل وآن الأوان للتعبير عن أنفسكم أمام العالم.

ملك الموت وقبض الأرواح

سؤال: كيف يستطيع ملك الموت وحده القيام بقبض أرواح العديد من الذين يموتون في لحظة واحدة؟

الجواب: نرى في هذا السؤال كيف أن المقاييس البشرية تخدع الإنسان. فكما أن تشبيه الملائكة بالإنسان خطأ، كذلك من الخطأ البحث عن آثار الروح ووظائفها في الجسد. لذا فلا يمكن الإجابة على هذا السؤال قبل القيام بإيضاح الخطأ المصطلحي، أي يجب أولًا معرفة نقاط الانحراف في السؤال ثم القيام بالإجابة.

بما أن الملائكة يختلف عالمها عن عالمنا، فإن طبيعتها وماهيتها ووظائفها مختلفة تمامًا عن عالمنا. لذا فإن من الخطأ إعطاء أي حكم دون النظر إلى عالمها الخاص ودون التفكير بماهيتها ووظائفها. لذا يجب معرفتها من هذا الجانب أولًا.

كلمة الملائكة مشتقة من كلمة ''المَلْك'' بمعنى القوة، أو من ''المَلَك'' بمعنى الرسول. فمن حيث الاشتقاق الأول يكون المعنى: القويّ جدًّا. ومن حيث الاشتقاق الثاني يكون المعنى: الرسول المبلّغ أوامر الله تعالى. هذه الأوصاف الممتازة موجودة في عموم الملائكة التي خلقها الله تعالى وهي ضرورية لدى الملائكة الموكَّلين بتبليغ الوحي الإلهي خاصةً. وهذه المخلوقات السامية، -بدءًا من الملائكة المكلفين بمراقبة الحياة والممات، وانتهاء بحَمَلة العرش المبهورين بالحضرة الإلهية- مكلفةٌ وموكّلة بتنفيذ الأوامر الإلهية ومشاهدتها.

فـكل الأعمـال بدءًا من العالم الكبير (الكـون) وانتهاءً بالعالم الصغير (الذرّة)، وكل التغييرات والتركيبات والتحوّلات تقـع بإشراف ومراقبة هذه الكائنـات المتميزة السـامية. كما تقوم هذه الكائنـات القوية الأمينة بتبليـغ التشـريعات والأوامـر الإلهية التي مصدرها صفة الـكلام. فإن أخذنا بنظر الاعتبـار قيامهـا بأعمـال كونية مدهشـة اعتبارًا من الإشـراف على قوانين العامـة للجذب والدفـع وانتهاء بالحركة المنتظمة للإلكترونات حول نواة الـذرات.. إذا أخذنا هذه الأعمال المدهشـة الدقيقة الصعبة بعين الاعتبار علمنا مدى القوة والأمانة التي تتصف بها.

الوظائـف والمهمـات التي تقـوم بها الملائكـة كثيرة ومتعـددة جدًّا، فـلا يمكـن تصور وقـوع حادثـة خـارج مهامهـم... لا تنزل قطـرة مطر، ولا يبـرق برق من دونها، أي إن جميـع القوانين الكونية والفطرية تجري بواسـطتهم، أي بواسـطة هذه القـوى المدركة الواعية، كلٌّ حسَـب قابليته واسـتعداداته التـي وهبهـا صاحب الملـك والقوة ﷻ. كما يرد بواسـطتها الإلهام والوحي الإلهي المرسـل لتوجيهِ وتنظيم وتصحيح سلوك الإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله تعالى.

إذًا فنظـرا إلـى القـدرة والقـوة الهائلة المعطـاة لها لمباشـرة وظيفتها بوصفها وكيلة على شـؤون الخلـق، والقيام بمهام عديدة بدءًا من الذرات إلـى السـدم، ونظرًا لكونهـا جهزت بقوة وقـدرة ملكوتيـة لأداء وظائفها، فإن تشـبيه الملائكة بالإنسـان وتوهم أن القيود الضرورية الموجودة أمام البشر تقيدهم أيضًا إنما هو جهل وانحراف في التصور وفي التفكير.

أجـل، لـو كانـت الملائكـة تحمل جسـدًا ماديًّا مثل جسـد الإنسـان المعرض للتحلل، ولو كان الزمن يتحكم فيها ويجري حكمه عليها مثلما يجريه على سـائر الأحياء، لكنّا محقين في اتخاذ مقياس بشـري تجاهها. ولكن هناك بونًا شاسعًا يتعذر بسببه القياس بينهما لأنهما عالمان مختلفان.

ثم إن الملائكة تختلف عن الإنسان من ناحية الخَلق. وهذا الفرق ناشئ عن المساحة الواسعة لمهماتها ووظائفها. فالطبيعة النورية في خلقها تجعلها أكثر نفوذًا وسيّالِيّةً. لذا فهي تملك قابلية الانعكاس في لحظة واحدة على أرواح عديدة، وقابلية المشاهدة من قبل أنظار عديدة في اللحظة نفسها، ويملك الملك الواحد قابلية التجلي بصور مختلفة. وفي حديث ترويه أمنا عائشة ﵂ عن الرسول ﷺ قال: "**خُلِقَت الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ**"(٧٦)، لذا فهي تملك خصائص النور.

كل جسم من الأجسام اللطيفة -مثل الشمس- يمكن أن يظهر أي واحد منه في عدة أماكن بانعكاسه في كل جسم شفاف، ويستطيع الدخول في بؤبؤ كل عين. والملائكة التي تحمل صفات النور وخصائصه تستطيع التعامل في اللحظة نفسها مع آلاف الأرواح.

علمًا بأن الملائكة التي تملك ماهيةً خفيفةً ولطيفةً تختلف اختلافًا كبيرًا عن الأشياء المادية والكثيفة مثل الشمس، فهي تملك قابلية التشكل في أشكال وصور مختلفة، كما تستطيع التمثل في الوقت نفسه في أشكال مختلفة. والتمثل معروف عند المتدينين منذ القديم ولكنه أصبح الآن موضوعًا شائعًا ومعروفًا لدى محافل الطبقة الأرستقراطية إلى درجة كبيرة بحيث أصبحت شيئًا قطعيًّا كقطعية النتائج المأخوذة من التجارب.

ولا يمر يوم إلا وتنشر فيه الجرائد والمجلات خبرًا عن ظاهرة من هذه الظواهر الروحية الغريبة فيما يدعى في علم تحضير الأرواح بـ"الجسم السيال" أو "مثيل الإنسان"(٧٧). فترد الأخبار مثلًا عن مشاهدة إنسان في مكان بعيد عن مكان وجوده، وإظهار هذا الجسم المثيل قدرات

(٧٦) مسلم: الزهد والرقائق، ٦٠؛ مسند الإمام أحمد: ١٥٣/٦.

(٧٧) مثيل الإنسان: لوحظ وقوع حالات نادرة يظهر فيها الإنسان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه. وتدعى صورة الإنسان الثاني الظاهر في ذلك المكان البعيد أو المختلف عن مكان الإنسان الحقيقي بـ"مثيل الإنسان". (المترجم)

عجيبة وقابليات فائقة. ومهما كان أصل المسألة فإن للموجودات اللطيفة كالأرواح قابليةً أكثر سياليةً وقدرات أكبر من الأجسام المادية وحريةَ حركةٍ وتنقُّلٍ أوسع من الإنسان العادي. وهذه السيالية والشفافية التي تتجاوز المادة تشير إلى أن نشاط وفعالية الجسم المثيل أكبر من الإنسان العادي، كما أن الملائكة تملك قابلية أكبر من قابلية الروح في هذا المجال. وهذا يشير إلى كونها فوق القوانين الطبيعية السارية في عالمنا.

إن تمثُّل الملائكة والأرواح كان معروفًا منذ القديم. وقام كثير من أرباب القلوب وعلى رأسهم الأنبياء بنقل مشاهداتهم في هذا الموضوع، واستشهدوا في هذا أيضًا بمشاهدة كثير من عوام الناس. كان جبريل عليه السلام يظهر في صور مختلفة، وذلك حسب المناسبة التي يظهر فيها. فإن كانت المناسبة التي يظهر فيها هي مهمة الرسول وتبليغ الوحي ظهر بالمظهر المناسب لهذه المهمة، وإن ظهر في أثناء الحرب ظهر في صورة المحارب. وهذه أمثلة على التمثل، والتمثل وارد بالنسبة لعموم الملائكة وخصوصًا جبريل عليه السلام الذي كان يتمثل أحيانًا في صورة الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه وتمثل ملَك آخر -لا نعرف اسمه- في معركة أُحد في صورة الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه فقاتل دفاعًا عن الرسول ﷺ في أصعب مراحل القتال حتى المساء حيث جاء في الرواية بأن رسول الله ﷺ قال: "**أَقْدِمْ مُصْعَبُ**"، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَمْ يُقْتَلْ مُصْعَبٌ؟ قَالَ ﷺ: "**بَلَى، وَلَكِنْ مَلَكٌ قَامَ مَكَانَهُ، وَتَسَمَّى بِاسْمِهِ**"[٧٨]. كما تمثلت ملائكة آخرون في صورة الزبير بن العوام رضي الله عنه في معركة بدر، وشدّوا من عزيمة المؤمنين.

(٧٨) مصنف ابن أبي شيبة: ٣٦٩/٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨٩/٣.

هنـاك أمثلـة لا تعـد ولا تحصى حول اتصـال بعض أربـاب القلوب وأولياء الله مـع أرباب العالم الآخر. أما الاتصال بوساطة الرؤى فهو شيء لا يمكن إنكاره، فهو شائع حتى عند عامة الناس. فيكاد كل إنسان يملك شواهد من قيام أحد الأرواح التي يعرفها بإرشاده وإنارة الطريق أمامه عند ظهوره في رؤياه. ولكن هناك بعض من يدّعي أن الرؤى ليست إلا حركة العقل الباطن، أي دفعوا هذا الموضوع إلى ظلام دامس لا يرى فيه شيء، فيا ويل الجهل!.

ونحـن إذ نحيـل الذين يرغبون في التفاصيل حـول الملائكة والتمثل والأرواح إلى المراجـع والمصادر الخاصة بهذا الموضوع. فإننا نسـتطيـع القول في النهاية: إنه كما يظهر لكل موجود مثيله في المرآة كذلك تستطيـع الملائكـة التمثل في كل شـيء يكون مرآة لها. تظهـر الملائكة لا كصورة فقط -كما هي الحال عند الأجسام المادية- بل بكل صفاتها ومزاياها.

ولا يضير الروح أو الملك في هذا الأمر أنه فرد واحد، لأنه يسـتطيـع أن ينعكـس من مكانه كشـعاع فيصل إلى أي مكان يريـده ويقوم بالوظيفة التي يريدها، ولا يعوقه في هذا أي شيء... لا البعد ولا المسافة، ولا كثرة عدد الذين يجب الوصول إليهم. فكما أن الشمس مـع كونها شمسًا واحدةً تسـتطيـع الوصـول إلى كل مـكان توجد فيه مرآة تعكـس نورها، وتجري تأثيرهـا هنـاك، كذلك تسـتطيـع الملائكة وهي مخلوقـات نورانية الظهورَ في كل مكان وتقوم بمهامها هناك، فتنفخ الحياة أو تقبض الأرواح.

ثـم إن الله تعالـى هـو الـذي يقبـض الأرواح فـي الحقيقـة. وليـس ملـك الموت سـوى مراقب وسِـتار. والله الشـهيد البصير قـادر على فعل ما لا يسـتطيـع الخيال والعقل تصوره، ويخلق في اللحظة نفسـها مليارات الكائنات أو يفني ويميت المليارات من الكائنات. فهذه هي القدرة المطلقة

التي تَعلم وتَرى الأشياء كلها في كل لحظة، وهذا هو العلم المحيط الذي لا يمكن لعقل تصوره والذي يرى كل ذرة في الكون ويقدر على إنجاز أعمال بعدد هذه الذرات في آن واحد، وقبضِ الأرواح جميعها.

وسواء أكان الله تعالى هو القابض للأرواح أم كان ملك الموت فإن من حان أجَله تُقبض روحُه.

ولتقريب الموضوع إلى الأذهان أضرب هذا المثل: لنتأمل في حال آلاف من أجهزة المذياع (الراديو) وأجهزة الاستقبال التي تعمل على تردد معين. فإذا قمنا بالضغط على زرّ لجهاز إرسال يعمل على هذا التردد سُمعتِ الإشارات وأصوات أحرف المورس في جميع هذه الراديوات في اللحظة نفسها. كذلك فإن المخلوقات بكل عجزها وفقرها متوجهة نحو صاحب القدرة والعزة، وعندما يحين الوقت الموعود سواء في خلقها وإيجادها أو في قبض روحها، تشعر في روحها بإشارة معينة. فإذا كان الإنسان العاجز يستطيع بالضغط على زر واحد التأثير في أجهزة متعددة بعيدة عنه آلاف الكيلومترات، فكيف يعجز صاحب القدرة المنزه عن العجز والقصور والذي ترتبط به نفوسنا وأرواحنا عن التأثير فيها مع أن الإنسان ليس إلَّا جهازًا حيًّا، وكيف يعجز -حاشاه- عن نفخ الروح أو قبضه متى شاء؟

إذا وضعنا كل هذا جانبًا فهناك نظرات وآراء مختلفة حول قبض الأرواح:

١- إن الله تعالى -كما ذكرنا سابقًا- هو واهب الأرواح وقابضها، وليس ملك الموت إلا واسطةً أو ستارًا أو رقيبًا.

٢- إن الله فوّض قبض الأرواح إلى ملك الموت وأذِن له بذلك. وقد ضربنا الأمثلة على أن الفرد الواحد والملك الواحد يستطيع وحده إنجاز هذا العمل.

٣- هناك العديد من الملائكة يعمل تحت إدارتهم ملائكة آخرون مكلّفون بأعمال كونية عديدة وبمراقبتها. لذا فهناك ملائكة عديدون تحت إمرة ملك الموت يساعدونه في عملية قبض الأرواح. وهم أصناف عديدة، فصنف يقوم بقبض أرواح المؤمنين قبضًا سهلًا ويسيرًا ودون ألَم، وصنف يقبض أرواح المجرمين قبضًا أليمًا، وصنف يسرع بهذه الأرواح إلى ربها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۞ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۞ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۞ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ١/٧٩-٥). فهناك ملائكة كُثُر لقبض الأرواح، وكلها تعمل تحت إمرة ملك الموت، وهو يقوم -بأمرٍ من الله تعالى- بإرسال ملائكة مختلفين حسب اختلاف المحتضر إن كان شقيًّا أم سعيدًا بقبض روحه.

لذا نستطيع القول جوابًا على السؤال إن هناك انحرافًا في الفهم منذ البداية، أي هناك خطأ في تشبيه الملائكة بالإنسان، مع أن الملائكة لا تشبه الإنسان أبدًا لا من ناحية الخلق ولا من ناحية الماهية، كما أن طبيعة عملها وإجراءاتها مختلفة عنه تمامًا. فهي تتمثل -مثل روح الإنسان- في لحظة واحدة في أماكن عديدة في اللحظة نفسها، وتتعامل مع أشياء عديدة في تلك اللحظة نفسها. وفي أيامنا الحالية انتشر تحضير الأرواح والوسطاء ومحاولة تأسيس علاقة مع الكائنات غير المرئية، وانتشر التنويم المغناطيسي وعلم الروحانية (*Spiritualism*) وغيرها من الفعاليات التي تتجاوز القوانين الفيزيائية والتي تشير إلى وجود قوانين أخرى لها خاصية الشعور.

وهذه الأمور أصبحت شائعةً إلى درجة أن اكتسبت قناعةً قطعيةً. لذا فإن الملائكة التي تشبه هذه الموجودات تستطيع القيام بوظائف أضعاف هذه الموجودات، ولا سيما وظيفة مهمة قبض الأرواح، ففي هذه

العملية يكون الحي الذي حان أجله في حالة استعداد وتلاؤم وعلى نفس التـردد مــع هؤلاء الملائكة. ثـم إن المكلفين بهذه المهمة ليسـوا واحدًا، بـل كثيـرون إلى درجـة يصعب عدها. وإذا أخذنا في نظـر الاعتبار أن من الممكـن إرسـال ملك واحد لقبض روح أي محتضَـر تبين لنا عدم وجود مشكلة في الأمر.

والله أعلم.

الأماكن التي أرسل فيها الأنبياء

سؤال: **بما أن جميع الأنبياء ظهروا في شبه جزيرة العرب فكيف يكون الذين يعيشون في البلدان الأخرى مسؤولين من ناحية العقيدة والعمل؟**

الجواب: لهذا السؤال شقان:

الأول: ظهور الأنبياء في شبه جزيرة العرب فقط وعدم ظهورهم في البلدان والقارات الأخرى.

الثاني: ليس من العدل تعذيب الأمم التي لم يرسل لها الأنبياء.

والآن لنتناول كل شق على حدة، إلَّا أنه من المفيد بل من الضروري التنبيه أولًا إلى مكانة الأنبياء بين الناس.

النبوة مرتبة سامية جدًّا. فهي الغصن المُدَلَّى من الحق تعالى إلى الخلق، وهي قلب الوجود ولسانه من وراء هذا العالم الأرضي. وفيها تتجلى عملية سمو وعملية اختيار واصطفاء وعملية تكليف وإرسال. وليس النبي مجرد عبقري يملك عقلًا كبيرًا يستطيع النفوذ إلى صُلب الأحداث، فالنبي هو الإنسان الأفق الذي جميع ملكاته وقابلياته في ذروة الحركة والفعالية وفي نشاط دائمي موّاج يرسم في تموجه أفقًا جديدًا من السمو، وهذه الفعالية متوجهة إلى استقبال النسائم الإلهية في كل أمر. الجسم عنده في إمرة الروح والعقلُ وفي إمرة القلب. ونظره متوجه على الدوام إلى عالم الأسماء والصفات الإلهية، وتصل قدمه

إلى كل ما يصل إليه بصره، أي هما دائمًا معًا. أما المشاعر عند النبي فتكون نامية ومتفتحةً حتى آخر برعم فيها. وقابليته في الرؤية والسمع والإدراك تتجاوز حدودها الاعتيادية والطبيعية. ولا يمكننا أبدًا في إطار قابليتنا في التحليل والتركيب أن نصل أو حتى أن نقترب من آفاق علوم الأنبياء، تلك العلوم التي تكاد تجتاز الحدود الطبيعية.

تستطيع الإنسانية بواسطة الأنبياء اكتشاف ماهية الأشياء. ولا يمكن النفوذ الكامل إلى طبيعة الأشياء وحقائق الأحداث خارج إرشادهم وتعليمهم، ولا التدخل الصائب في الطبيعة دون إرشادهم.

كانت الوظيفة الأولى والدرس الأول لهم هو تقديم أسرار الطبيعة وقوانينها الإلهية إلى البشرية، وكان هذا الدرس خاصًّا بالمبتدئين؛ ثم قاموا بشرح الأسماء والصفات للخالق العظيم الذي يشهد له الكون والوجود كله؛ أما بالنسبة لذاته تعالى التي تعجز عن إدراكها العقول فقد وضعوا لهم ميزانًا دقيقًا ووجهوهم إلى اتخاذ الحيطة والحذر في هذا الموضوع. فذلك الخالق الذي يمسك كل هذه العوالم بيد قُدرته، بدءًا من الذرات حتى مجموعات المجرات، ويسري فيها حكمه، ويقلّبها كيف يشاء كحبات سبحة ويحولها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل... لو لم تكن هناك بيانات الأنبياء الواضحة حول صفات تلك الذات العلوية المقدسة لَما أمكن إطلاق أي حكم صحيح أو التفكيرُ بشكل صحيح في حقه ﷻ.

إذًا فإن النبي إضافة إلى نفوذه إلى قلب الأشياء وحقائق الأحداث وإلقائه علينا دروسًا في الحياة بكاملها إلَّا أنّ أهم دروسه هو شرح صفات وأسماء صاحب القدرة المطلقة والعلاقات والموازنات الدقيقة الموجودة بين أسماءه الحسنى وصفاته العليا وبين الذات الإلهية.

لـذا فليـس هنـاك أي احتمـال أن يخلو أو يحـرم أي بلد مـن البلدان ولا أي زمـن مـن الأزمـان من فيـض أنوارهـم. وكيف يمكـن ورود هذا الاحتمـال والبشـرية لم تعـرف خارج نطـاق إرشـاداتهم أي حكم صافٍ واضح لعالم الوجود، ولم تسـتطـع الارتفاع فوق شـكوك وشـبه وتناقض الفلسـفة وترددها وضبابيتها في هـذا الخصوص. لذا فإن العقل والحكمة والقـرآن يتفقـون على أن كل أمة وكل قارّة وكل عهد لا تخلو من إرشـاد نبي، ولا يمكن العكس.

فبينمـا نـرى حاجة كل متحف صغير أو معرض صغير إلى مسـؤولين عن التشريفات وإلى أدِلاء، وزيارة هذه المتاحف والمعارض تفقد معناها وغايتهـا وتكـون عبثًـا في غيـاب المرشـدين والأدِلاء؛ لـذا فكيف يمكن تصـور مجيء الزوار إلى القصر العظيـم لهذا الكون من دون وجود أدلاء ومرشدين يدلون الزوار على خصائص هذا القصر العظيم وإلى أسراره؟

وهـل هنـاك أي احتمال أن القادر المطلـق ﷻ الذي خلق هذا الكون وهذا النظام، وجعل هذا الكون معرضًا للفن الإلهي بأرْوع صوره، والذي عرّف نفسـه لمشـاهديه بآثاره وبدائعه، فهل يعقل أنـه بعد عرضه كل هذه الآثار والمعارض الربانية لا يختار أشخاصًا متميزين ليقوموا بتعريف ذاته وصفاته وأسـمائه إلى هؤلاء المشـاهدين المشـتاقين فيكـون كل ما عمله من أعمال حكيمة -حاشا لله- عبثًا، ويعرض أفعاله الحكيمة للاتهام؟ بينما كل شـيء يخبرنـا بلسـان واحد وبنغمة واحـدة بأن القـادر المطلق حكيمٌ في كل شؤونه منزّهٌ عن العبث متعال عن ذلك.

هذا علاوةً على أن الله تعالى يقول في كتابه الكريم عن ظهور الأنبياء في كل أمة ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ (سُـورَةُ النَّحْلِ: ٣٦/١٦). ولكن البشـرية سـرعان ما نسيت الدروس التي تلقتها

من هؤلاء الأشخاص العظام، وانحرفت عن الصراط السوي بتقديسها لهؤلاء الأنبياء وتأليههم، فعادتْ إلى الوثنية مرة أخرى. وهناك مئات من الأوثان التي خلقها الخيال الإنساني ممتدة من جبل الآلهة في اليونان حتى نهر الجانج في الهند، وهذه الأديان مختلفة في وضعها وشكلها الحالي عن وضعها وشكلها في بداية ظهورها اختلافًا كبيرًا.

لذا لا يمكننا تقييم "كونفشيوس" الصين أو "براهما" و"بوذا" الهند تقييمًا صحيحًا إلا بعد التعرف على ظروف عهودهم وما جاؤوا به بداية. فالزمن يبلي كل شيء، وتتغير خلاله نظرات الإنسان وقيمه. لذا فمن الصعوبة بمكان أن نعرف إلى أي مدى تغيرت صورة هؤلاء وابتعدت عن أصلها بسبب عوامل الزمان الذي يغير كل شيء وبسبب فكر الإنسان التغيُّرُ والتحولُ شأنُه.

لو لم يقم القرآن الكريم -ببيانه المزيل لكل الشبه- بإعلامنا وإخبارنا عن عيسى عليه السلام لَما كان بالإمكان معرفة حقيقته داخل جدران الكنائس ضمن مفاهيم القسيسين والرهبان الذين يقومون حول تماثيل عيسى عليه السلام بمراسيم اختلطت بها شعائر الوثنية. إذ إن رفع البشر إلى مرتبة الألوهية وتنزيل الذات الإلهية إلى مرتبة البشر، والدخول في تناقض عقلي صارخ من أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وتحريف العقيدة وتشويهها وتزييف العقل والمنطق لَهو أعظم صفاقة وجحود لله سبحانه.

ونحن نشاهد الآن أن الشعائر المسيحية المحرفة في معابدها لا تختلف كثيرًا من ناحية الشكل عن الوثنية اليونانية والرومانية. ولولا البيان القرآني وتوضيحاته فإن من يشاهد الكنيسة وما يجري فيها يصعب عليه تمييز المسيح عليه السلام عن "أبولّو".

لذا فإذا كانت المسيحية قد حرفت كتابها وشوَّهت صورة نبيها كل هذا التحريف والتشويه وهي قريبة الظهور من عصرنا، إذًا فكم من مسيح وجد في القرون الأبعد وكم منهم تعرض إلى تحوير دينه وتحريف صورته في أذهان الناس. عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "**مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ**"[٧٩]، وهذا مهم جدًّا. أجل، فكم من دين نراه الآن دينًا باطلًا نبع من نبع صاف في بدايته وكان الوحي مصدره، ولكنه نتيجة جهل أتباعه والعداء الظالم لأعدائه انقلب بجميع أُسسه إلى مجموعة من الخرافات والأوهام.

إذًا فإن معظم الأديان ذات المظاهر الباطلة والتي استمرت ووصلت إلى أيامنا الحالية كانت مستندة في الماضي إلى أسس متينة صالحة صافية في الأكثر. والظاهر أن كل عصر كان يحمل سمة وختم نبي من الأنبياء.

إن إسناد النبوة إلى شخص ليس بنبي يُعد كفرًا ككفر إنكار نبوةِ نبيّ. إن الإنسان لا يملك نفسه من النظر نظرة شك إلى منشإ البوذية أو الاقتراب بحذر كبير من "البراهمة". بل يجب البحث حتى عمّا وراء الفلسفة العقيمة الضيقة للكونفيشيوسية أيضًا. وأعتقد أن من الاحتياط النظر إلى "الشامانية"[٨٠] على أساس أنها تعرضت لكثير من التأويلات.

وسواء أكانت منابع هذه الأديان وبداياتها صافية أم يشوبها بعض الكدر فإنه مما لا يختلف فيه أحد أنها كانت مختلفة عن وضعها الحالي. فهي تعرضت إما لتآكل الزمن، أو تعرضت لتراكمات وإضافات جديدة

(٧٩) صحيح ابن حبان: ٧٣/١٤.

(٨٠) الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف. وإن هذا العالم لا يستجيب إلَّا للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. (عن قاموس المورد)

ممـا أدى إلى تغيرهـا واختلافها عن حالها الأول. ولو فرضنا المسـتحيل ورجـع مؤسسوها إلى الحياة مرة أخرى لما عرفوا الأديان التي جاؤوا بها.

هناك أديان كثيرة في الدنيا تعرضت للتحريف والتغيير، ومن الضروري قبول أن القسْـم الأكبـر منها كانت صافية المنبـع. والقـرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنْ مِـنْ أُمَّـةٍ إِلَّا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سُـورَةُ فَاطِـرٍ: ٢٤/٣٥)، فيعطي بذلك حكمًا عالَميًّـا شـاملًا. ولكننـا لا نعرف من الأنبيـاء الذين ظهروا فـي كل العالم والذي يبلـغ عددهم حسب إحدى الروايات ١٢٤ ألف نبي[٨١].. لا نعرف سـوى ٢٥ (أو ٢٨) نبيًّـا. ومـع ذلك فنحن لا نعـرف أماكن وأزمنة هؤلاء الأنبياء ولا نملك معلومات كافيةً عنهم.

ثـم إننا غيـر مكلفين بمعرفة جميـع الأنبياء الذين جـاؤوا إلى الدنيا. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٧٨/٤٠)، أي إنه نبه إلى عدم الخوض أو المماراة في موضوع الأنبياء الذين لم يقصّ خبرهم علينا.

ولكن من المعلوم من علم تاريخ الأديان والفلسـفة والأنتروبولوجيا وجود نقاط مشتركة عديدة في العقيدة بين كثير من المجتمعات الإنسانية مـع أنها متباعـدة بعضها عن بعض بعدًا كبيـرًا. فمثلًا يلاحظ في جميعها التوجـه مـن التعدديـة إلـى الواحديـة. وعنـد التعـرض إلى مصيبـة كبيرة لا يمكـن تحملهـا يُنبـذ كل شـيء جانبًا وتفتـح الأيدي فـي حضرة ذات عليـة، وترفـع الأيـدي إلـى الأعلـى دائمًا... أي هناك تشـابه فـي مظاهر السـلوك والتصـرف عندما يتعلـق الأمر بشـيء وراء الطبيعة. وهذا يشـير إلى وحْدة المنبـع ووحدة المعلّم. فمن السكان الأصليين في جزر الكناري إلـى الملايـا، ومن الهنـود الحمر إلى قبائـل المومو نرى الشـعائر الدينية نفسها، والألوان والديكور نفسه والأنغام نفسها أو تتشابه فيما بينها.

(٨١) مسند الإمام أحمد: ٢٦٥/٥؛ صحيح ابن حبان: ٧٧/٢؛ المستدرك للحاكم: ٦٥٢/٢.

والملاحظات التي سجلها الأستاذ الدكتور مصطفى محمود حول قبيلتين وحشيتين وبدائيتين جدًّا تؤيد هذا الأمر. إذ يقول الدكتور مصطفى محمود بأن قبيلة المومو تعتقد بإله اسمه ''موجاي''، وهذا إله واحد في ذاته وفي إجراءاته، وهو لم يُولَد من أحد ولم يلِد أحدًا، لا شبيه له ولا ند، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام، ولكنه يُعرف بآثاره. وينقل عن قبيلة ''نِيامْ نيام'' أشياء مشابهة لعقيدة قبيلة المومو، إذ يعتقدون بإله حاكم على كل شيء، قادر على أن يحرك ويوجه كل شيء في الغابة حسب إرادته ويرسل شرارات البرق على الأشرار... أي يؤمنون بالمعبود المطلَق.

وكما تبيَّن فإن العقيدة الإلهية لهؤلاء تتشابه كثيرًا مع ما ورد في القرآن الكريم حول الذات الإلهية، بل نستطيع أن نقول إن المومو يعبرون تقريبًا عن المعنى الوارد في سورة الإخلاص. إذًا فمِن أين استطاع هؤلاء الأقوام -البدائيون البعيدون جدًّا عن المدنية وعن ساحة تأثير الأنبياء الذين نعرفهم- الوصول إلى مثل هذه العقيدة الإلهية العميقة والصافية في الوقت الذي لم يصلوا إلى معرفة أبسط قوانين الحياة؟ إذًا فالآية: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ يُونُسَ: ١٠/٤٧) توضح حقيقةً عالميةً شاملةً، وليست هناك أرض خارجة عن نطاقها.

وسمعت من الأستاذ ''عادل زينل'' أستاذ الرياضيات من مدينة ''كَرْكوك'' في العراق والذي تعرفت به سنة ١٩٦٨م شيئًا شبيهًا بما نقله الدكتور مصطفى محمود، إذ قال بأنه خِلال دراسته العليا في الولايات المتحدة الأمريكية كان كثيرًا ما يلتقي بسكان أمريكا القدماء من الهنود الحمر وأنه استغرب جدًّا من بعض أمورهم. قال ''كانوا يرتبون شعائر دينيةً فيما بينهم، وكانت هذه الشعائر منسجمةً مع عقيدة التوحيد.

إذ رأيتهم يؤمنون بإله لا يأكل ولا يشرب ولا يمر عليه الزمن -أي فوق الزمن- وكانوا يكررون قولهم بأن كل ما يجري في الكون إنما يجري حسب إرادته ومشيئته، وكذلك يتحدثون عن كثير من الصفات السلبية والوجودية. ولم تكن مثل هذه الأفكار العالية السامية تتلاءم أو تتوازى مع حياتهم البدوية البسيطة والبدائية".

إذًا فإنه لا يمكن تفسير العقيدة بين الشرق والغرب وبين الأطراف القاصية من الدنيا إلَّا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هذه البلدان وإلى هذه الأرجاء، لأنه يستحيل إرجاع مثل هذه العقيدة التوحيدية المتوازنة التي لا يستطيع إدراكها كبار الفلاسفة إلى اجتهاد وإلى فكر هؤلاء الأقوام البدائيين من أمثال قبائل المومو أو قبائل الـ"نيام نيام" أو قبائل المايا. إذًا فإن صاحب الرحمة الواسعة الذي لم يترك النحل والنمل دون أمّ، لم يترك نوع البشر دون أنبياء، بل أرسل الأنبياء إلى جميع بقاع الأرض لينشروا فيها النور.

والآن لنأت إلى الشق الثاني من السؤال وهو هل يُعذب من لم يَر نبيًّا؟

لقد رأينا في جواب الشق الأول أن أي بقعة من الأرض لم تخْل من نور النبوة. ومع أنه مرت أوقات جفاف مؤقتة، إلَّا أن الرحمة الإلهية سرعان ما كانت تهطل أمطارًا غزيرة. لذا فكل فرد سمع -قليلًا كان أم كثيرًا- بهذه الرحمة أو شاهدها أو ذاقها أو شبع منها. ولكن في البقاع التي كان التحريف فيها سريعًا نرى سرعة هجوم زمن "الفترة" بظلامه على تلك البقاع، أي إن فترات النور والظلام كانت متعاقبةً، والذين وقعوا دون إرادتهم في فترة من فترات الظلام نرى الرحمة الإلهية تنجدهم ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧). إذًا فالإنذار أولًا، والتكليف ثانيًا، ثم العذاب أو الرحمة.

نعم، لأئمة المذاهب آراء مختلفة في فروع هذا الأمر، فالإمام الماتريدي وأتباعه مثلًا لا يرى أي عذر لأي شخص في عدم معرفة وجود الله ولا سيما بعد آلاف البراهين والأدلة التي تشير إليه والتي يزخر بها الكون. أما الأشعرية فيقولون بأن معنى الآية: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٥/١٧) هو دليل على أن استحقاق العذاب لا يكون إلا بعد التبليغ.

وهناك من يوفق بين الرأيين فيقول: إن كان هناك شخص لم ير أي نبي ولكنه لم يعبد صنَمًا ولم يلحد بالله فهو من أهل النجاة، ذلك لأن هناك كثيرًا من الناس المحرومين من قابلية التحليل والتركيب الفكري، كما لا يستطيعون استنباط المعاني من سير الأمور والأحداث. لذا يجب أولًا إرشاد أمثال هؤلاء، ثم نرى ما إذا كانوا يستحقون الثواب أو العقاب. ولكن إن كان هناك من اتخذ الكفر مهنةً له ومسلكًا، ويفلسف هذا الكفر، ويعلن الحرب على الله، فسيَلقى جزاء إلحاده وكفره وإن كان في أقصى الأرض.

والنتيجة أنه ما من بقعة أو بلد خلا من الأنبياء، وأنه ما من زمن "فترة" طويل خال من الأنبياء. فإنسان كل عهد أخذ نصيبه من النسيم العطر الذي نشره نبي من الأنبياء. أما في الأماكن التي نُسي فيها اسم النبي وذكْره وبهتت آثاره بمرور الزمن، فقد أطلق تعبير "الفترة" على هذه العهود حتى ظهور نبي آخر، ومثل هذه العهود -أي عهود الفترة- سيُغفر لأهلها ولكن بشرط ألا يكفروا بالله وألا يلحدوا به عن سابق قصد وشعور. والله تعالى المحيط بعلمه بكل شيء هو أعلم بالصواب.

حدوث الأرواح

سـؤال: **بمـا أن الأرواح غيـر متغيـرة، إذًا فهـي ليسـت حادثـة، ما قولكم في هذا؟**

الجـواب: هـذه مسـألة من المسـائل العميقـة في علم الـكلام، وهي تحتوي على ما يأتي: نحن نقول بأن الكون متغير وعرضة للتبدل باستمرار، لـذا نقـول عـن الكون إنـه حـادث، أي إنـه كان معدومًا فخُلـق فيما بعد، وأنـه سـائر نحـو الاضمحـلال، ويتحـرك بشـكل دائـم ويتحلـل. ونقول "إن منظِّم وبارئ هذا الكون المتحول مبرّأٌ من التبدل والتغيّر"؛ أي يمكن إطـلاق اسـم مبدأ "رجـوع المتبدِّل إلـى غير المتبدل"، أي إن كل شـيء متغيرٍ ومتبدل يدل ويشـير ويرجـع خلقه وأمره إلى الذات الأقدس المبرأ مـن التبـدل والتغيـر والتحـول، وهـو الله ﷻ الواجب الوجـود. وهو منزه عن جميـع العوارض الكونية والبشـرية. لذا فالمسـألة أعلاه ترد عند سرد هذه الصفات الإلهية، ويرد هنا سؤال وإشكال:

إن الله لا يتغيـر ولا يتبـدل، لا يأكل ولا يشـرب، وهو قديم، ووجوده من ذاته وهو أبدي كذلك.

أمـا بالنسـبة للروح فهو بسـيط، أي إنـه غير متركب من مـادة، وهو من عالـم الأمر -كما جاء في القـرآن- وليس من عالم الخلق (أي وجوده ليس ناشـئًا مـن اجتمـاع الذرات)، بل هـو قانون مثـل القوانين الكونيـة، لطيفٌ، ذو شـعور، خُلق بأمر من الله تعالى؛ أي إن الروح قانون مثل قانون الجاذبية

الموجـودة بين نـواة الذرة والإلكترونات ومثل قانـون النمو الموجود داخل البذرة. ولكنه يملك شعورًا، بينما لا تملك القوانين الأخرى حياةً ولا شعورًا.

الروح بسيط بمعنى أنه غير مركّب من المادة، لذا لا يتحلل ولا يتأين (أي لا يتحلـل إلـى أيونـات)، ولـه وجود ثابـت. لذا قد يخطـر على بال البعض بأنه يشبه الله تعالى -حاشا لله- في هذه الناحية. أي كما أن الله منزه عن التغيّر فالروح أيضًا لا يتغير... فما الفرق إذًا؟

إن الله تعالـى منـزه عن التبدل والتغير وعن الألوان والأشـكال تنزهًا ذاتيًا. بينما خُلق الروح بسـيطًا بأمر الله تعالى. فالله خالق والروح مخلوق، والله قائـم بذاتـه وموجود بذاته بينما الروح -وكذلك سـائر الموجودات- قائمة به ﷻ. فكل شيء يمد يده يطلب العون منه ﷻ قائلًا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سـورةُ الفَاتِحَـةِ: ٥/١)، وكذلك الروح فهو مخلوق مـن المخلوقات الْمَادَّةِ يَدَ الاسـتعانة والحاجة والسـؤال إليه تعالى. ووجود الروح قائم بالله، أي هو موجـود طالمـا اسـتند إليه ﷻ، فإن لم يسـتند إليـه فَنِـيَ. والله تعالى خلق الروح وجعله قانونًا ذا شـعور مسـتندًا إلى قدرته تعالى وإرادته، ووجوده مستمر ودائم بهذه الصيغة فقط.

ولنضـرب مثـالًا يقرّب هذا إلى الأذهان: إن للشـمس ضياءً وشـعاعًا وألوانًا، ونشاهد هذا في القمر أيضًا؛ ولكن إن افترضت فناء الشمس فإنك لن تستطيع تصور أي ضوء أو نور في القمر. فالنور الموجود في القمر أثر أو عرض من الأضواء الأصلية الموجودة في الشمس. فإن فنيت الشمس فـلا يبقـى هنـاك مجال لـدوام واسـتمرار النور فـي القمر. فهل تسـتطيع أن تدعي في مثل هذه الحالة المسـاواة بين الشمس والقمر؟ كلا، والقرآن يصـف القمـر قائـلا ﴿وَقَمَـرًا مُنِـيرًا﴾ (سُـورَةُ الفُرْقَـانِ: ٦١/٢٥) ويصف ضوءه ﴿وَالْقَمَـرَ نُـورًا﴾ (سُـورَةُ يُونُـسَ: ٥/١٠) و﴿وَجَعَـلَ الْقَمَـرَ فِيهِـنَّ نُـورًا﴾

(سُورَةُ نُوحٍ: ١٦/٧١)، بينما يصف الشمس: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (سُورَةُ نُوحٍ: ١٦/٧١) و﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (سُورَةُ النَّبَإِ: ١٣/٧٨). صحيح أن هذا المثال وهذا التشبيه لا يناسب مقام الألوهية السامية، ولكن كانت هناك حاجة إلى تشبيه مادّيّ لكي تستطيع الأذهان فهم الموضوع.

وسيعطي الله تعالى البقاء والخلود إلى الأجساد أيضًا إضافةً إلى الأرواح في الآخرة. الله باق... وهم باقون... ولكن بقاءهم مرهون وقائم به تعالى، إن أراد أفناهم جميعًا. أما وجوده هو تعالى فقائم به وبذاته... يمكن أن يفنى الجميع... أما الذات الأقدس فهو منزه عن جميع العوارض ومبرَّأ منها.

إيجاد المعدوم وإفناء الموجود

سؤال: يقولون: ''لا وجود من العدم ولا عدم من الوجود''، فهل هذا القول صحيح؟

الجواب: ينسب هذا القول إلى لافوازييه (*Lavoisier*)، وهو ادعاء محض، يقولون: المادة تتألف من الطاقة، وهي صورة متشكلة منها، فالمادة من الطاقة والطاقة من المادّة وهكذا دواليك، إذًا لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم، فمثلًا الأحياء على الأرض إذا ماتوا تآكلوا وغدوا ترابًا، فما يزالون موجودين وإنْ كانوا بصورةِ تراب، والهيدروجين في الشمس يتحول إلى هليوم، وتنتشر أشعتها وإشعاعاتها وموجاتها في أرجاء العالم، بل تمتد إلى عدة منظومات أخرى فتستفيد منها، فكيفية الوجود هي التي تتغير، أما الوجود نفسه فباقٍ.

أولًا: عندما يقول لافوازييه: ''لا وجود من العدم ولا عدم من الوجود'' يمكن أنه يريد بذلك أن الموجود لا يفنى بنفسه، ولا يوجد المعدوم أيضًا بنفسه. فلا قدرة للمصادفات والأسباب على الإيجاد والإفناء بل إن البشر وهم الذين يتمتعون بأكبر قابلية في الوجود لا طاقة لهم بإفناء موجود أو إيجاد معدوم، وهم إنما يقدرون على تغيير مركبات الموجود فحسب، فالموجود يحافظ على وجوده ويظلّ المعدوم معدومًا إلى الأبد، أمَّا إذا أسندنا الأمر إلى الحق سبحانه فسينقلب الحكم رأسًا على عقب، فالله تعالى يُفني الموجود ويوجد المعدوم، فالمعاند القائل ''لا وجود من العدم'' وهو يرى في كلّ ربيع آلافًا من النباتات تُخلق من العدم، هو أولى بالعدم.

أجـل، إن الله تبـارك وتعالى يُفني الموجود ويُوجـد المعدوم، والحقُّ أنَّه لا اعتراض للافوازييه على هذا.

ثانيًـا: هـل يحيط علمنـا القاصر بمسـألة الوجود والعـدم ليصح مثل هذا الادعاء؟

منـذ أبيقور وطاليس والناس يظنّون أن الذرّة هي أصغر أجزاء المادّة، أمَّـا اليوم فاكتشـفوا أنها تتشـكل مـن أجزاء أصغـر، من إلكترونـات فيها شحنات كهربائية سالبة، وبروتونات فيها شحنات إيجابية، ونيترونات غير مشـحونة، وكلها تدور حول نواة الذرة، ولم يكن لأحد علمٌ بهذه المسألة في الماضي، وأصبحت اليوم معلومةً لكل أحد، بل اكتشفوا الآن أن تلك الأجزاء تنشر موجات على الدوام.

فمعلوماتنـا فـي تجـدُّد مسـتمرّ، بـل في كل لحظـة تُخـزَّن معلومات جديدة في ذاكرتنا المعلوماتية، وبينما تطرأ على نظرية الذرة تغيرات عدّة، نشـأت نظريـة وحدة الطاقة الضوئيـة (الفوتون)، فصـبَّ العلماء جهودهم على الجُسَيمات.

نظـنُّ أننـا نعلم الكثير، بيد أن ما نعرفه عن الوجود بالنسـبة لما نجهله ليس سوى قطرة في بحر.

كنـا نظـنّ حتـى الأمـس القريب أنّ كلّ شـيء يتشـكل مـن الذرات، أمَّا اليوم فنظرية المادة المضادة تقول إن هناك ''ذرة مضادة'' تقابل الذرة، وبوسعنا أن نلحظ هذا عند قوله تعالى ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سُورَةُ يس: ٣٦/٣٦).

أمعنـوا النظـر فـي الإيمـان الـذي لقّنـه القـرآن الكريـم والحقائـق العلمية التي أشـار إليها: فمن كلّ شـيء خلق سـبحانه زوجين، من الذرّة

حتى الكواكب السيَّارة، أمَّا الأحد بلا شريك فهو واحد، لا يتجزأ ولا ينقسم، ولا يَطْعم ولا يشرب، ولا يحده زمان ولا مكان، ولا يُدرَك بالكم والكيف، فوجوده ذاتيّ، سبحان ربّي الأجلّ الأعلى، فهو مبرأ ومنزه عن الحدوث وملابسة الحوادث.

إن مسألة المادة المضادّة والذرة المضادة والبروتون المضاد والنيترون المضاد التي اشتغل بها العلماء كثيرًا في عالم الفيزياء والفيزياء الفلكية من أندرسون إلى أسيموف على اعتبار أنها نظرية جديدة لَتثبت لنا قِصر حدود معارفنا وقلة استيعابنا المعرفي. فالإنسان المغرور بعلمه يدرك من هذه الاكتشافات الحديثة أن علمه نقطة في بحر، فالإنسان كلما قرأ ازداد علمه وجهله على حد سواء.

وبعدما اكتشف أندرسون البوزترون، اكتشف شيئًا آخر يدور مكان الإلكترون. إن ما اكتشفه كان مشحونا بشحنة موجبة، ومن المعلوم أن الإلكترون لا بد أن يكون مشحونًا بشحنة سالبة، وهذا يثبت أن هناك مادة مضادة تقابل المادة. وما زال العلماء يشتغلون الآن ويبذلون قصارى جهدهم لحلّ هذا السر. وإن واصلنا التعداد امتدّ بنا الموضوع إلى الجُسَيْم المضاد والبروتون المضاد والنترون المضاد والإلكترون المضاد والجزئي المضاد... ولربما يقال مثل هذا للكائنات الحية -رغم أنه لم يُكتشف بعد- أعني النبات المضاد والإنسان المضاد والحيوان المضاد...

يقول أينشتاين وهو الذي ظهر صدق كثير من تنبؤاته: ''المكان ذو البعد الثلاثيّ المرئيّ له بُعْدٌ رابع هو الزمان''، ولا ريب أن هذا منوط بالإدراك والحدس، فلو كنتم في هذا المكان مثلًا فنظرتكم إلى الأشياء ستختلف كليًّا، فهناك مكانٌ آخر غير ما نحن فيه، ولم يتشكل ذلكم المكان مطلقًا عن تحوّل مادة أخرى.

- ما العلاقة بين المادة والمادة المضادة؟

يقال إنهما مخلوقتان تتمكن إحداهما من القضاء على الأخرى.

ويقول العلماء: ستقضي المادة على المادة المضادة في يوم ما؛ بيد أنه لا يوجد أي دليل يؤكد كلامهم.

لو فرضنا صدق بعض دعواهم وقلنا: إن كثافة المادة على الأرض أكثر من المادة المضادّة، وكانتا متقابلتين عندما خُلق الكون، ثم أكل كلٌّ منهما الآخر وقضى عليه، وأخيرًا اقتضت أسباب شتّى بقاء بقيّة من المادة، فتفوقت على المادة المضادة، ومنها نشأ هذا العالم.

ما يقولونه تأباه العقول؛ فلو وقع مثل هذا لما كان يسوغ الكلام عن وجود مادّة مضادّة على الأرض، فمقتضَى ذاك الادعاء أن المادة المضادة قد قضي عليها منذ بدء الخلق.

وبمنظار آخر: دعوى وجود ما هو مضاد للمادّة والذرة تشير إلى عالم خفيّ عنّا، فنحن خُلقنا من مادة مرئية، ولربما خُلِق الجنّ من مادة شبيهة بالمادة المضادة؟ ولِمَ يأبى أناسٌ خلقَ الملائكة من نور؟ أوليس من الممكن أن الملائكة أوتيت قوَّةً تمكنّهم من القضاء علينا؟

وفي سيرة الأنبياء ما قد يشير لذلك، ففي القرآن أن الملائكة نزلت وتمثّلت بصورة أشياء ماديّة فأهلكت أقوامًا، فلو أمرها الله تعالى وأذن لها لدمّرت الكون بسلسلة إجراءات؛ فللمادة نسيج معين وللمادة المضادة آخر كما الجن والملائكة، فمَثَل الدنيا والآخرة كمثل المادة والمادّة المضادة، والمكان والمكان المضادّ، والزمان والزمان المضادّ.

كان النبي ﷺ يرى الجنة حقيقة، ويأخذ عناقيدها بيده، ويرى جهنم، ويُفزِعه ما فيها من أهوال وفظائع، فهو ﷺ كان يتصل بعالم المادة المضادّة وهو ما يزال في عالم المادة.

إذًا إنَّ وجود العالم بمادَّته ومادّته المضادَّةِ ليس شيئًا يسيرًا، وعليه فلا محلّ لقول قائل ''لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم'' بناءً على قولٍ مهجور قيل قبل قرن.

وأجدني مضطرًّا لأكرر أنّ ما نعرفه عن العالم نَزْرٌ يسير، فقديمًا قامت القيامة حول مادة الأثير، وحاول فريق إثبات وجودها بأدلة شتى، وأنكره آخرون مثل مايكلسون وفقًا لما دلَّت عليه نتائج أبحاثهم، فعارضهم لورينز هذه المرة قائلًا: ''كلا، لا يمكنكم أن تقولوا هذا''، فكانوا جميعًا يقولون ما هَدَت إليه أبحاثهم. أليس غريبًا إذًا القطعُ بحكم في مسألة الوجود والعدم رغم كل ما لا نعلم ماهيته ومنه الإنسان؟

ويمكن أن تهلك يومًا ما واحدةٌ من المادة والمادة المضادة، فتتطور الأخرى، لربما ترون يومئذ كائنات تحسبونها بشرًا مثلكم، فإذا لمستموها إذا بأيديكم تنفذ من ناحية إلى أخرى، فسمّوها إن شئتم جنًّا أو ملائكةً أو أجسامًا لطيفةً.

بعد كل ما ذكر يتضح أنّ وراء المادة عالمًا آخر، ''والذين يبحثون عن كل شيء في المادة، عقولهم في عيونهم؛ والعين في المعنويات عمياء''(٨٢).

إن وراء المادة عالَمًا عظيمًا واسعًا مغايرًا للمادة، عالم يتجلى فيه المعنى الحقيقي والنور الإلهي والذات الأحدية، ولا علم لنا به؛ فيدُ العلم قاصرة لا تبلغه.

ثالثًا: كلنا شاهد على إفناء ما هو موجود وإيجاد ما هو معدوم، فهو سبحانه يوجد النور في لحظة، ثم يُفنيه ويوجد الظلمة مكانه، ثم يفني الظلمة ويوجد النور مرة أخرى.

(٨٢) المكتوبات لبديع الزمان سعيد النُورْسي: نوى الحقيقة ٥٥.

وما زالت هذه الأحداث تتكرر أمام أعيننا، وفي كل موسم يخلق من العدم نباتًا وحيوانات لم تكن شيئًا لنرى بأعيننا عمليات إيجاد المعدوم وإفناء الموجود، ويوم تفنى هذه المخلوقات كلها سنشهد كيف يفنى الوجود أيضًا، فينكشف سرُّ الآيةِ الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٢٦/٥٥)، وسيفنى كل ما على الأرض بجوانبه المادية.

أجل، كل شيء فان، ولا باقي إلا الله ﷻ؛ فهو القادر على إفناء الموجود وإيجاد المعدوم.

والخلاصة أنّ الأفكار الغائمة هي ملاذ الماديين بنصب إلهٍ ماديّ أو قُل نصب المادة إلهًا، بدلًا من الخالق البارئ الذي يُفني الموجود ويوجد المعدوم، والذي يُشعرنا بوجوده عن طريق عجائب صنعه في الكون؛ ويدّعون أن المادة هي التي تدبّر أمر العالم، وما القوى الكيماوية والميكانيكية سوى خصائص لها.

والحق أن حقيقة المادة التي عدّوها كل شيء مجهولة؛ والغريب أن الماديين الملحدين لله لأنهم لا يعرفون كنهه -وهذا لأن الخلق عاجزون عن إدراكه- لا يرون بأسًا في عدّ المادة التي لا يدركون حقيقتها أصلَ كل شيء.

دعك من تناقضاتهم، وهلم إلى شيء من منهجهم الفكري:

المادة عندهم هي أُسّ الخلق والوجود، فهي تتحكم في كل شيء، بل إن القوة أسيرة بيدها؛ فبينما يحاولون تفسير حقيقة الوجود تجدهم يحيلون أمر العالم وانتظام الكون وتوازنه إلى ذرات عمياء لا علم لها ولا وعي ولا إدراك.

وعلى الإنسان أن يكون أعمى بلا وعي لينطلي عليه هذا الخزي من خرافات لا صلة لها بالعلم.

ذاك هو أبرز ما بيننا وبين الماديين من اختلاف، فالمادة عندهم أساس كل شيء، وحركتها وتشكلها ذاتيان، وكأنهم يعتمدون في هذا على المشاهدة والتجربة.

أما نحن -معتمدين أيضًا على المشاهدة والتجربة والعلوم الطبيعية- فنؤمن بأن المادة موجود أعمى بلا وعي ولا إدراك، تستمد حركتها وقوتها وتأثيرها في المركبات مِن مدبِّر عليم قدير وجودُه ذاتيّ وأمرُ كل شيء إلى علمه وقدرته ﷻ.

نعم، فالدوغمائية هي صبغة الماديين ومنهم المعاصرون، فالقضايا النظرية المحتملة يظهرونها علميةً قطعيةً، ليضلوا الناس؛ وهم أنفسهم من ثاروا على دوغمائية المسيحية لينكروا كل شيء، وإذا بهم يقعون أخيرًا في الدوامة نفسها والغيّ نفسه لكن من طريق آخر.

ومستندهم في معظم دعاواهم التي أعلنوها إمّا تأويلات خاطئة أو أقيسة فاسدة؛ ومنها دعواهم أنه لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم، ولو جاء يوم أثبت فيه العلماء خطأ دعاواهم قطعًا فسيختلقون غيرها ليستندوا إليها في إلحادهم.

مصادر

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت:٢٣٥هـ)؛ **مصنف ابن أبي شيبة**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

ابن أبي شيبة، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي (ت:٢٩٧هـ)؛ **العرش وما رُوِي فيه**؛ تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي؛ مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت:٦٣٠هـ)؛ **الكامل في التاريخ**؛ تحقيق: عمر عبد السلام تدمري؛ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

ابن الهمام، محمد بن همام الدين عبد الواحد (ت:٨٦هـ)؛ **المسايرة في علم الكلام**.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت:٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)؛ **الإصابة في تمييز الصحابة**؛ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت:٢٣٠هـ)؛ **الطبقات الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابـن كثيـر، أبو الفداء إسـماعيل بن عمر بن كثير القرشـي البصري ثم الدمشـقي (ت:٧٧٤هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، ١-١٥، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م.

ـــــــ، **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيـع، ١-٨، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الديـن (ت:٢١٣هـ)؛ **السـيرة النبوية**؛ تحقيـق: مصطفى السـقا وإبراهيم الأبيـاري وعبد الحفيظ الشـلبي؛ شـركة مكتبة ومطبعـة مصطفى البابي، ١-٢، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ ه/١٩٥٥م.

أبو داود، سـليمان بن الأشـعث بن إسحاق بن بشـير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْـتاني (ت:٢٧٥هـ)؛ **سـنن أبي داود**؛ تحقيـق: محمد محيي الدين عبد الحميد؛ المكتبة العصرية، صيدا-بيروت؛ ١-٤.

أبو عوانة، يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (ت:٣١٦هـ)؛ **مسند أبي عوانة**؛ تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٥، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت:٤٣٠هـ)؛ **دلائـل النبوة**؛ تحقيـق: الدكتور محمـد رواس قلعه جي، عبـد البـر عبـاس؛ دار النفائـس، بيـروت، ١-٢، الطبعة الثانيـة، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.

أحمـد بـن حنبـل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشـيباني ؛ **مسـند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

الإسـفراييني، طاهر بن محمد (ت:٤٧١هـ/١٠٧٨م)؛ **التبصير في الدين**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

الأشـعري، أبو الحسـن علي بن إسـماعيل بن أبي بشـر (ت:٣٢٤هـ)؛ **مقالات الإسلاميين** ؛ ١-٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البخاري، محمد بن إسـماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت:٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **الجامـع الصحيـح**؛ تحقيـق: محمـد زهير بن ناصـر الناصـر؛ دار طوق النجاة، ١-٩، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه.

البـــزار، أبـو بكـر أحمـد بـن عمـرو بـن عبـد الخالـق بن خـلاد بـن عبيد الله العتكـي (ت:٢٩٢هـ)؛ **مسـند البـزار**؛ تحقيق: محفـوظ الرحمن زين الله

(من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت:٤٦٣هـ)؛ **تاريخ بغداد**؛ تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١-١٦، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت:٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت:١٠٤١هـ)؛ **نفح الطيب**؛ تحقيق: إحسان عباس؛ دار صادر-بيروت، لبنان، ١-٨.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت:٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

سعيد النورسي، بديع الزمان (ت:١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت:٣٦٠هـ)؛ **مسند الشاميين**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

ـــــــ، **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (ت:٣١٠هـ)؛ تاريخ الطبري؛ دار التراث، بيروت، ١-١١، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

ـــــــ، **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م.

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت:٢١١هـ)؛ **مصنف عبد الرازق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

عبد العزيز البخاري، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (ت:٧٣٠هـ)؛ **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**؛ دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١-٤، بدون طبعة وبدون تاريخ.

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت:١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم**؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

المناوي، محمد بن عبد الرؤوف بن علي (ت:١٠٣١هـ)؛ **التعاريف**؛ دار الفكر، بيروت، ١٤١٠.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت:٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، ١٩٩٢م.

النسفي، لشيخ الإمام أبي المعين ميمون بن محمد النسفي، (ت:٥٠٨هـ)؛ **تبصرة الأدلة في الكلام**.

الردّ على شُبُهات العَصر

محمد فتح الله كُولَن

إننا لم نستطع تقديم الحقائق بصورة مُشبعة لشبابنا... لقد أهملنا شبابنا وشباب العالم أجمع مع أنهم يحتاجون إلى الرسالة التي نحملها كحاجتهم إلى الهواء والماء...

وعندما نقارن حالنا مع حال الصحابة الكرام الذين حملوا مشعل الهداية إلى جميع أنحاء الأرض في مدة قصيرة، ومع حالِ وجهود التابعين الذين أتوا من بعدهم يظهر بوضوح مدى كَسلنا وخمودنا وجمودنا. لقد كان دَيْدان الصحابة والتابعين البحث عن القلوب والأنفس المحتاجة إلى الهدى والنور وجعلوا إيصال هذا النور إلى الناس غاية حياتهم.

ISBN 978-975-315-616-5